رهن الغياب

رواية

تأليف

هويدا سعيد

طبعة ٢٠١٩

سعيد، هويدا

رهن الغياب: رواية/هويدا سعيد؛ - الجيزة: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، ٢٠١٨ .

٢٨٠ ص ,٢٠ سم

تدمك: ٧٤٣٤ ٣٩٩ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رهن الغياب

رواية

تأليف

هويدا سعيد

رئيس مجلس الإدارة

عادل المصرى

عضو مجلس الإدارة المنتدب

نوران المصرى

رقم الإيداع

٢٣٢٦٠/٢٠١٨

الترقيم الدولى

٩٧٨-٩٧٧-٣٩٩-٧٤٣-٤

الطبعة الاولى

طبعة ٢٠١٩

الكتاب : رهن الغياب

المؤلف : هويدا سعيد

الغلاف : عبدالله نصر

الناشر: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى ش.م.م

٢٥ ش وادى النيل – المهندسين – الجيزة

sales@atlasdic.com

www.atlas-publishing.com

تليفون : ٣٣٤٦٥٨٥٠ – ٣٣٠٤٢٤٧١ – ٣٣٠٢٧٩٦٥

فاكــس : ٣٣٠٢٨٣٢٨

****

إهداء

إلى قلب لمْ يَمَلَّ منّي..

قلب أمي.

العاشرة ليلًا في فندق شبرد - Shepherd Hotel.. قاعة نفرتيتي.. القاهرة

تَنقلت وسط الجموع كفراشة يفوح منها الانزعاج من أمرٍ ما؛ من مطاردة صيد أو نار تستميت في النيل من جناحيها الرقيقين، في حين يفوح مِمَّنْ حولها خليط من العطور العالمية الذائعة الصيت، ويَتَملَّكهم الفرح الذي كانت هي من ثوانٍ فقط في صدارة لذته. لم يستطع التقدم في العمر أن يُحكِم سيطرته على حُسْنِها، ولم يستطع حجابها أن يُخَبِّئَ هذا الحسن بالقدر الكافي على الرغم من تنفيذه المهمة المُوَكَّل بها بإتقان، وبحركة أُنْثَوية غير مُتكلفةٍ رفعت قليلًا طرف ثوبها الطويل المحتشم الذي استعارت منه السماء لون بهجتها في تلك الليلة، وخَطَتْ بحذائها الفضيَّ ذي الكعب العالي بصعوبة بين عدد كبير من الأقدام لرجال ونساء وأطفال، وأخذت تقَلب نظرها في الوُجُوه في قاعة الأفراح الفسيحة تلك؛ باحثة فيهم عن شَيءٍ ما يَنقُصها بشدة، ظلت تفعل ذلك وتقوم بالاتصال بشخص ما عن طريق هاتفها المحمول، لكنها لم تجد ما تبحث عنه، ولم تَتلَقَّ أي رد من الهاتف!

كانت القاعة بمحتوياتها تغوص في اللونين الأبيض والوردي ما بين مفروشات وزينة، يتوسط كل طاولة مجموعة من الأزهار الكلاسيكية الناعمة، وإلى جانبها بعض الشموع المتناسقة؛ مما جعل القاعة تبدو كما الحلم، فَضَّل بعض الحُضُور الجلوس إلى الطاولات للمتابعة وتجاذب أطراف الحديث، وفَضَّل بعضهم الآخر ـ وأغلبهم في مرحلة الشباب ـ الالتفاف حول العروسين مُتفاعلين بالرقص والتصفيق والغناء.

اخترقت الدكتورة عهد بجسدها الرشيق كالفراشة حلقة الرقص مُقتربة من رَجُل ذي شعر رمادي ناعم، يَرْتَدِي حُلَّة سوداء، وربتت بكفها الغضة على ظهره العريض عدة مرات متتالية لكي ينتبه لها فالتفت وأصبح وجهه المتسائل مُقَابِلًا لوجهها المستدير المنزعج بَعدما قطعت عليه مُراقصة ابنتهما العَرُوس نيرة التي تبدو في فستان فرحتها غير التقليدي من حيث التصميم واللون مثل أميرات القصص الخيالية بقوامها الفرنسي ونفحات من ملامح والدتها عهد كالعين الواسعة الجهنمية تلك، عَلَتْ غُيُومُ القلق نبرة صوت عهد وهي تسأله:

- زيدان، هل رأيْتَ عبد الرحمن؟

فتجهم وتَنحَّت الابتسامة جانبًا عن وجه نيرة وحلت محلها ملامح الرجاء بأن لا تُفسِد أُمها عليها ليلة طالما تمنت أن تعيشها

بكل تفاصيلها الرائعة، ومالت برأسها قليلًا عليها لتُسمعها صوتها بقَدْر الإمكان وسط صخب الموسيقى وتداخله مع أصوات الحُضُور:

- لقد تركَ قُبلة على رأسي مُهَنئًا قبل دخولنا القاعة ولم أَرَهُ بَعدها، فلا داعي إلى القلق سيظهر على أي حال.

ومرت بيدها على التاج المرصع المستقر على خصلات شعرها الأحمر، واستدارت عهد وقبل أن تبتعد وتَدعهُما يستأنفان ما قطعوه بسببها، جذبها زيدان من كتفها برفق وقد جحظت عيناه:

- ابنكِ لو لم يجد مشكلة سيقتل نفسه ليصير هو المشكلة!

ألهبت كلماته غضبها، لكنها لم تُجبْهُ واكتفت بنظرة استغراب من رد فعله، وابتعدت عنهما وهي تُحرك شفتيها بالابتسام بطريقة آلية لمن تقع عيناها عليه من الحاضرين وتمتمت بصوتٍ منخفض:

- كأن عبد الرحمن جُرم وارتكبته وحدي! كان الله في عون النساء من مجتمع يرى فيه الرِّجَال أنفسهم ملائكة، الرِّجَال فوق الأخطاء!

هاتفت عبد الرحمن مرات عديدة ولم يأتها غير رنين الهاتف الذي أجهد صموده إصرارها على الاستمرار في الاتصال، فوقفت عند باب القاعة بأعصاب مهزوزة تتأمل المدعوين ويفصلها عن التأمل بين الحين والآخر مُباركة مُفاجئة من أحدهم.

لم توسع من دائرة تساؤلاتها عن عبد الرحمن حتى لا يستاء كلٌّ من زوجها وابنتها اللذان يريان أنها تضخم الأمر، فلم يكن أحد يشعر بزوابع القلق التي تعصف بها وتنفرد بها بَعيدًا عن كل هؤلاء البشر وفتحت أمامها باب الحزن على مصراعيه، فبينما كان زيدان ينظر إليها من وقتٍ إلى آخر للاطمئنان، كان الحزن ينظر إليها طوال الوقت من كل ركن، انتقاها الحزن، فالحزن لا ينتقي مَن يداهمه إلا بعنايةٍ فائقة، يعرف جيدًا أصحاب القلوب التي لا تتحمل مجرد مروره الخاطف عليها، فيداهمها بكل ثقة بأساليبه الخاصة في المداهمة والقتل، وعادةً ما تكون تلك الأساليب نظيفة بلا قطرة دمٍ واحدة، غير ملموسة أو محسوسة من المحيطين بالمستَهْدَف، فالحزن هو القاتل الوحيد المأجور بلا أجر، والفرح الغائب هو المحرض اللعين، وأحيانًا يخرج من رَحِم الحزن الفرح فليس من الضروري أن يكون الحزن هو جبانة جثامين السعادة!

انتهى الحفل، وفي طريق العودة إلى المنزل، بقيت عهد صامتة مُسَلسَلة بالقلق، وهي جالسة على الكرسي المجاور لزيدان الذي كان يقود السيارة وقال محاولًا أيضًا قيادة دفة الحديث بينهما لكسر هذا الصمت:

- عندما نعود إلى البيت، سنجد عبد الرحمن نائمًا في فراشه.

فلم يَأْتِهِ رد، فألقى عليها نظرة يتفحص وجومها ثم قال:

- أليس غَريبًا ألا يدعو عبد الرحمن أيًّا من أصدقائه إلى عُرس أخته الوحيدة؟!

أدركَ بَعْد هذه الجملة أنه من الأنسب أن يصمت وينتبه جيدًا للطريق؛ فقد أخفق بجَدارةٍ في كسر حلقة واحدة من حلقات القلق المسَلسلة به، فالقلق بارع في الركض في كل خلايا الجسم، يهيمن على كل المدارك، ويذهب بضحيته إلى حيث يريد هو لا إلى حيث هي تريد، وهذا ما فعله تمامًا معها!

توقفت السيارة أمام إحدى العمارات في ميدان لبنان بمنطقة المهندسين، فنزلت عهد وواصل زيدان القيادة إلى الموقف الخاص، اجتازت مدخل العمارة، فتبينت تعطل المِصْعَد فأسرعت تنهب درجات السلم بَعدما نزعت فردتي حذائها ووصلت بأنفاس مُتَقطعةٍ إلى الطابق السابع الذي تقع فيه شقتها، فترددت عند إدارة المفتاح في قفل الباب، التقم الخوف قلبها في هذه اللحظة لكنها استجمعت شجاعتها وفتحت الباب في النهاية، الأنوار في الداخل مُضَاءة بخلاف ما تركتها عليه، عبرت الصالة على مهل واتجهت إلى آخر الممر المؤدي إلى غرف النوم وأصبحت أمام غرفة عبد الرحمن، كان بَابها مواربًا وينبعث منها ضوء وهواء بارد يأتيها بَعد عبثه بالستائر مُحدثة صَوتًا من جَرَّاء تحرُكها، الخوف

جعلها كالمسمار المدقوق في أرضية الممر فلم تستطع دخول الغرفة، فهمس صَوتٌ ما إليها مُخَفِّفًا عنها حدة الموقف: «إنه حتمًا في الداخل»، فردت: «وماذا لو لم يكن في الداخل؟ وما الذي ينتظرني في الداخل؟» فازداد صدرها انقباضًا وانقضت عليها الأفكار والأسئلة: «لِمَ المجهول دائمًا يسوقنا إلى تَوقُّع أسوأ النتائج ونحن في حالة ضعف؟! لِمَ هو بكل هذه القسوة على عقولنا المحدودة التي لا تستطيع استيعابه وعلى قلوبنا التي تخشى على هشاشتها من دموية صدماته؟! يُصدِّر لنا كل ما لديه من بضائع الخوف، في حين عدم قدرتنا على إغراق موانئ ضعفنا بكل ما عليها من بضائع الخوف تلك»!

وقبل أن يهِم صوتها بالمناداة على عبد الرحمن إذا بصوت صك باب الشقة يرعبها ويتقدم نحوها ببطء شبح يفوقها طولًا، فالممر شبه مُظلم ومفتاح الإنارة بعِيد عن متناول يدها فهربت الدماء من عروقها، وأخيرًا وصل إليها صوت ذلك الشبح:

- هل وجدتيه نائمًا كما أخبرتكِ؟

إنه زيدان، كيف نسيت أنه كان في الخارج! فتنفست الصعداء وأمسك يدها المثَلجة، وبمجرد أن وطئت أقدامهما الغرفة لاحظا أن خزانة الملابس مفتوحة وخاوية وبعض الملابس والشماعات متناثرين على الأرضية وجميع الأدراج كذلك مفتوحة وقد أُخذت

الأشياء المهمة من داخلها، وفراش عبد الرحمن خالٍ منه وتستلقي مكانه بعشوائية بعض الأوراق والصور المَزقة.

سقطت عهد جالسة على حافة السرير ككُتلةٍ تسقط من مرتفع وتساقطت منها الكلمات حرفًا حرفًا مُتَشربة بالدموع:

- ابني خُطف!

فجلس زيدان إلى جانبها مستمرًا في التحديق إلى جميع أنحاء الغرفة باستبهام:

- إنه أكبر من أن يُخطف!

وكمَن رشق ناقلة بترول مُنقلبة على الطريق بشعلة:

- وهل الصغار فقط مَن يُخطفون؟! لِمَ لا أراكَ موجوع القلب عليه؟!

وبهدوئه المتَأصل فيه:

- ما زلتُ مدهوشًا!

وسجلت عدسة عينه المزيد من اللقطات لما عليه الغرفة:

- لا يتضح لي إلى الآن غير أنه ذهب بإرادته الكاملة إلى مكانٍ ما.

وأشار إليها:

- أُنظُري إلى هذه الأوراق والصور، لِمَ يُمزقها الخاطفون إذا سلَّمْنا بصحة فرضيتكِ؟

التقط إحدى الشماعات متابعًا:

- وأغراضه! هل يحرصون على أن يجمعوها له لكي لا يحتاج إليها أثناء إقامته الجبرية لديهم؟!

- فلنتصل بالشرطة.

- وبماذا نخبرهم؟! ابننا الشاب البالغ من العمر خمسة وعشرين عامًا اختفى واختفت معه بعض أغراضه الشخصية.

واستدرك قائلًا:

- وطبقًا للقانون فأنه لم يَمْضِ على غيابه أربع وعشرون ساعة، فأين المنطق في هذا؟!

فاحتدم غضبها:

- ليذهب المنطق إلى الجحيم عندما يتعلق الأمر بابني!

ووجهت وجهها إلى الصور الممزقة وطفرت الدموع من عينيها. مر عليهما وقت من الانتظار في حيرة وصمت، ثم نهض زيدان وتوجه إلى النافذة المفتوحة وأطل برأسه خارجها ينظر يمينًا ويسارًا إلى الطريق الذي افتقر إلى السيارات والمارة بَعد دخول وقت الفجر ونسيمه البارد، وفي مُحاولةٍ يائسة اتصل مجددًا بعبد الرحمن، فاتسعت حدقتا عينيه والتفت سريعًا إلى عهد:

- هاتفه مشغول!

فهبت واقفة مضطربة الأنفاس:

- مشغول! أَعد الاتصال، أَعد!

في توقيت اتصاله، أُجرِيَت مكالمة من رقم هاتف عبد الرحمن:

- مَرحبًا.

- أين أَنتَ الآن؟

- أنا في الطريق.

- هل اتبعْتَ التعليمات بدقة؟

- نعم.

انتهت المكالمة وظهر بَعْدها رقم زيدان فأُغْلِقَ الهاتف، فازداد الأبوان حيرة لعدم رده عليهما فلم يُغضبهُ أحد ليفعل ذلك! صليا

الفجر متضرعان إلى الله أن يكون ابنهما بخير ولم يجرؤ النوم أن يُخَيم في عينيهما تلك الليلة، وظل على مَقربةٍ منهما يترقب ما سيحدث، غير أن عين نيرة عرفت طريقها إلى النوم والراحة في الغرفة المجاورة، ليلة هي كألف عام كأن الليل نعيمه في أن يزيد شقاء الأنفس المرهَقة صُعودًا وهُبوطًا على مَواطِن الجروح بإيقاع بطيء، فزاد من شقاء هذين الأبوين.

توقفت مسيرة الحياة بأسرة عبد الرحمن إلا من البحث عنه، في الأماكن التي كانوا على عِلم بأنه يرتادها وسؤال الأقارب والجيران وزملاء العمل الذي تركه منذ عدة أشهر، وتوصلت نيرة إلى بعض أصدقائه المقربين عن طريق صفحته الشخصية على موقع التواصل الاجتماعي فيس بوك – Facebook. قلة هُم المقربون من أخيها، وقد تنوعت ردودهم عندما سألتهم عنه:

- لا أعرف عنه شيئًا منذ مدة.
- في الفترة الأخيرة كانت الرسائل هي وسيلة الاتصال الوحيدة بيننا؛ نظرًا إلى مشاغل الحياة.
- عبد الرحمن شخص غريب الأطوار، ولم أتواصل معه منذ وقت طويل.
- قابلته منذ شهر تقريبًا مصادفة في مركز تجاري بمدينة نصر ولم نتحدث كثيرًا.

لـم يَتَبَـقَّ أمامهـا إلا صديـق واحـد لـه لـم تسـتطع التوصـل إليـه وكذلـك والديهـا، وازداد إحسـاس الفقـد بينهـم حَجمًـا وثقـلًا خصوصًـا عهـد فإحسـاس الفقـد لا يضاهيـه أي إحسـاس آخـر، يجعـل رؤيـة الحيـاة ضبابيـة والطعـم السـائد هـو المَـرُّ عندمـا نفقـد فجـأة مَـنْ علـى أعمدتهـم يُقَـام القلـب، وبَعدهـم ينهـار القلـب بـكل يُسـرٍ، ويعـود الإحسـاس بالفقـد ببقايانـا المنهـارة إلـى دهاليـز الزمـن الخلفيـة ويبقيهـا في خزانـة ذكرياتنـا مـع مَـن فقدناهـم، وعَـادةً مـا تكون عودتنـا إلـى حياتنـا الطبيعيـة مرهُونـةً بعـودة مَـن الغيـاب صـار لهـم القيـد والمنفـى.

●●●

قرية بُرَج مغيزل.. كفر الشيخ

عندما يحلو للفقد العيش في مكان فإنه لا يبرحه، وقد حلت له الإقامة بقرية برج مغيزل، مركز مطوبس – محافظة كفر الشيخ، ينشر طيوره السوداء القبيحة في أرجائها وكل مسامها، تضرب بأجنحتها الهواء فيصير الأكسجين حزنًا والنور ظُلْمة والحياة موتًا، تعرف مناقيرها الحادة المدببة أين يكمن في دواخل أهل القرية الحلم فتقتلعه وتواريه في مياه البحر يجرفه التيار حيث يشاء.

تتلاصق بيوت القرية بجوار بعضها بعضًا في ألفةٍ، بيوت مُنْهكة، أنهكتها دورة الزمن كما أنهكت أصحابها الكائنين بين جدرانها، طوابقها في الغالب غير مُرتفعةٍ، وطلاء واجهات بعضها ذهب عنه الرونق وأخرى ما تزال تحتفظ به، بيوت مُتداعية وأخرى مُشيدة حديثًا تقف أكثرها دون جلدها، دون المِحارة بقوالب الطوب الأحمر أو الأسمنتي، وتُظهر التراجع الواضح للطوب اللبن.

مياه البحر الأبيض المتوسط للقرية مثل الدم المتدفق في الوريد، البحر يعني لأهلها السبيل إلى الحياة وقد يعني أيضًا

الفقد الذي لا تشمه إلا أنوفهم، ويمثل لحزب آخر الحرية والهروب من واقع صعب إلى تلك البلاد البعيدة؛ الجنة الأوروبية في نظرهم.

تَتَرَاصُّ مراكب الصيد أو البلنصات ـ كما يسميها أهل القرية ـ في صف أو أكثر قُرب الشاطئ فتبدو مغزولة من زرقة مياه البحر بنول يدوي بإجادة فائقةٍ، طافية فوقه كأنهما من نسيج واحد مُتلاحم، وترقد في تجويف الكثير منها شباك الصيد تأخذ قسطًا من الراحة أو ربما لشح الرزق ترقد، وشباك أخرى تتدلى أطرافها الجافة في البحر عطشى له تتحسسه أو تستجديه أن يفيض عليهم بالرزق، وهنا صياد داخل مركبه يتفقده، وهنالك ثلاثة صيادون في أعْمَارٍ مختلفةٍ جالسين على سطح أحد المراكب بملابس من بساطتها وعدم تناسق ألوانها لها جاذبية فريدة في نوعها وباهتمام الطبيب الماهر يخيطون ثقوب شباكهم. وجوه لفحتها الشمس بسمرة الكد، والمياه استباحت ملمس الأيادي والأقدام وتركتهم للشقوق، وعلى الرغم من ذلك يظل للابتسامة حيز فوق الوجوه لم تستسلم بَعد أمام تأزم العيش!

على مقربة من ورش لصناعة السفن واليخوت، وبين بعض أشجار النخيل فناء واسع مسقوف بالبوص متربع على أرضيته رجل بجلباب مُهترئ، له لحية قصيرة بيضاء، عُمْره يناهز السبعين

عامًا، وعلى الرغم من كثرة الخطوط التي حُفرت في وجهه وتجعل مَن يراه يتأكد أنه قد مر من هنا الكثير من الزمن، وعلى الرغم من الهموم التي تكسوه، فالسماحة والرضا تزاحمهم بكفاءة، على يمينه مذياع قديم توقف إنتاجه منذ زمن طويل، يُحرك مؤشره من وقتٍ إلى آخر برعشة يدٍ خفيفة لازمته نتيجة الكبَر ويثبته على ما يود الإنصات له من البث الإذاعي، وإلى جانب المذياع صينية مستديرة من الألومنيوم منبعجة بعض الشيء من فرط الاستعمال والقدم قد فرغ كوبها للتو من الشاي، أمامه قفص من الجريد لم يكتمل تصنيعه بَعد يقترب منه يُدقق به النظر حِينًا ويقرب إلى عينيه عود الجريد الذي بين أصابعه التي تميل إلى الزرقة حِينًا آخر، وحوله أكوام من أعواد الجريد وأقفاص سبق أن أنجزها؛ ليبتاعها مَن يريد أن يستخدمها في تربية الطيور أو لنقل الخضراوات والفاكهة وما شابه ذلك من أغراض، لكنه لم يعد بنفس المهارة التي كان يصنع بها الأقفاص وهو أصغر سِنًّا من ذلك، فالعظم الواهن وضعف البصر قد أَثَّرَا سَلبًا على أدائه.

نظر صانع الأقفاص إلى الشاب الواقف قبالته قائلًا:

- هذا هو اليوم التالي، أَلَمْ تَنْتَهِ بَعْد؟!

فانفرجت شفتاه عن ابتسامة وهو يُضيف بعض اللمسات إلى لوحته الزيتية التي غرس حاملها أمام مشهد هذه الصناعة:

- هل وجودي يسبب لكَ الضيق يا عم بيومي؟

فرد قائلًا، وقد ازداد أزيز صدره:

- لا يا ولدي، إني خائف فقط على نظركَ وانحناء ظهركَ، فما نُهلكه من صحتنا باستهانةٍ في الصغر سَيعزُّ عليه مرافقتنا في الكبر، هكذا تكون العدالة الخفية!

وفور سعال متواصل أزاح بيده أعواد الجريد عن حصيرته المهَلْهلة؛ يُهَيئ للشاب الرسام مكانًا للجلوس:

- أرح نفسكَ قليلًا.

- لستُ مُتعبًا، فعندما أفعل ما أحبُ لا أشعر بأي تعب!

- على راحتكَ .

- استرح أنتَ قليلًا يا عم بيومي.

- أستريح! ومَن يُطعمني يا ولدي؟

وخزه رده للنخاع على الرغم من السعادة التي كانت تملؤه منذ قليل وهو يغمس الفرشاة في معجون الألوان ويُمَرِّرُها على سطح اللوحة فتدب في أوصالها الحياة! وما هي إلا لحظات حتى قطع مسار الفرشاة على اللوحة، حملقة صبي مُفلفل الشعر، بعُمْر العاشرة قائلًا للرسام:

- الحاج يوسف يريدكَ الآن عند المرْسى.

- لماذا؟

- هناك رَجُل وامرأة يبحثان عنكَ.

- مَن هما؟

- لا أعرف، لكن يبدو أنهما من خارج القرية.

لملم الرسام أدواته ووضعها وحامل اللوحة جانبًا، راوغته الحيرة بالتساؤلات واعتصرته الدهشة، فستأذن عم بيومي وانصرف مع الصبي «الرسول الصغير» المعروف عنه المشاكسة؛ لذا لم يستطع الإفلات منه أو أن يهادنه ببعض الوقت، وكلما اقتربت قدمه من المرسى، اتضحت له رؤية الرَّجُل والمرأة الجالسين على مقعدين أتى بهما الحاج يوسف بالقرب من مركبه ليستريحا عليهما بَعد أن دلهما أحد الأهالي على مكانه، كان الرجل والمرأة هما زيدان وعهد التي أبت أن يتوجه زيدان بمفرده إلى القرية؛ فالمفقود ابنها، وقد تفرغت للبحث عنه إلى أن تعود الروح إلى الجسد بعودته إليها، فبَعد حادثة اختفائه قدمت طلب إجازة دون راتب إلى محل عملها بالمركز القومي للبحوث العلمية الذي تشغل فيه وظيفة باحث بقسم النبات.

أخبرها زيدان قبل المجيء بأن السفر إلى القرية كما عَلِم من بعض المعارف مُعَقَّدٌ وطويل ويجب أن تَدَعْ هذا الأمر للرجال، مما جعلها تسأل نفسها: «للرجال! لِمَ هؤلاء الرجال يعتقدون أن الضعف لا وطن له إلا بين ضلوع المرأة على الرغم من أنها هي التي تتحمل دائمًا حماقاتهم التي لا يستطيع جَبَل تحملها؟! أيكون خائفًا عليَّ حُبًّا؟ حُبًّا! لقد نسف بروده العاطفي هذه الكلمة من منبت جذورها منذ أمَدٍ بعيدٍ، بعيد جدًّا، يغفل الرَّجُل أن المرأة مهما اجتازت من بوابات سنين العمر تظل في احتياج مستمر إلى حُب يغلفه الاهتمام، لدفء كلمةٍ لا لجليد حضن»!

كان السفر عسيرًا لكنها ما اشتكت، ولم يكن يصلح الذهاب بسيارة خاصة؛ فالطريق المؤدي إلى القرية غير مُمَهَّدٍ ولا يسع لسير سيارتين من الاتجاهين المعَاكسين في نفس الوقت، فأقلتهم وسائل نقل مختلفة كان آخرها ذلك الصندوق المعدني الصغير الذي تفشى بجميع أنحاء الجمهورية ويُطلق عليه التوك توك، أو البجاج، أو الركشة باللغة الهندية، وعلى بُعْد أمتارٍ قليلة ظهر الرسام أمامهم ومعه الرسول الصغير، فنهضت عهد ترمقه مضطربة المشاعر، وهام الدمع بعينيها ونسيت كل ما عانته في الطريق، وفي تلك اللحظة خرج موكب مَهيب من شارع جانبي اجتذب الأنظار ولكز القلوب وحال بينهم وبين الرسام، تقدم الموكب مجموعة من الرجال يحملون على

أكتافهم نعشًا يليهم أفواج من الأهالي وسط اشتداد بكاء وعويل النساء المرتديات للسواد.

مرت الجنازة، وسنحت لها رؤيته مرة أخرى، شاب هو متوسط القامة ليس بالنحيف ولا بالضخم، بشرته خمرية، له لحية وشَارِب خفيفان، وإذا بأحد السائرين المتأثرين بالموكب الجنائزي يقطع عليها رؤيته سائلًا الحاج يوسف:

- لِمَن الجنازة؟

- لجابر بن فضل الله، غرق أثناء سعيه إلى الصيد!

فأستأنف الرجل طريقه داعيًا للغريق بالرحمة والمغفرة، وها هو ذا الشاب الرسام المنتظر واقفًا تجاه عهد بعينيه العسليتين، أخيرًا توصلت إلى مصطفى صديق ابنها الحميم الذي لم تستطع التواصل معه قبل هذه اللحظة، وبمجرد أن أبصرته رأت فيه ابنها مع اختلاف الشبه بينهما.

تنهد مصطفى بألمٍ وهو يتنقل بعينيه بين زيدان وعهد:

- أهلًا بكما في قرية الأحزان!

وأردف:

- سأعود سريعًا.

وأطلق ساقه للريح، فاعتذر إليهما الحاج يوسف للحاق ابنه مصطفى بالجنازة؛ فقد كان على معرفة بالفريق الجديد، بالألم الجديد في فؤاد القرية فشعرت عهد بالاختناق يضغط على عضلة قلبها يُشبِعها وجعًا من إحكام فكرة الموت عليها، ودق رأسها وجعًا مُضاعفًا على هيئة سؤال: «أمتَّ يا عبد الرحمن؟ متَّ وحدكَ، دوني، فالموت لا ينتظر أذنًا من أحدٍ، فهو يدخل من أي منفذ يريد ليوسعنا وجعًا بأنانيته المعهودة حين يستأثر بأحبتنا بعيدًا عنا إلى الأبد»!

وجَّه الحاج يوسف كلامه إليها قائلًا:

- لقد اعتدنا مواكب الجنازات أكثر من أي شَيءٍ آخر!

فلم تبادله الحديث ولم يَتَمَادَ هو فيه فقد كان رَجُلًا قليل الكلام، صعب المراس، فوقف يترقب عودة ابنه من مراسم الدفن بملبس بَللِه ماء البحر، ذلك الماء الذي جففت مُلوحته شحم جسده على مدار سنوات، فبدا كهلًا نحيفًا بشعر أشيب منحسر عن جانبي الرأس.

وفي رمزية مؤلمة، دُفن نعش جابر عوضًا عن الجثة، وعاد مصطفى مغبر الوجه، لقد عرف لأول وهلة أنهما والدي صديقه عبد الرحمن، فكم من المرات زاره في المنزل، وكانت والدته تُعد الطعام الشهي وتدخله لهما الغرفة بوجه صبيح مبتسم وحُنُوٍّ بالغ.

ألـح الحـاج يوسـف وابنـه علـى والـدي عبـد الرحمـن لنقـل ضيافتهمـا إلـى البيـت إلـى أن وافقـا، فأمـر رسـوله الصغيـر ربيـع الـذي يعمـل علـى مركبـه للصيـد أن يسـبَقهم ليُعلـم أهـل البيـت بأنـه قـادم هـو ومصطفـى ومعهمـا ضيفـان، فلـم يكـن يُجَـارِي تطـور العصـر ويمتلـك هاتفًـا محمـولًا، وعنـد بـاب البيـت اسـتقبلت ابنتـه خديجـة الضيفـين بحفـاوة، ورحـب بهمـا مـن الداخـل صـوت مشـحون بالأوجـاع، صـوت زوجتـه الحاجـة صالحـة التـي تحاملـت علـى نفسـها وقامـت مـن فـوق أريكـة الصالـة، وكانـت بدانتهـا تتغطـى بأمتـارٍ مـن قمـاش أسـود ذي قَصّـة فضفاضـة حتـى إن غطـاء رأسـها أخـذ حصتـه مـن السـواد، وبعْـد التعـارف وكـرم الضيافـة كُشـف عـن سـبب هـذه الزيـارة ولغـز اختفـاء عبـد الرحمـن وعـدم رد مصطفـى علـى مُراسـلات صفحتـه الإلكترونيـة فيـس بـوك – Facebook، مـع عـدم توافـر أرقـام هواتـف أصدقـاء عبـد الرحمـن لأسـرته ومـن بينهـم رقمـه، فأوضـح لهمـا أن هاتفـه المحمـول سـقط منـه سَـهوًا في ميـاه البحـر وتعطـل ويُعـد الهاتـف وسـيلته الوحيـدة للاتصـال بالإنترنـت لـذا لـم يكـن يـرد، وأبلغهمـا أيضًـا أنـه لـم يسـافر إلـى العاصمـة منـذ مـدة بَعدمـا عجـزت عـن تدبيـر فرصـة عمـل مناسـبة لـه، لـم يتلقيـا منـه أي معلومـة تفيدهمـا في البحـث، فشـعرت عهـد بالإحبـاط وقالـت في نفسـها بجـزع: «أيـن أنـتَ يـا عبـد الرحمـن؟»، تمسـك أهـل البيـت بمبيتهمـا معهـم الليلـة فالشـمس أوشـكت أن تغيـب، وفي مثـل هـذا

التوقيت يكون من الصعب أن يجدا ما يقلهما برًّا إلى كفر الشيخ، لا يوجد غير المعدية النيلية إلى رشيد، فلم ترُقْ لعهد فكرة المبيت خاصةً أن البيت بمساحته الصغيرة وأثاثه البسيط المتهالك يئن من حَمْل أصحابه؛ الجدة، والوالدين، وأبناء ثلاثة، كذلك لم يَرُقها الحل الثاني المتمثل في ركوب المعدية، لكن ما من خيار آخر أمامهما فأوصلهما مصطفى إلى المرسى، وصعقت عهد من الحالة التي عليها المعدية، فالمكان الأمثل لألواحها المتآكلة نار مدفئة وبِتَعَنُّت:

- لا، لن أضع قدمي في هذا الشيء المتَداعي أبدًا، فلننتظر واحدة أخرى.

وعن طبيعة الوضع قال لها مصطفى:

- جميع المعديات هنا كهذه وأحيانًا لا نجدها.

رصد الفتى قائد المعدية بنظره الحاد تعنتها فصاح مُهَددًا بسلاطة لسانه بأنه لن يعود مرةً أخرى إلى القرية ولينتظر مَن يريد الركوب إلى صباح الغد، فصعقت أكثر:

- الغد!

فاعتلى زيدان المعدية أولًا ثم أخذ بيدها إلى هذا اللحم البشري والمتاع والأغنام والروائح غير الحميدة، ورفع مصطفى صوته قائلًا:

- عشر دقائق وستصلان إلى البر، وبمشيئة الله عبد الرحمن بخيرٍ.

ولَوَّح لهما مُوَدعًا:

- صحبتكما السلامة.

عشر دقائق! تمتمت بها عهد في ضجر، ونظر إليها زيدان بمزيدٍ من اللوم لإقحام نفسها في كل هذا العناء فلم تستغرق في إيماءات لومه وأشاحت بوجهها الناحية الأخرى دون أن تنظر إلى حركة المياه.

استدار مصطفى عائدًا وحدث نفسه بأسى:

- ياااااااه عبد الرحمن!

وعلى بُعْد بنايتين من بيت عائلته وقفت طويلًا في نافذة منخفضة فتاة شابة بطرحة أرجوانية اللون تطلعت إليه بشوق وهو قادم من بعيد يمشي ببطء، فأشرق وجهها الأبيض الذابل فَرحًا برؤيته وعادت إليه الدموية، تلاقت عيناه بعينيها البُنيتين اللتين كم تَغَزَّلَ بهما فابتسمت له مستبشرة حتى بانت نواجذها لعله يقول لها كلمة أو يُشير بالتحية فنكس رأسه حتى أوشك أن يقع من بين كتفيه إلى أن دخل البيت وصك خلفه الباب وغربت الشمس بَعدها، كانت هي أحد أسباب عدم اكتراثه بتعطل هاتفه

عن العمل، فابتعدت عن النافذة تأكلها الحسرة على الرغم من اعتيادها جفاء معاملته لها في الفترة الأخيرة، لبثت ساهمة لا ترد على صديقتها ريم التي جاءت خصوصًا إلى مَسكنها وأملت الكثير من وراء رؤية مَن يصنفه القلب حبيبًا وعبر النافذة تجرعت هزيمتها بَعدما اختلقت لوالدها أمر مرض ريم الشديد لكي تأتيه، فقد كان لا يسمح لها بالتزاور مع الفتيات، حتى مع هذه الصديقة المقربة التي تعود معرفتها بها إلى فترة الدراسة بالمعهد.

أعادت ريم عليها السؤال مرة أخرى بلهجة متلطفة:

- هل رَأَيْتِهِ؟ أحلام أجيبيني. هل رأيتِ مصطفى؟

رفعت أحلام هامتها ونظرت إليها بعينين حزينتين ثم انفجرت باكية؛ فمنذ أن عرفته ودموعها متدفقة، شقت لها أخْاديدًا على وجنتيها، وتعللت لها بتأخر الوقت فلا بد أن تذهب إلى المنزل الآن وذهبت، فعندما يجر انتظارنا أذيال الخيبة ننطفئ وننكسر، تشتهينا الدموع ويرتمي في أحضاننا الاحتياج إلى العُزلة، وهذا ما جرى لها في تلك اللحظة.

●●●

دقائق هي كل ما كان يفصل بين السيارة الأجرة التي تَقل زيدان وزوجته وبين باب العمارة التي يقَطنُان فيها، عائدين من رحلة سفرهما الشاقة وغير الموفقة إلى قرية مغيزل، تشاغلت عهد عن إحباطها بمتابعة الطريق؛ فقد كانت تتمنى أن تجد ابنها هناك، أو أن يكون مصطفي يعرف مكانه، أبطأت السيارة لعبور أحد الأشخاص من أمامها، فصرخت عهد فجأة في السائق مُحدقة ببصرها إلى الجانب الأيمن من الطريق من خلال الزجاج الخلفي للسيارة:

- توقف، توقف!

فتوقف وفمه الواسع يغمغم بكلمات ذم بها تلك المهنة وبرم شاربه في غضب، في حين أسرعت هي بفتح مقبض باب السيارة ورجعت عدة خطوات إلى الوراء، فأشار زيدان إلى السائق أن ينتظر، وأتبعها صائحًا بدهشة:

- ما الخَطب؟!

وأمام أحد مُلتحفي الأرصفة، ذلك العالم المنسي المنَفِّر لبعض المشمئزين خمدت حركتها:

- من أين أَتيتَ بها؟

فلم يهتم الرَّجُل المشرد المتَمدد على الرصيف بهذه الثرثرة، فهو في عوالم أخرى مع أُنَاسٍ آخرين حتى إنه لم يوجه عينيه نحوها.

والتفتت إلى زيدان قائلة:

- انظر إنها بدلة عبد الرحمن التي كان يرتديها في عُرس نيرة، دبوس البدلة هذا يخصه!

وعنفت المشرد المجذوب العقل هذا، وأمسكته من البدلة التي اتسخت من التحافها الرصيف معه وهتفت:

- أين ابني؟ اخلع إنها بدلة ابني!

فهاج الرجل بَعدما استدعته بالقوة من عَوالمه الخاصة به، وكان ما يحدث جديرًا بجذب انتباه بعض المارة، فكفَّ زيدان يدها عن هذا المسكين بَعد جهد وهو يقول لنفسه: «من أين جاءت هذه المرأة بكل تلك القوة والجرأة في لحظة؟!». طار الرجل من أمامهما بالبدلة التي تستُر عُريه وانزوى بعِيدًا عنهما، بَعد أن أفزعته عهد بهذا السلوك العنيف، فحاول زيدان أن يهدأ من ثورتها ثم أوصلها إلى باب العمارة بالسيارة الأجرة:

- اصعدي أَنتِ إلى الشقة وأنا سأعود إليه استفهم منه الأمر بطريقتي.

فاستجابت له دون جِدالٍ هذه المرة؛ فبينها وبين السقوط أرضًا ثَوانٍ فقط، وعاد هو إليه مُمسكًا بكيس من الطعام اشتراه له من أحد المطاعم القريبة، وكان بين يدي هذا المجذوب في ذلك الوقت علبة سجائر وعلبة أعواد ثقاب، أخرج سيجارة من علبتها وأشعلها بعود ثقاب أوقده ونظر طويلاً إليها وهي تحترق ثم ألقاها على الأرض دون أن يأخذ منها نفسًا واحدًا، ثم أخرج واحدة أخرى لم يشعلها، بل قسمها إلى نصفين ورماهما أيضًا وظل يكرر ذلك إلى أن قضى في بضع دقائق على علبة السجائر وأعواد الثقاب كلها، لا يعرف أحد مغزى ما يفعله سواه، وربما هو نفسه لا يعرف، نظر زيدان مدهوشًا من مصرع كل هذا العدد من السجائر إلى أن انتبه وأخرج الطعام من الكيس ومد إليه يده به فلم يقبل الرجل هذه الرشوة المغرية لأمعائه المتأوهة جوعًا، فجلس زيدان على حافة الرصيف على مسافة غير بعيدة منه إلى أن شعر بالسكينة وأخذ الطعام من يده. كانت رائحة المجذوب تصل إلى أنفه وتدل على أن الماء لم يزر جسده منذ مدة ليست بالقصيرة. تفرس في ملامح وجهه التي أخفتها اتساخات متراكمة دكناء اللون، واستطالة شعر رأسه ولحيته الأشعثين فوجده شابًا صغير السن، ضامر الجسد، يداه وقدماه الحافيتان متقرحتان، يكسوهما طبقات سميكة من الجلد الميت وأظافره طويلة شديدة السواد كلون القار ودون أن يفكر سأله مشفقًا إن كانت هذه التقرحات تؤلمه ـ وهي تقتله ألمًا كأشياء أخرى كثيرة ـ فرمقه المجذوب بعين غامت بالدموع كأنما يقول له: «منذ متى وأنتم

تشعرون بأمثالي؟! أنتم تشعرون فقط عندما تُوَارُون سَوْءة أحدنا في التراب لكي لا نقززكم أكثر برؤيتنا ونحن جيفة تعلوها الديدان أو لأن إكرام الميت دفنه، فأين إكرامنا قبل مجيء ذلك اليوم؟!»، فتحدث إليه زيدان كأنه يعقل كلامه وأخبره بأن عهد لم تكن يومًا بهذه الشراسة مع أحد لا سيما المستضعفين، غير أن الفقد أحيانًا يجعل الإنسان كالبارود الملتَهِب يصيب مَن أمامه بعاطفة مُغيبة عن الجميع وحاضرة فقط مع مَن فُقِدَ، وأحيانًا أخرى يجعل من الإنسان مخلوقًا لا حول له ولا قوة! فنهض المجذوب من جواره تَاركًا على الرصيف بعضًا من الطعام الذي أتاه به وذهب إلى حال سبيله يعرج في مشيته وقُضمة من الطعام في فمه.

دخل زيدان غرفة النوم فوجد عهد قد أرخت جسدها على الفراش تنتفض من ألم الروح الذي يُصارعها أكثر من ألم الجسد، فاستلقى إلى جوارها قائلًا:

- لم أستخرج منه كلمةً واحدة!
- أخبر الشرطة غَدًا عن هذا المجذوب وبدلة ابني فقد يفيد في سير التحقيق.
- سأفعل.

وبسط يده أمامها بدبوس عبد الرحمن فاحتضنت يده به وزال عنها بعض التعب!

●●●

جَافَى النوم مُقلتي أحلام وسهرت مع فجيعتها بَعد أن رأت أبخرة الجفاء تتصاعد من عين مصطفى ومن هرولته، عندما كانت تنتظره في نافذة غرفة صديقتها ريم بصبر نافد. كان تغيره معها تغيرًا تدريجيًّا لكنه كان محسوسًا بعمق، بالعمق الذي يُؤذي دونما رحمة، إنه يبدو لها بنفس الملامح لكنه ليس بذات القلب وذات المشاعر اللذين كانا لها يومًا بلا مُنازع فواجهت نفسها: «لماذا لَمْ تتغير مثله؟!» وجاءتها الإجابة التي تُلْجِمُ بَعدها أي تساؤلٍ وتُخرس أي لسانٍ وتمحو أي لغةٍ: «أحبه»، فكلما قررت البُعْد عنه تكون في البداية صلبة حديدية عند قرارها ولكن بركانية الشوق سرعان ما تصهرها فتعود إليه برغبتها بَعدما رحلت عنه على عكس رغبتها فتجد في انتظارها نفس الجفاء فيقتل فيها أي رغبة.

رجعت برأسها إلى الخلف مستندة إلى ظهر سريرها ثم أطالت النظر إلى يدها تسترجع إحساسها بالقبْلة التي كانت شفتاه العاشقة تتركها فوقها ويدنو من أغوار قلبها عندما يغفو دقائق بتلك الشفاه في باطن اليد يرويه قُبلًا مُستحبًّا في ذات اللحظة النظر في عينيها ليلتقط منهما إحساسها به، فدست وجهها داخل الوسادة بعدما تذكرت ذلك تبكي وتكمم شهقاتها؛ حتى لا تَبلُغ أُذُن أبيها النائم في الغرفة المجاورة وتحزنه، فقد أصبح كل شيءٍ تقريبًا يُحزنه بَعد أن انتقلت أمها بدرية إلى بارئها منذ

خمسة أعوام مضت، ومنذ ذلك الحين وهما يعيشان معًا يتوكأ كلٌّ منهما على الآخر، نهضت من الفراش ببطء تفرك عينيها من ألم تورمهما من البكاء المستمر، وأمام المرآة فتحتهما بأعجوبة لتنظر إلى شظايا صورتها المنعكسة بداخلها بازدراء تارة وبشفقة تارة أخرى، ازدرت كون حُسنها غير متواضع وكون حظها بكل هذا القدر من التواضع، تمنت لو كانت العنوان الوحيد للدمامة على هذا الكوكب وتكون في المقَابل محظوظة في الحُب، ومُشفقة من قسوة لا تليق أبدًا بمخلوق معطاء حُبّ مثلها، فدخلت في نوبة أخرى من تشنجات البكاء، موجِع البكاء سِرًّا فلا أحد يدري، وموجِع أكثر علانية فمَنْ في استطاعته أن يخفف ألم هو ليس بصاحبه، ومَن يدري بها؟

هوت بجسدها الضئيل على الأرض وضمت رجليها إلى صدرها وأحاطتهما بذراعيها، ساندة ذقنها إلى ركبتيها، إلى أن هدأت قليلًا ورفعت رأسها في ظُلمةٍ يبددها على استحياء مصباح كهربائي خافت بجوار الفراش، الجو مناسب تمامًا لمجالسة الذكريات التي كانت فيما مضى طاقة استمرار في الحياة أما الآن فصارت سالبة لما وهبته لها يومًا!

رفض والدها منصور خروجها للعمل بَعد إتمامها دراستها في المعهد الفني التجاري؛ فقد خشى أن تتعرض لأي سوء في الطريق

نتيجة الانفلات الأمني والأخلاقي الذي شهدته البلاد عقب أحداث ثورة ٢٥ يناير عام ٢٠١١م، ونقل إلى المنزل ماكينة الخياطة العتيقة خاصته من المحل الصغير الذي يستأجره وحمل لسنوات لافتة «منصور إبرة الترزي»؛ فقد كان متوجسًا من اقتحامه ليلًا وسرقته مثلما حدث لبعض المحلات التجارية المجاورة وقتها، فالماكينة أكثر ما يخاف عليه بَعد ابنته، وأصبح المنزل مقرًّا مؤقتًا لعمله الذي بات يجني منه القليل من المال، فمنذ ما يقارب الشهر قبل إجراء النقل لم يدخل زبون واحد عليه المحل؛ لطغيان أخطبوط الملابس الجاهزة الصينية الصنع على كل شبر فوق خريطة البلاد، ولغلاء المعيشة وارتباك الأوضاع الداخلية، كان زبائنه المعدودون يعرفون مكان منزله جيدًا، ولزيادة التأكيد عَلَّقَ ورقة استرشادية على باب المحل عن ذلك النقل المؤقت.

رحل عام بأحداثه الطاحنة في البلاد والعباد، وعقدت أحلام العزم على البحث عن عمل للمساهمة في نفقات المنزل الذي أصبحت جدرانه بَعد وفاة أمها قاسية وغير مُشجعةٍ على البقاء بينها طويلًا، فتمكن أحد الأقارب من العثور على فرصة عمل لها في مكتب محاسبة برشيد فوافقت دون أدنى تردد، فقد بحثت كثيرًا عن عمل يناسبها ولم تجد، ولم تكن كذلك تهوي الحياكة التي تعلمت أصولها من أبيها.

وفي صباح كل يوم عمل، كان والدها يرافقها إلى المعدية النيلية، وينتظرها عند المرْسى حين عودتها خوفًا عليها من أي خطر قد يصيبها، فالتفكير في فقد آخر ما لديه من أعزاء القلب قد يجعله يَخِرُّ صريعًا، وأثناء انتظاره لها كان الذين يعرفونه من أهالي القرية يُلقون عليه السلام من قريب أو من بعيد؛ فهيئته لا يُخطئها أحد سبق أن تعامل معه بشعره الأشهب، وملامحه المجهَدة، ونظارة طبية لا تفارقه إلا ساعة النوم فقط، وكرش عظيمة، وأحيانًا كان يتطفل عليه أحدهم ليعرف سبب وقوفه عند المرسى، أو ليتفق معه مثلًا على أن يحضر إليه بنطاله ليقصره له بعض الشيء أو لتركيب سحاب، أو لأن إحدى نساء القرية تريده أن يضيق لها قليلًا من عند الخصر عباءتها الكبيرة المقاس في مقابل اثنين أو ثلاثة من الجنيهات، فقد نسي مقصه ملمس القماش الجديد، وما عادت تملأ رائحته أنفه. واظب على مرافقة أحلام إلى أن جعلته يقتنع بمشقة بأن تذهب وتجيء من العمل دونه، وإلى قرابة نهاية العام الحياة روتينية بحتة، تركب أحلام المعدية صباحًا ذاهبة إلى العمل، تأتي ساعة الانصراف، فتركبها مرَّةً أخرى وتعود إلى المنزل، وأحيانًا كانت تكسر هذا الروتين بروتين آخر بشراء احتياجات المنزل والمتطلبات اليومية أو شراء تلك الأشياء التي تحتاج إليها الفتيات: «ملابس، أحذية، مكياج... »، ويظل منصور قلقًا عليها إلى أن تعود، فالمعديات يُرْثَى لها وقد تكررت حوادث غرقها بالركاب.

بدايات شتاء ٢٠١٣م

دخلت أحلام مكتب المحاسبة بهدوء بال وحيوية لم تتأثر بموجة البرد وبعض قطرات المطر التي أدركتها في الطريق، وبصوتها الرقيق ألقت على الجميع التحية المعتادة، وكان هو جالسًا على كرسي من الجلد مُرتديًا سترة جلدية وبنطال من الكتان السميك منهمكًا في الحديث مع زميل لها «ربما يكون أحد العملاء»، هذا ما استنتجه عقلها في لحظتها واستقرت بملابسها الصوفية الثقيلة خلف المكتب المواَجه له ثم نظر إليها ذلك الزميل متوليًا التعارف بينها وبين مَن ظنته عميلًا جديدًا للمكتب:

- الأستاذ مصطفى زميلنا الجديد، الأستاذة أحلام زميلتنا.
- تشرفنا.
- يُسعدنا انضمامُكَ إلينا.

مُبتسمًا: يُسعدني أكثر.

فتحت درج مكتبها وأخرجت منه بعض الملفات ووضعتهم أمامها ثم شغلت جهاز الحاسوب ومارست عملها ولم تُبَالِ بمصطفى فهو في اعتقادها رجل كبقية الرجال ليس أكثر، ولكنها

لم تتحكم في اللمعة التي ظهرت في حَرَم عينها عندما رأته وفي ذات الوقت لم ترتب سريعًا في مخيلتها أي سيناريو مستقبلي يمكن أن يجمعها به؛ لأنها لا تثق بأحد بسهولةٍ لا سيما إذا كان رجلًا، وهي التي لم تثق يومًا بالرجال من كثرة ما طرق سمعها من خياناتهم، إنها تعرف نفسها جيدًا، تعرف أنها إذا حدث وجُرِحَت من رجل أحبته سيَحُولُ هذا الجرح بينها وبين الحُب إلى الأبد، وبينها وبين الثقة وبينها وبين الحياة، تعرف أن مشاعرها أثمن ما تملك، أثمن من أشياء البَشَر المادية وأثمن من مشاعر قد تتوهج فجأة وتخبو أيضًا فجأة.

وفي صباح اليوم التالي في المعدية:

- صباح الخير.

فالتفتت إلى يسارها وتفاجأت بمصطفى:

- صباح الخير، هل أنتَ من سكان القرية؟

- نعم، وعلى ما يبدو أنكِ كذلك لكني لم أركِ من قبل!

- أقدار!

قالتها ووضعت يدها على ثوبها الذي خفق طرفه من هبات الهواء. رست المعدية ونزلا منها يتقدمها مصطفى في السير حتى

غـاب عـن ناظريهـا مـن سـرعة خطواتـه، تتابعـت الأيـام وكانـت قليـلًا مـا تلتقيـه مصادفـةً بعيـدًا عـن العمـل، في ذلـك الطريـق المـؤدي إلـى مرسـى المعديـة أو في المعديـة ذاتهـا، مضـى شـهر ونصـف تقريبًـا علـى نفـس الوتيـرة، وفي يـوم عمـل عـادي وأثنـاء انكبابهـا علـى دفتـر كبيـر قَرَّبَتْ إليهـا إحدى الزميـلات مقعدهـا وبصـوت غيـر مسـموع إلا لكليهمـا اسـتعدادًا للنميمـة قالـت لهـا بلثغتهـا وتـكاد تلامـس شـفتيها أذنهـا:

- لقد تغيب مصطفى اليوم أيضًا عن العمل.

- أعرف.

وبلؤمٍ أنثوي:

- ما رأيكِ فيه؟

- في ماذا بالتحديد؟!

- إنـه شـاب مُهـذب لا تفحصنـا عيناه، ويُجِيـد اختيـار ملابسـه وكلماتـه.

وزفـرت بتحسـر واضعـة يدهـا علـى بطنهـا المرتفـع بعـض الشـيء مـن حملهـا الأول وواصلـت:

- ليتني غير متزوجة.

فانفلتت ضحكة عالية من أحلام سرعان ما قطعتها قائلة:

- لماذا؟!

- ما أضيعه من يدي أبدًا.

فضحكت أكثر:

- خذي مقعدكِ وارجعي إلى مكتبكِ في الحال يا أشرقت.

فحدقتها بعينيها المشدوهتين:

- خائبة!

فلم تنبس. «خائبة!» فكرت أحلام في هذه الكلمة مَليًّا: «فعَنْ أي خَيبةٍ تتحدث؟ أيحق أن نعد أحدهم مجرد فرصة لا أقل أو أكثر؟ نتعامل مع المشاعر من مُنْطلق الفرصة كأننا تحولنا إلى متجر بشري به عروض لا تُقَاوم، بَشرُ فرصة، كيف أسمح لنفسي بأن أتعامل مع أحد على أنه عرض فوق رف في متجر ولا بد أن أختطفه قبل أن تناله يد أخرى غير يدي؟! وماذا بَعْد نجاحي في اقتناء العرض واكتشفت بَعد ذلك أنه لا يناسبني، وإلى أين أذهب بالإهانة إذا لم يَسْتَجِبْ هو إلى اغتنامه كفُرصةٍ، أنا أريد أن أُحِبَّ، لا أريد أن أَفُوز برَجُل الفُرْصة».

انقضى يوم عَملٍ آخر دون مصطفى والمرض هو السبب حسبما أبلغ الإدارة هاتفيًا فحسمت أمرها بَعد تذبذب وتركت له

بعض الكلمات في رسائل صفحته الشخصية فيس بوك التي سبق أن أضاف كل زملائه بالعمل إليها:

- السلام عليكَ، كيف حالكَ الآن؟ لقد عَلمتُ من الزملاء بأنكَ مريض، شفاكَ اللّه وعافاكَ!

وجاءها الرد سريعًا: وعليكِ السلام، شُكرًا لكِ على السؤال أنا بخيرٍ الحمد للّه.

وفي الصباح، جلس إلى مكتبه غير بادٍ عليه أي أثر لمرض عضوي، بادٍ عليه شيء آخر مِمَّا يُعَكِّر صفو العيش ويشتت النفس، ولم يرفع رأسه من بين الأوراق التي أمامه إلا لشاشة الحاسوب المضاءة كأنه يتحاشى الحديث إلا إذا تطلب العمل منه ذلك، وفي مساء ذات اليوم وأثناء إعدادها للعشاء في المطبخ تناهى إلى سمعها صوت إشعارات الرسائل بهاتفها الخلوي فجففت يدها بالمنشفة من أثر تقطيع بعض الخضراوات النيئة وأطفأت الموقد على القدر متوجهة إلى غرفتها وأمسكت بالهاتف من فوق الوسادة، كان المرسل مصطفى:

- مساء الخير، كيف حالكِ؟

فكتبت: الحمد للّه.

واضطرت إلى الجلوس، وبَعد حوار طويل لا طائل منه أرسل إليها:

- هل لي بسؤال وددتُ كثيرًا أن أسأله لكِ؟

- تفضل.

- لِمَ أنتِ قليلة الكلام مع زملائكِ؟ وما سبب ذلك الحزن الذي ألمحه دائمًا في عينيكِ؟

فمطت شفتيها في قلق: «حزن في عينيكِ! إنها من أشهر الأسطوانات التي ينصبون بها الفخاخ لقلوب الإناث لكن مصطفى لا يبدو عليه أنه من هذا النوع، فقط سأحترس فهو في كل الأحوال رَجُل» فأجابته بصياغة رصينة:

- أولًا: هذان سؤالان لا سؤال واحد، ثانيًا: أنا دائمًا أضع حدودًا للتعامل مع الآخرين، أما عن الحزن، فكيف لا أحزن وقد ماتت أمي!

وبصوت خفيض قالت متعجبة:

- لِمَ يُعْطي نفسه الحق في طرح الأسئلة وهو الذي لا يحب أن يسأله أي من الزملاء فيما يخصه؟!

فباغتته بسؤال:

- أنتَ تبدو على غير ما تعودنا أن نراكَ عليه، فماذا بكَ؟

- لا شيء .

- إذا أردت أن تتحدث في أي وقت عن هذا اللا شيء فأنا لكَ مُصْغية.

- إن شاء الله.

انتهت المراسلة بينهما على ذلك وإذا بها تردد: «لماذا قُلتُ له هذا؟ لماذا؟!» أَنَّبَتْ نفسها كثيرًا إلى أن فقدت التركيز وجرحت السكين أصبعها بعدما استأنفت إعدادها للعشاء لكنها حَقًّا لا تعرف لماذا! لقد تعاملت معه بتلقائية وهي الخشبية التي لم تتعامل مع أحد على هذا النحو من قبل، إنه هو مَن أعطى نفسه الحق في مراقبة تصرفاتها غير مكتفٍ بذلك، بل طلب أيضًا تَفسيرًا لها، لم تهتم ولم يَشْغَلْ جزءًا من تفكيرها فهو في نظرها زميل عمل لا أكثر أو هكذا كانت تتوهم.

بعدما أوقعت بها الذكريات وأعادتها إلى بداية لقائهما، فتحت مخزون السعادة، فتحت رسائله القديمة في الهاتف، فبَعد الفراق أو بَعد التغير الفادح، أَلْغامًا هي رسائل الحُبِّ في حال غياب جسارة حذفها، تظل مزروعة في الذاكرة الحية قبل الذاكرة الإلكترونية وبفتح إحداها من قَبيل الحنين توسعنا وجعًا؛ فهكذا كانوا معنا وهكذا أصبحوا في حياتنا بلا هذا المعنى، رسائل لا حصر لها، كل عدة دقائق مولود رسالة جديدة حتى إن كانت رسائل تحمل في طياتها عتابًا، غضبًا، خصامًا، فلم تبعُد عن كونها حُبًّا، ولم تكن هي جسورة

بالقدر الذي يجعلها تحذف رسائله القديمة، لم تدرك بَعد حقيقتها كألغام لا رسائل، وبدأت تقرأ:

«لن أستيقظ صباحًا إلا على اتصالكِ، فلا تنسي، أحبكِ»!

«أريد أن أراكِ غدًا، هذا أَمْر فأنا أشتاق إليكِ»!

«طمئنيني عليكِ برسالة بمجرد وصولكِ إلى البيت».

«عنادكِ هذا سيكلفكِ الكثير، لا، لن أسامحكِ»!

«لن أنام الآن، وكيف أنام وأنا أتحدث إليكِ».

«أريد قُبلة، إنها في رسالة لن تضر».

«كُنتِ فاتنة اليوم ومُستطابة، أعشق اللون الأسود عليكِ، لولا الناس لالْتَهَمْتُكِ»!

«يا ليتكِ تأتي الآن؟ أريد أن أكون بين أحضانكِ ولو لمرة واحدة وبَعدها سأواجه الحياة وأنا على ما يُرَام»!

فَتَشَنَّجَتْ وجَعًا وتوقفت عن القراءة: «كفى، كفى انشطار للروح وعقاب لشرايين القلب، كفى قراءة ما كان، أتذكر شَهْد كلماته وأتناسى كلماته الأشد فَتكًا وتَجاهُله الأشد فَتكًا وتهربه من الوعود وتهربه من اللقاء، أفعاله صارت جمرًا، مُستَعمر يُشِيد في الصدر مستوطنات الغم»!

وتذكرت لا مبالاته:

- لم أسمع صوت الهاتف.
- كنتُ نائمًا.
- شبكة الهاتف سيئة.
- كنتُ مشغولًا.

وإذا أراد أن يُسكتها عن شأن يتعلق بحياتهما المستقبلية معًا يَحضُره الورع ويُدخل لفظ الجلالة في جملة كـ «إن شاء الله»، فلا تعترض هي على كلامٍ ذُكر فيه اسم الله:

«هل تحدثتَ إلى والدكَ عن خطبتنا كما أبلغتني أمس؟»، «قريبًا إن شاء الله»،

فأغلقت الرسائل ونشرت على صفحتها الإلكترونية زخات حزن لها هيئة الكلمات: «مُميت أن تريد أحدهم إلى آخر محطة في العمر وهو يريدكَ شيء مؤقت، شيء ثانوي إن اختفى حياته لا تتأثر، مميت الجفاء بَعد إغداق الحنان وفجور البعْد بَعد القرب حد الملاصقة، مميت أن ينتهي طرف من الآخر والآخر لم يَنْتَهِ بَعد، لم يستطع بَعد، حتى إنه لم يفكر، غير مُؤَهل وكيف له أن يبتره وهو منه؟! مميت كل شيء ـ تقريبًا ـ بَعد الحُب»!

انتصف الليل وسمعت خارج الغرفة وَقْع أقدام أبيها الذي نهض من النوم قاصدًا دورة المياه فقطعت مُجالستها للذكريات وأسرعت بإطفاء المصباح، وتكورت في سريرها متصنعة النوم الذي أصبحت مُحْترفةً في تصنعه، أما مصطفى فهو ينعم بالنوم في الوقت الذي هي فيه تتقلب على جمر خيبات حبها له، فبعدما رآها في نافذة صديقتها ريم وصك بَعدها باب البيت دخل غرفته وحرص على أن لا يُحدث جلبة لأخيه النائم الذي يقاسمه الغرفة وأرتدى ثياب النوم في هدوء ووضع رأسه الخالي من الضجيج على وسادة فراشه الناعمة وألقى عليه الغطاء ونام من فوره كالمغشي عليه، فرؤيته لها الليلة ليست مسألة طارئة وليفكر فيها بضع دقائق قبل النوم، خصوصًا أنه لم يرها منذ مدة طويلة، كان باهرًا في اللا مبالاة، كما كان باهرًا في إحداث الوجع!

●●●

مرضت عهد بَعد عودتها من القرية، وأصبحت طريحة الفراش تهذي بطريقة غير مُطمئنة، مما جعل زيدان يستدعى لها الطبيب الذي أخبره بأنه قد يضطر إلى نقلها إلى المستشفى إذا استمرت هذه الحال؛ ولأن العمل بلا قلب في جوفه، لا يرأف بالظروف الشخصية وتعقيداتها طلب منه زيدان أن يرشح له ممرضة لإعطائها الدواء في مواعيده لاستحالة رعايته لها أثناء وجوده في العمل، فقد كان يشغل منصبًا قياديًّا بشركة للاستثمار العقاري وإدارة المشروعات.

وفي مساء اليوم التالي سألت عنها هاتفيًّا الحاجة صالحة والدة مصطفى؛ فقد كانت أكثر مَن يشعر بإحساس الفقد الذي تعانيه هذه المرأة، فرد عليها زيدان بدلًا منها، مما دعاها إلى الاندهاش، فأخبرها بأن عهد قد أخلدت إلى النوم؛ فقد أُرهقت من السفر إلى القرية، وقد أحجم عن إخبارها بأنها ظلت تصرخ باسم عبد الرحمن إلى أن أسرعت إليها الممرضة بالدواء المهدئ، وفي نهاية المكالمة دعت لها بالشفاء العاجل، وبناء على توصية زيدان لرزق بواب العمارة أحضر له في ساعةٍ مُبكرةٍ من الصباح خادمة ريفية في عمر السادسة عشر، ولم تكن عهد تُحب يومًا أن تُدْخِل شقتها الخادمات؛ فهن من وجهة نظرها متلصصات أو لصَّات، فاعتدلت جالسة على الفراش بتثاقل عندما اقتربت

منها الممرضة في خطواتٍ تفتقر إلى الرشاقة وبين يديها الدواء، وقبل أن تتناوله منها تفحصت بضيق وقلق الخادمة من أعلى رأسها حتى أخمص قدميها، رأتها كعمود إنارة له ضفيرة طويلة مجدولة وعينان خرزيتان مُتَهورتان، وبصوْتٍ دَكَّتْه الآلاَم سألتها عن اسمها، فأجابت بجرأة: اسمي نهلة، فحذرتها بلهجة شديدة من دخول الغرفة التي في آخر الممر كما سبق أن حذرت الممرضة وإلا سيكون الطرد مصيرها، ما فطنت قبل أن تقدم على ذلك إلى أنه عندما تلفت انتباه أحد بأن لا يقترب من شيءٍ بعينه فإنكَ تحفزه بقولكَ هذا «أرجو أن تفعل» فيدفعه الفضول إلى معرفة سر ذلك الشيء الممنوع عنه وفعلتها نهلة بَعد يومين من الانتظار، كانت تتحين الفرصة المناسبة إلى أن جاءتها فعهد نائمة والممرضة ضحى تلك الزوجة الشابة ذات الابتسامة الدائمة جالسة إلى جوارها وزيدان في الخارج، فنظرت في غرفة عبد الرحمن من فرجة الباب دون أن تخطو العتب أو يكشف أمرها أحد متلفعة بظلام الممر، لكنها لم تعرف أين يختبئ السر في هذه الغرفة المُبَعثرة المحتويات فابتعدت هازئة.

كثيرًا ما لاذت عهد بالصمت أمام زيدان أثناء وعكتها الصحية تلك، فكان يتحدث إليها ويتحدث فتسلخه فقط بالنظرات، لم تعاتبه على تقاعسه تجاهها وهي التي لا تجده عندما تحتاج

إليه، رجُلُ الخطوط الهندسية ما عادت تلتقيه في نقطة واحدة، كانت على يقين أن روعة الأشياء تخبو عندما تُطلب، وأن تَسوُّلَ المشاعر من رَحَى قلْبٍ بخيلٍ سَحْقٌ للكرامة، تأخر اليوم في العمل، وهي كزوجة توقفت منذ زمن عن سؤاله «لماذا تأخرتَ؟» وعندما عاد إلى المنزل لم يجدها فصاح بالخادمة والممرضة مُتخليًا عن هدوء أعصابه:

- لماذا لم تخبراني؟!

فانتقدت ضحى انفعاله عليها وأشاحته بيده في وجهها؛ فهي ممرضة دؤوب في عملها وليست بسجانة، وتلجلجت نهلة خوفًا قائلة:

- لقد اتصلنا عدة مرات بسيادتكَ لكن الهاتف كان مغلقًا.

فتذكر أنه كان في اجتماع وأغلق هاتفه. ابتعد عنهما وأجرى اتصالًا:

- أين أنتِ؟

- وما أهمية معرفة مكان وجودي؟!

- أين أنتِ يا عهد؟

- في شقة عابدين.

- ولماذا الآن؟!

فلم ترد، فأدرك أنه ما من فائدةٍ من حديث الهاتف فأنهى الاتصال.

انعقد لسانها عن قول إنها هربت من حصار الخادمة والممرضة حتى إنه خُيِّلَ إليها أنهما سيكبلانها في السرير، هربت لأنه ليس حصار أحضانه وإن كانت تعرف تمام المعرفة أنه إذا كان هو حصارها فلن يُشعرها أبدًا بما ترجو، هربت في تحدٍ واضح له؛ لأنه تركها بين أياديهما كأنها عبء ويريد أن يتخلص منه فهي ليست على رأس أولوياته، فالتقط سلسلة مفاتيحه من فوق المنضدة مُغادرًا، وفي طريقه إليها فكر بصوت مسموع في سبب ذهابها إلى شقتهما القديمة التي أقاما بها في بداية زواجهما بعمارة عابدين إرثه عن أبيه رحمه الله، فقد حاول الاهتمام بها على طريقته، في حدود الممكن والمتاح له، ولم يصل به التفكير إلى أنها التجأت إلى هناك لسابق علمها من أحد جيران العمارة ذاتها بأن ابنها كان يأتي إلى تلك الشقة في بعض الأوقات.

أراح طراز العمارة القديم عيني عهد، حتى النَّفَس الذي أخذته بين جدران الشقة كان مختلفًا، أنعش شراييها المسدودة بملوثات الهموم، أما ذكريات الأيام الأولى لزواجها والنشوة التي كانت فيها وقتذاك فقد أخفقت هذه المشاعر في التسلل إليها من

أي زاوية، جالت في المكان فوجدت في غرفة استقبال الضيوف العديد من السجائر الرخيصة المطفأة والمختلطة بالغبار داخل المنفضة النحاسية المستقرة على الطاولة المستطيلة التي تتوسط المقاعد، لم يكن ابنها مُدخنًا، أكان يدخن في غيابهم أم إنه كان يصطحب أحد أصدقائه إلى هنا وهو المدخن؟! لا تعرف، وعلى الرغم من تعافيها بعض الشيء، فإنها لم تشرع في البدء بحملة تنظيف للشقة المكونة من أربعة غرف وصالة وغرفة تخزين وسندرتين، بالإضافة إلى ثلاث شرفات، ومكثت على ما علق بالأثاث من أتربة فيما عدا تغييرها ملاءة السرير المتسخة. خضع زيدان لرغبتها في عدم العودة حيث كانت مُحاصرة، وبات ليلته إلى جوارها على مضَضٍ لتراكم الأتربة في كل مكان، فما كان ليتركها وحدها، آثر أن لا يعاتبها فحالتها الصحية السيئة جعلته لا يفعل بها ذلك، ونام سريعًا فقد كان مُجهَدًا من العمل، وفي الصباح سيتحدث إليها ويصل إلى ما يرضيها.

●●●

توقفت يديه عن العمل وضم عينيه محاولًا تبَيُّن مَن القادم إلى أن هلل:

- أين كُنتَ؟

وتهيج جهازه التنفسي وسعل عدة مرات، فرد عليه القادم مُبتهجًا:

- عم بيومي.
- كنتُ سأصنع من الحامل واللوحة قَفصًا.

فمال عليه مُقهقهًا: ماذا؟؟

- أنتَ الذي تأخرت عن المجيء.
- حَقًّا؟!
- لا يا مصطفى، عمكَ بيومي يُحبكَ، أنا فقط أُمازحكَ.
- أعرفُ يا عجوز، أعرفُ.
- أين كنتَ إذًا؟
- نصطاد، فالفُرْشاة والألوان لن تملأ بطوننا الجائعة.

أتم جملته وأبعد بعض الأقفاص وعيدان النخيل من فوق الحصيرة المُهلهلة وجلس في مواجهته وفرد بينهما ورقة تحتوي على سمك مشوي خرج توًا من الفرن وعدة أرغفة طازجة وحزمة من نبات الجرجير وحبات من الليمون فعبس وجه العجوز بَعدما

تذكر ما قاله له في آخر لقاء جمعهما «مَن يطعمني؟!» ألهذا جاءه بهذا الطعام؟ فقرأ مصطفى ما دار في خلد عم بيومي وغير ملامحه إلى العبوس هكذا على الرغم من أنها ليست المرة الأولى التي يشاطره فيها الطعام، فأخبره مُداعبًا بأنه يريد معرفة رأيه في السمك الذي يصيدونه، فإن لم يَنَلْ إعجابه فسيعيده إلى البحر مرة أخرى، وقبل أن يَتَفَوَّهَ هذا العجوز العابس بكلمة وضع مصطفى قطعة كبيرة من السمك في فمه الذي رحلت عنه الكثير من الأسنان، فمضغها مُبتسمًا ثم سأله عن اللذين كانا يبحثان عنه في القرية في آخر مرة زاره فيها، فَقَصَّ عليه مصطفى ما حدث وهما يأكلان فالحكايات كثيرة بينه وبين هذا العجوز الذي لم تودعه حياة العزوبة وكان له موقف فلسفي جعله لا يحزن على أنه ما أمكنه أن يأتي بأبناءٍ إلى هذا العالم أوجزه لمصطفى من قبل بأنهم لن يضيفوا إلى العالم شيئًا بقدر ما سيضيف إليهم العالم عذابات، كان مرض الربو بمعاونة الفقر القاضي الذي أصدر عليه الحكم بعدم الزواج فمَنْ مِن النساء تعاشر وباءً مُدْقَعًا بالفقر، فلفظته النساء إلا واحدة «ست النسا» كما يسميها، لكن الموت كان أشد وطأة وأرادها له لا لهذا الوباء، فظل طيفها يسكنه لم يَنْسَهَا لحظة مُنتظرًا تذكرته المدفوعة مقدمًا إلى العالم الآخر حيث اللقاء. أزف وقت الغروب فجلس مصطفى بالقرب من الشاطئ عاقدًا يديه فوق رجليه مسافرًا بخياله إلى القاهرة على أجنحة الطيور المحاولة اللحاق بآخر خيوط الشمس، وبقي مأخوذًا بالذكريات بعيدًا عن النطاق الزمني للكرة الأرضية

إلى أن استرد وعيه على شخير قوي ومتواصل وظلام أوشك أن يشتد فنهض وسمع طقطقة مفاصله من طول الجلسة التي تصلب على وضعيتها، ثم ترجل ببطء نحو عم بيومي فإذا به قد أخذ مذياعه وجمع ما صنعه من أقفاصٍ لهذا اليوم ودخل بهم جُحره الصغير وأغلق عليه الباب من الداخل بالمزلاج ففسر له هذا صوت الشخير، فخلف الفناء المسقوف الذي يصنع فيه أقفاصه غرفة بلا نافذة مشيدة من الطوب الأحمر ينام فيها على مرتبة قديمة موضوعة أرضًا على بساط كان يومًا وليمة مشبعة للعثة، أما أقفاصه فهو يرتبها بعضها فوق بعض بأحد الأركان فتلامس السقف وكراكيب وأغراض شخصية متناثرة هنا وهناك بغير نظام.

سأله مصطفى ذات مرة عن حيازته لهذه الأرض بما عليها من بناية فكان جوابه أنه لا يمتلك من الدنيا ثمن القماش الذي سَيُكفن فيه عندما يحين دوره، وقد شاع في القرية فيما مضى أن الأرض بالبناية لرجل ثري يعيش خارج البلاد سمح له أن يأوي بين جدرانها ويحرسها في الوقت نفسه وانقطعت قدم الرجُل بُعد ذلك عن القرية وغير معروف إن كان حيًّا يُرزق أو أين الورثة.

تركه مصطفى يواصل نومه دون أن يزعجه وتلكأت قدمه في السير تشاغبه الذكريات من جديد، تغريه بمعاودة فتحها فلم يحقق لها مرادها وأسرع إلى البيت.

●●●

ذكريات

القاهرة.. بَعد المحاضرة

تمالك مصطفى عن الغضب وهو يقول لها بعدما خرجا من مبنى كلية التجارة وابتعدا عن الزحام:

- احذفي محاضرات هذا الدكتور من جدولكِ ولا تدخلي مكتبه مستفسرة عن شيء في المنهج.

- والسبب؟

- السبب! طريقة كلامه معكِ اليوم.

وبروح مرحة: أهي الغيرة إذًا؟

فطاش غضبه: دنيا، لا تبدئي الاستفزاز معي!

- وماذا أفعل؟ أرسب في مادته، أهذا ما تريده؟!

- ما أريده ألا تحضري محاضراته مُجَددًا، ولترسبي في جميع المواد، فهمتِ؟!

فانكمشت تحت وابل نظراته الغاضبة لكنها كانت مُستمتعةً بغضبه المصبوب عليها صَبًّا من صوته واقتضاب وجهه، فهي كأي

أنثى حين يغار عليها الرجل الذي تحبه، تتلذذ عن طيب خاطر بالتوابع الموجِعة التي تأتيها من وراء هذه الغيرة.

أدار وجهه عنها ونادى شخص واقف بين مجموعة من الطلبة:

- عبد الرحمن.

وقبل أن يذهب إليه أصدر تعليماته بأن لا تتحرك من مكانها إلى أن يعود إليها، فتبرمت بتركه لها.

توطدت صداقته بعبد الرحمن في منتصف السنة الدراسية الأولى لهما بمدرجات الكلية، وصارت علاقته به كعلاقة الظل والجسد، صداقة لا تنخرها آفة حقد أو هي شَّرَك مغطى بالمحبة فقد كان يرى أن الصداقة أخلاقيات، تجاذب روحي وفكري إلا أنه قد يُدنس شيطان النفس البشرية أي علاقة أساسها محبة ربانية، كانت شخصية عبد الرحمن له ولَنْ يحاول أن يفهمها كصندوق المفاجآت، فقد يخرج من داخل الصندوق شخصيةً جادة تعرف ماذا تريد، وقد يخرج شخصية عابثة هزلية تريد فقط أن تعيش اللحظة وبالصندوق دائمًا المزيد.

سرعان ما تأففت دنيا عندما لمحت أروى تلك الراقية ذات الخطوات الأنثوية المتمايلة بساقها الملتصق عليها البنطال تهندم خصلات متطايرة من شعرها الأشقر الطويل الممشط بطريقة

الكيرلي المهووسة بها مقتربة منها هي ابنة الحي الشعبي، ما كانت بالسطحية التي تجعلها تَغار من أنوثة أروى الطاغية وهي التي تبدو إلى جوارها كالبعوضة على حد قولها بثيابها المتواضعة وقصر قامتها ومسحة جمالها الذي لا يحاكيها، فمرارتها فقط لم تكن تتحملها، قَبَّلَتْهَا أروى بشفتيها المكتنزتين وسألتها عن سبب وقوفها وحدها وعدم انضمامها إليهم مثل مصطفى، فأجابتها بأنه أرادها أن تنتظره مكانها، فتعجبت من عدم مخالفتها له في الرأي بتاتًا وبابتسامةٍ عريضة على وجه دنيا:

- ولِمَ أفعل ذلك؟! أنا أُحبُّ دائمًا أن أفعل ما يريده.

وبمزاح خبيث:

- تقصدين ما يأمركِ به.

فلم تُظهر لها أبخرة فورانها الداخلي وبدت باردة:

- وهل أنتِ لا تفعلين ما يريده عبد الرحمن دون مناقشة؟!

- لا، فهو لا يأمرني فلغة الحوار قائمة بيننا.

وتحاملت عليها أكثر بأن هذه هي السنة الثالثة لها مع مصطفى والأخيرة لهما بالجامعة ولم يتقدم إلى الآن لخطبتها كما فعل عبد الرحمن معها ونظرت إلى دبلته العريضة الألماس

التي تتوهج بأصبع يدها اليمنى وحولت نظرها إلى دنيا التي ردت قائلة بمزيدٍ من ضبط الأعصاب:

- لكلٍّ منهما ظروفه التي تختلف عن الآخر.

- أرجو أن لا تمنعه الظروف يومًا.

هاجرت جميع كرات الدم الحمراء جسد دنيا وتمركزت في وجهها وفقدت قدرتها على الانتظار أكثر مع هذا الكائن النباش الذي هدفه المباشر الأعصاب أو ربما يكون مواجه للحقيقة لكن بشيء من التجريح، فحزمت أمرها ومشت كأنها تبرهن لها أنها ليست عديمة الشخصية وترضى بتبعيتها العمياء له، إنها تطيعه حُبًّا وليس عبودية، ومن شدة توتر حركتها خرجت من أسفل حجابها خصلة شعر تتحسس سخونة جبهتها بشفقة فنهرتها مثلما كان مصطفى ينهرها كلما رآها تختلس بعض الهواء وأعادتها بعصبية.

تمنعه الظروف، «تمنع!» ظلت الكلمة تلاحقها في الطريق، تلك الكلمة التي لم تُعرقل مسيرتها في درب الحُبِّ على مدار سنين، توغلت تمامًا في ساحات تفكيرها، فما الذي يمكن أن يمنع أن تكون مع حبيبها؟ فكلٌّ منهما يريد الآخر، وماذا أكثر من ذلك ليوثق الحُبَّ على ورقة شرعية!

أي ظروف تلك؟ المال، الأهل، أم الموت. أليس حُبه لها بضمان كافٍ على أنه سيتصدى لأي شيء يمكن أن يسعى لفرقتهما؟ أهي على دراية بوجود فارس باسل داخله لهذا لم تكن تفكر في عراقيل المنع هذه؟ أم أن المذاق العذب للحُبِّ أغمض عينيها عن أي شيء آخر فيما عدا التحليق الوقتي به فوق أبعد سحاب! هي لا تعرف حقًّا أيًّا من الظروف قد تمنعها من البقاء مع مَن تُحِبُّ، لم تكشف لها الأيام قبل ذلك إن كان أسفل جلد حبيبها مُحارب أم فأر، هي لا تعرف غير أنها ما عادت تطمئن بَعد اليوم، لم تستغرق طويلًا في التفكير ورن هاتفها، كان هو المتصل، طريقته في الكلام عندما يغضب حفظتها عن ظهر قلب، عن ظهر وجع، سألها عن سبب عدم انتظارها له كما أمرها كما حدد لها موضع قاعدة تمثالها، فتحيرت فإن أفصحت له عما شعرت به لم يفهمها وربما تصير مشكلة وهي لا تود أن تدخل تلك الحلبة معه الآن، لم تستعد لها بَعد فادعت أن تعبًا مفاجئًا اضطرها إلى المغادرة، ولم يكن التعب بالسبب الذي يجعله يغفر لها هذه الفعلة، فأغلق الخط في وجه تلعثم صمتها واحتقان دموعها، ففي مملكة حُبه هي مجردة من حق الاعتراض، فترات اختناقها من دخان أوامره أكثر من اللحظات التي تتنفس فيها حُبًّا، وعلى الرغم من أن هذا مؤلم وما من أنثى عادية تستطيع أن تبتلع غُصته مبتسمة، فإنها كانت دومًا تبتلع خشونته في التعامل بشَربة حُب، فيكفي فقط

أن يقول لها «أحبكِ» أو تتذكر هي من تلقاء نفسها كلمة «أحبكِ» فتختفي المعاناة فور تنهيدة عشق، فقد كانت واقعة تحت تأثير سحر مُبهم يُنثر على القلوب ويجعل أصحابها خاضعين خضوعًا تامًّا لأفعال الأحبة، هذا السحر هو الحُب نفسه أو الخوف من خسارة الحبيب والعيش في شقاءٍ بَعد مفارقة الحب.

استطاعت أروى أن تتلف تفكيرها، أتلفت عليها الشعور بالحُبُّ، أو أنها أزالت القشرة الخارجية عَمَّا كانت تخشى هي الاقتراب من لُبِّهِ، وأصبح مكشُوفًا كُليًّا لها لكي لا تفكر إلا فيه، لا تفكر إلا في ذلك الثنائي الذي يصوب كل مَن أخفق في الحُبِّ خناجر الاتهام إليه عندما ينهون قصة حُب ليشعروا بَعدها براحة نفسية وبإجازة ضمائرية طويلة، ذلك الثنائي الماثل أمامهم خلف القضبان دائمًا «النصيب والقدر»!

إنها لا تعلم ما تخبئه لها المسافات التي بينها وبين عائلته وبينها وبين ضميره وبينها وبين السرداب الذي يوصد على نيته، والأيام في العادة لا تزود شخصًا شغوفًا بما في جعبتها، فتركتها لعناء الشغف.

كان مصطفى أثناء فترة دراسته الجامعية يتنقل بين الشقق المفروشة المشتركة والرخيصة الإيجار، وظل على ذلك الوضع بَعد التخرج، وتحتم عليه آخر كل عام دراسي الالتحاق بأي عمل يوفر من خلاله مصروفاته الشخصية «مندوب مبيعات، أو نادل... »

وأحيانًا كان عبد الرحمن يحذو حذوه على سبيل الخبرة الحياتية لا احتياجًا ماديًّا، لكن سرعان ما يمل تاركًا العمل، ولأن الحياة لا تقف على ساق واحدة تنتظر بشوق كل مَن أتم مراحله التعليمية لتنحني له بأدبٍ جَمٍّ فاتحة له بوابة المستقبل في الوقت الذي تضع فيه مفتاح البوابة بين أيدي آخرين، ولأن جيب بنطال مصطفى الفارغ لن ينتظر طويلًا في صقيعه إلى أن يعثر على وظيفة مناسبة كانتظار جيب صديقه عبد الرحمن المستدفئ برزم الأوراق المالية فعمل بَعد تخرجه بمهنة يعرفها، نادل بمقهى أفتر إيت ـAfter eight الذي يقع على بُعْد خطوات من ميدان طلعت حرب في ممر ضيق.

ووسط تكاثر شبورة دخان الشيشة طاف مصطفى على الطاولات الممتدة في نظامٍ على جانبي الممر المكتظ بالزبائن لكي يتلقى طلباتهم من المشروبات «الشاي الكشري، أو القهوة التركي المحوجة، أو شيشة التفاح، أو أي مشروب غازي... »، وبدأ بطاولة مجموعة من الشابات، بفحوى حديثهن وضحكاتهن صموا آذان الجميع، بين شفتي إحداهن لفافة تبغ مشتعلة ويبدو عليها الاستمتاع بتذوق النيكوتين كاستمتاع رجل له تاريخ في التدخين، وعلى مقربة منها رجُل سارح في وجهها حَسن القسمات على نحو لافت للأنظار مُتمنيًا على ما يبدو أن يكون بين هذه الشفاه

المتلئة بديـلًا عـن تلـك اللفافـة، فَفَـوَّتَ عليـه بعضًـا ممـا علـى طاولتـه هـو وصديقـاه مـن أطبـاق لأطعمـة متنوعـة مـن محـل فـول «سـعد الحرامـي» الموجـود بنفـس الممـر «فـول مدمـس بالزيـت الحـار، وبطاطـس مقليـة، وسـلطة خضـراوات، وباذنجـان مخلـل، وأرغفـة خبـز سـاخن»، وإلـى اليسـار منهـم زبـون جالـس بمفـرده مُثبتًـا نظـره علـى فنجـان قهوتـه الـذي أمامـه في حالـة تلبـس واضحـة بالحـزن، وفي جانـب بعيـد عـن كل هـذا طاولـة لحبيبـين اختـارا ذلـك الجانـب لشـيء مـن الخصوصيـة لحديثهمـا الحميمـي، كان مصطفـى لطيفًـا ومُسـالمًا ظاهريًّـا، لكنـه لا يطيـق الزبـون المتغطـرس كالواقـف تجاهـه الآن إلا أن لقمـة العيـش تُسـكتُه ممـا يزيـد مـن تراكمـات قهـره الداخلـي مـن الأوضـاع المعيشـة والـذي يُنفـس عنـه بسـبابٍ في السـر.

كان ممـن يـرون أنـه كلمـا ضاقـت الحيـاة علـى الكادحـين اتسـعت علـى أُنـاسٍ آخريـن، علـى أولئـك الذيـن يسـكنون الطابـق العلـوي مـن الحيـاة المتخذيـن مـن عظـام الفقـراء مِصعـدًا لأعلـى، ومـن حرمانهـم المالـح مـن متطلبـات الحيـاة الأساسـية طبـق مـن المقبـلات، وأنـه قـد انتهـى زمـن التسـاؤل مـن أيـن لـكَ هـذا؟ فالجميـع يعلـم ويصمـت علـى غليـان أو علـى سـفوح مـن الثلـج والتسـاؤل أصبـح لِمَ تفعـل هـذا؟ أيـن الإنسـانية في هـذا؟ تعيـش في رفاهيـة وغيـرك يعيـش في القـاع يتعـارك مـع تـل مـن النمـل علـى فتـات، وانتشـرت كالطاعـون فكـرة التخلـص

من الآخر والعيش على دماء الآخر بين أبناء القاع الواحد، حتى النفْس ما عادت تعز على الموت ولولا وجود النفوس الطيبة على هذه الرقعة من الأرض لكان الوضع أسوأ، وإن كان في اعتقاده ليس هناك أسوأ من ذلك! أسوأ من أن بعض الناس يعيشون، وبعضهم الآخر يتابع فقط كيف هم يعيشون كأنهم يتابعون عرضًا سينمائيًّا مُثيرًا، ليس مُثيرًا جِنسيًّا بل مثير لإحساس الدونية.

وبحديقة الأزهر في صباح يوم إجازة من المقهى تقابل أبناء القاع الواحد مصطفى ودنيا وأثناء سيرهما على الممشى مُتأبطًا ذراعها بين الأعمدة الرخامية وأشجار النخيل الباسقة انتقد بشدة ثوبها الضيق قليلًا من عند الصدر، عدة خطوات أخرى وأخبرها بأن عبد الرحمن وأروى متحمسان للخروج للتظاهر يوم ٢٥ يناير ويدعوهما أيضًا إلى المشاركة فدُهشت من ذلك قائلة:

- وما هي المعاناة التي يُعانيها صديقُكَ وخطيبته لكي يخرجا للتظاهر؟!

- من أجل الحريات وفقراء هذا البلد والكرامة المُلقاة في بالوعة صرف على أننا حُثالة!

- بعيدًا عن الشعارات، أعتقد أن صديقكَ يجهل حتى مفهوم الحرية، يبدو لي أنها فكرة أنثاه تريد أن تجرب شيئًا مختلفًا، شيئًا جديدًا.

وجذبت ذراعها من تحت إبطه متوقفة عن السير مقتضبة الوجه:

- وأَنْتَ، منذ متى تهتم بالسياسية؟

- منذ أن أصبحتُ آخر مَن تهتم به السُّلطات.

فمالت على أحد مقاعد الحديقة ومرت بيدها عليه فوجدته رطبًا من سقاية العشب الذي حوله لكنها جلست وكذلك مصطفى. شككت في أن مظاهرة كهذه ستثمر عن أي تغير في الأوضاع، في حين عدها هو أفضل من لا شيء، أفضل من مساخة ركود ماء البركة ومساخة مَن لا يريد أن يرميها بحجر، كان مصطفى يطلعها فقط على تلك الدعوة فلن يكن ليسمح لها بالسير بين حشد قد يكون كبيرًا وإن كانت برفقته متفاديًا بذلك أي احتكاك يخدشها ويغضبه وينتهي بمشاجرة.

ثلاثة أيام وأرسل إليها أنه سيقضي ليلته مُعتصمًا في ميدان التحرير بَعد انتهاء ورديته في المقهى، فما من أخطار تحيط بالمعتصمين، فلم تطمئن وما استطاعت أن تُثْنِيَهَ عما اعتزمه، فما كانت بالعامل المؤثر فيه يومًا، ليس بسبب ضعف حُجَّتها وأسلوبها في الإقناع أو لضعف شخصيتها أمامه، ولكن لأنه يغلق قنوات الاستقبال لديه لا يستقبل إلا ما تُمليه عليه إشاراته الدماغية لا غير، فأخذت تجوب غرفتها ذهابًا وإيابًا من شدة الغضب مُرددة:

- كل هذا وراءه أفعى عبد الرحمن، أنا أعرفُ ذلك، كل هذا وراءه أروى.

توالت الأحداث وانقلبت الأمور رأسًا على عَقِب في الميدان، ولم تتمكن من التواصل معه فهرب تعقُلها بعيدًا، لا تعرف على مَن سترتدي الحزن ثوبًا أبديًّا على حبيب أم على وطن، وفي خضم ذلك استشعر مصطفى أن الأمور تسير في اتجاه مجهول؛ فالأمور المُلْتَبِسة تزعزعه ومع ذلك لم يعُد نفسه لمرة جبانًا، فتحدث إلى عبد الرحمن أثناء حدة الاشتباكات ليغادر معه الميدان من أجل خطيبته فرفض وأروى كذلك، لم يتوقع مصطفى من صديقه الرفض وبهذا الإصرار وهو الذي يخشى على نفسه من جُرَح شفرة حلاقة حادة وعلى أروى من قطرات المطر، فغادر دونهما.

وفي وقت قصير وقبل وصوله إلى مسكنه في حي الغورية القديم قاطعًا نصف المسافة سيرًا أصبحت شوارع وميادين القاهرة وسائر المحافظات بين فكي كماشة البلطجة، وهروب المساجين، وأعمال سلب ونهب، وقتل، وإضرام النيران، وفرض قطاع الطرق المدججين بالأسلحة الإتاوات على المارة للسماح لهم بالمرور، واعترضوا طريقه فدفع إليهم كل ما في حافظة نقوده وساعة يده وترفعوا عن سلبه هاتفه الخُردة، حرروا له إيصالًا آخر من الذل فسأل نفسه: «من أين جاء كل هؤلاء السفلة الأوغاد؟! كيف

عاشوا بيننا قبل ذلك اليوم! كيف استطاعت الحملان أن تخبئ طويلًا بداخلها وببراعة جينات الذئاب؟!» وبَعدما ابتعد عنهم مزعهم جميعًا بنصل الشتائم في سره.

هاتف دنيا بَعد عودة خدمة شبكة الاتصالات. كانت حالتها مُزْرية فبكت قائلة بصوت ضعيف:

- مجنون!

- هذا العالم لا يصح أن يعيش فيه عَاقل واحد!

ازدردت ريقها، فَهَدَّأَ من توترها وفتح ماء الحُبِّ البارد فوق كلماتها المُتَّقدة وعلى عُجالة أخبرها بما عَلِمَهُ منذ قليل:

- لقد ماتت!

- كيف حدث هذا؟ ولماذا؟!

- إنه قانون اللعبة!

فانهمر ألمها والدموع أكثر، ماتت أنثى عبد الرحمن، ماتت أروى، جاءتها ضربة قوية من مقذوف حجر في رأسها أثناء الفوضى التي اجتاحت الميدان وظلت تنزف إلى أن فارقت الحياة.

- أماتت حقًّا!

قالتها دنيا بحزن وألم شديدين، فلم تكن تكرهها، لكنها شعرت بالذنب فقد تلقفتها الغيرة بَعد ارتباطها الرسمي بحبيبها عبد الرحمن في الوقت الذي صعُب على حبيبها هي أن يطوق أصبعها بدبلةٍ من الورق المقَوَّى، فبكت بسخاء طالبة من اللّه أن يعفو عنها، فقد كان ذلك شعورًا خارجًا عن الإرادة، وتمنت لو تعانقها وتطلب منها الصفح ثم لامت نفسها: «من العجيب أن نطلب من الموتى أمورًا مستحيلة! كأن نطلب منهم العودة، الصفح، أشياء لو كانوا على قيد الحياة ما طلبناها منهم أو حتى شعرنا بهم»!

تلقت أروى الضربة بَعيدًا عن عبد الرحمن، أخبروه في المستشفى الميداني بما حدث وهم يحاولون إسعافها واحتضرت بين أحضانه فأوصد بَعدها باب غرفته عليه وعليها وعلى ما علق من دمائها بأليافِ قميصه خاصة فوق القلب حيث كان موضع رأسها وهي تحتضر، انطبعت صورة النهاية في مخيلته، كما علق به أريج ذكريات أيام حبهما وصارت الغرفة كَوْنه المصَغَّر وصارت اللحد، يتأمل جثة أروى والضمادة المدَمَّمَة المُلْتَفَّة على جرحها، وبين ذراعيه يهدهدها يمسح عن وجهها الدماء السائلة من شج جبهتها ويمسح عن شفتيها أثر ألم مُنازعة قبضة الموت، يُقبل جرحها، يدغدغه نسيم ضحكاتها فتبتسم الدموع بعينيه، يتكلم معها ساعات، والغريب أنه كان يأتيه منها دائمًا الرد، هذا ما نقلته عهد إلى مصطفى عن أحوال ابنها.

●●●

دخلت أحلام مقر عملها بعمودين ثقيلين من المسَلَّح لا ساقين. الوجوه كئيبة وقد تكون هي مَن تراها كذلك، الحوائط والمقاعد وكل شيء يبْرُز له أشواك كنبتة صبار، وعقارب ساعة مُصابةٍ بالشلل التام، وزميل لها جالس وراء مكتبه ما عادت تتعامل معه على المستوى الشخصي بَعد أن أفضى إلى زميلة لهما بأن تخبرها برغبته في خطبتها، صار العمل لها أداة تعذيب بَعدما تركه مصطفى والتحق بمكتب محاسبة آخر، ثم استقر في مهنة الصيد على مركب والده، على الرغم من أنه كان يرى نفسه دائمًا أنه لم يُخلق لهذه المهمة؛ ربما لأن الصيد مهنة الصبر الذي لا يملك منه شيئًا.

فقدت أحلام الكثير من الوزن وأصبحت شاحبة أقرب إلى المحنطات من الأحياء، لم يلحظ مصطفى هيئة الموتى التي أصبحت عليها عندما تعثرت به مُصادفة قُرب مرسى المعدية برشيد بَعد خروجها من العمل وصاحت كمَنْ وجد كنزًا:

- مصطفى!

وهو كمَنْ وجد كمًّا مُهْملًا سائلًا عن أحوالها وأخبار العمل، تحدث إليها كأنها رجُل يعرفه وقابله في الطريق بلا موعد، سألته عن وجهته فلم يعطها ردًّا قاطعًا فأصابتها نكبة كلماته بقشعريرة وواصل طريقه، لم تشعر بأعين الغُرباء الثاقبة لضعفها وللدموع

المنتحرة من بين أهدابها، ستصبح على ما يرام إذا توقف إحساسها المضاعف بكل شيء، وستصبح في حالة ممتازة إذا توقفت من الأساس عن الإحساس، ستصبح بخير إذا تخلت عن فكرة تقديس ما تُحب وإذا خَفَّضَتْ من سقف توقعاتها للبشر حتى تسوي به الأرض، وإذا آمنت بأنه ما من أحدٍ مستثنى من غريزة اللدغ، حينها فقط ستصبح الدنيا تُحتمل والصدمات أقل أثرٍ وستتقابل مع الوجوه الحقيقية للأبالسة، تباطأت خطواتها ونما اختلالها الداخلي، أهذا الفاتر مَنْ تُحبه حقًّا! مَنْ كان يُخبرها بتفاصيل حياته كافة حتى إن هَمَّ بالاستحمام في الوقت الذي هي فيه مُطَالبة أمامه ببث مباشر لكل دقيقة تمر بيومها، مُتخذًا لنفسه عمل الملكين رقيب وعتيد في حياتها.

قفزت هي والدموع في الهواء فزعًا من صوت إنذار سيارة متتالٍ وسائق أخرج نصف جسده العلوي الممتلئ من نافذتها فبدا محشورًا فيها، وبأسلوب همجي وَبَّخَهَا لعدم انتباهها للطريق فمن ثانية واحدة فقط كانت مشروع جثة أسفل عجلات سيارته لولا وقوفه المفاجئ الذي أدى إلى اصطدام دراجة نارية به من الخلف، انحاز المارة إلى مشاهدة ما يحدث في صمت كمصوري الحيوانات في حياة البرية يشاهدون دبًّا ضخمًا يهجم على سنجابة ضعيفة، تأثرهم لا يتعدى المساحة الواقعة خلف معدات التصوير، تأثر لا

يُنْهِي مهزلة وحشية كتلك، فالأهم هو تسجيلهم لطريقة الهجوم ولحظة الافتراس إلى أن أصبح الإنسان شيئًا فشيئًا يحاكي الطبيعة الحيوانية. وفي الاتجاه الآخر من الطريق قصد مصطفى محلاً لبيع الهواتف المحمولة واشترى له واحدًا بالتقسيط، وأول مكالمة أجراها من هاتفه الجديد كانت من نصيب عهد ليطمئن عليها؛ فاستقبلت المكالمة أثناء نزولها الدرج متوجهة إلى طبيبها المعالج ومن ورائها الخادمة المتَلصصة نهلة التي نظفت في الصباح الباكر الشقة بتكليف من زيدان، وقبل أن تَبلغ عهد آخر درجة في سلم الطابق الأرضي فُتح باب شقة بذات الطابق مُحْدِثًا صريرًا مُزعجًا، وخرجت منه سيدة كبيرة السن، لون بشرتها يشير إلى عرقها النوبي، ورأسها المعصوب يطل منه بعض من شعرها المخضب بحُمْرة الحناء، مرتدية عباءة بيضاء ورائحة مسحوق الغسيل الذي غُسلت به ملابسها عبقت الأرجاء، ألقت بكيس نفايات في صندوق بجانب الباب من الخارج ورفعت رأسها مدققة النظر بعهد قاطعة عليها كلامها في الهاتف:

- عهد زوجة المهندس زيدان نشأت؟!

وببشاشة: أجل، كيف حالكِ يا أم يونس؟

فارتسمت علامة تعجب كبيرة على وجهها المجعد:

- أما زلتِ تذكريني، لقد مرت سنوات طويلة!

- أجل، ما زلت أذكركِ كما تذكريني!

استحلفتها أم يونس أن تدخل لتضيَّفَها ولتتبادلا أطراف الحديث فاعتذرت إليها موضحة أن زيدان ينتظرها في السيارة ووعدتها بأن تمر عليها في وقتٍ آخر.

وفي مساء اليوم التالي، جلست عهد على كرسي وثير من الخيزران في الشرفة، وإذا بشيء ما يحثها على القيام بالزيارة التي وعدت بها البارحة على الرغم من أنها ليست من اللاتي يفضلن مجالس شورى النساء والكلام فيما لا يفيد لمجرد تمضية الوقت، فأبدلت ثيابها ونزلت على السلم وقرعت جرس باب شقة أم يونس عدة مرات فلم يُفتح الباب فرمت أُذُنَهَا عليه فوجدت السكون سيد المكان، أعادت محاولتها مرة أخرى بَعد نصف ساعة تقريبًا، وشعرت بالخوف من نفس السكون، فرفعت قدمها على درجة السلم صاعدة إلى شقتها بالطابق الثاني فهتف صوت في طبلة أذنها: عهد، فانتصب شعر رأسها هلعًا، حركة كتلك كفيلة بأن تقتلها بسكتة قلبية، أدارت وجهها فوجدت أم يونس في ردائها الأبيض المعقم صاحبة هذا الصوت الغليظ الذي غيرته الإصابة بنوبة برد، فأخبرتها بأنها ستجيئها لاحقًا فتشبثت أم يونس

بساعدها وأدخلتها شقتها بَعدما جعلتها دونما حرج تترك حذاءها في الخارج أولًا ثم قَدَّمَتْ رجلها اليمنى عن الأخرى متمتمة:

- السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

وأجلستها على كنبة بلدي تحجر حشوها من القطن فباتت قاسيةً على مَن يجلس فوقها، واختفت بضع دقائق بأكياس البقالة التي استغرقت وقتًا في شرائها بَعد أدائها صلاة العشاء في المسجد، تأملت عهد ما عليه الشقة التي لم تَلِجْهَا من قبل، حوائط كالحة اللون لم تَحْظَ بالدهان منذ سنوات طويلة، آيات قرآنية بأطُر مزخرفة، والعديد من السبَح والمنتجات التي تُباع مثيلاتها في بعض حوانيت شارع خان الخليلي، أما السجاجيد والستائر وبقية المفروشات فقد بهت لونهم من كثرة مرات الغسل ورائحة بخور المسك تلتصق بكل شيء تقريبًا حتى إنها التصقت بأنفها فانتابها عطاس متكرر، وخلال رحلة تأملها عادت إليها أم يونس تحمل بين يديها صينية فوقها كوب من التمر الهندي المثَلَّج الذي تعده بنفسها وناولته لها بمزيد من الترحيب واختفت مرة أخرى في المطبخ، تَرجرج السائل داخل الكوب بين يدها نتيجة رعشة اجتاحت جسدها من احتكاك بطيء لجسم صلب ذي حراشيف بساقها اليمنى، فرفعت حاجبيها عجبًا عندما تجلى لها متبخترًا أمامها هذا المحتك فخرجت أم يونس من المطبخ تحمل هذه المرة صينية أكبر حجمًا يعلوها مصنع مُصغر لإعداد القهوة

ـ سبرتاية وكنكة كلاهما من النحاس الأصفر، وفنجانين من الخزف الصيني مرسوم عليهما رسمة روميو وجوليت الشهيرة، وسكرية وعلبة بن وملعقة ـ ونظرت إلى مصدر دهشة عهد ضاحكة:

- إنها حسنية سلحفاتي العجوز، لا تخافي فهي لا تَعض، إنها ليست من فصيلة البشر!

واستوت جالسة على مقعد أرابيسك، وأرست قواعد مصنعها الصغير على منضدة مستديرة توجد في المسافة القصيرة التي بينها وبين عهد، وعادت حسنية إلى مخبئها بَعد أن أخذت جولة قصيرة وهي تلوك بين فكيها ورقة من خس، فكثيرًا ما تهرب من بيتها ذلك الصندوق أسفل الكنبة فقد كان غير مسموح لها أن تجول في الشقة النظيفة.

تنهدت أم يونس وسردت ما لديها من ذكريات لعهد وكيف عاشت وحيدة بَعد أن طلقها زوجها المعلم رياض الطرابيشي منذ أحد عشر عامًا ثم مات بَعدها بعامين، وكم رجت الله أن لا يجمعها به في الفردوس، أما يونس وأخته فقد تزوجا وأصبحت جدة يشعرون بوجودها في بداية كل شهر مع ميعاد صرفها المعاش، فأصبحت بيوت الله ملجأ لها تقضي بين أروقتها معظم الوقت ما بين عبادة وحلقات دروس وتلمس البركات من أهل البيت. بدأت

في إعداد القهوة على نار السبرتاية الهادئة بَعد أن شربت الضيفة التمر الهندي، ثم ناولتها فنجان القهوة الساخن مستخبرة عن أحوال نيرة، وباحت لها بأنها مستاءة كثيرًا من عبد الرحمن؛ لأنه أثناء وقوفها وسط بعض النساء أمام مسجد السيدة نفيسة بَعد أدائهن صلاة العشاء فيه نادته مرارًا فلم يُجِبْهَا، وقد كان منها بمرآي العين، فانزلق فنجان القهوة من يد عهد دون أن ترتشف منه رشفة واحدة وانتفضت من مكانها واضعة يدها خائرة القوى على كتف أم يونس:

- عبد الرحمن! هل رأيتِ عبد الرحمن؟

- نعم، يوم الخميس الماضي.

ففتحت معها تحقيقًا مُوسَّعًا، بدت كرجل نيابة مُحنَّك:

- هل تتذكرين ملامحه؟ فقد يكون مَن رَأَيتِهِ شخصًا يشبهه.

فأخبرتها بأنها سليمة النظر، وأنها رأته عدة مرات في الماضي القريب وألقى عليها التحية عندما تلاقيا في مدخل العمارة ذات مرة، فهي لم تَنْسَ ملامحه وهو شاب ولا وهو ذلك الطفل الصغير الذي كان يلعب مع أقرانه من أبناء الجيران في الردهة التي أمام شقتها محدثين ضوضاء وخسائر أكثريتها إطاحة مصباح الباب بركلة كرة.

فاسترسلت في استجوابها:

- ماذا كان يرتدي؟

صمتت قليلًا تغربل ذاكرتها بحثًا عن الإجابة حتى وجدتها:

- قميصًا زهري اللون وبنطالاً أسود.

فتمتمت: كان اللون الزهري من الألوان المفضلة لديه.

وأسرعت نحو باب الشقة، وفي نفس الوقت راق لحسنية الخروج مجددًا من أسفل الكنبة، فنجت بأعجوبة من أقدام عهد وكسر صدفتها، أو خوض تجربة الطيران لأول مرة، ونجت عهد من قصمة ظهر لو لم تتفاد تلك السلحفاة، فصاحت أم يونس:

- ما الأمر؟ ما الخطأ فيم قلته لكِ؟!

فانتعلت وذهبت دون أن تجيبها أو تغلق خلفها الباب.

حَدَّقَتْ أم يونس بفم نصف مفتوح وحسرة إلى الفوضى التي خلفتها الضيفة من تهشم فنجانها العزيز تاركًا على السجادة بقعة صعبة الإزالة، ثم عادت عهد إليها ومدت هاتفها المحمول أمام وجهها وهي تحاول التقاط أجزاء الفنجان:

- انظري جيدًا، هل هذا مَن رَأَيْتِهِ؟

تطلعت في الشاشة المُضيئة وأومأت برأسها بالإيجاب وقد أعياها التفكير فلم تكن تعلم باختفاء عبد الرحمن ولم يكن عند عهد القدرة على الجلوس والشرح لها، وهي التي تمزعت ما بين أن تفرح مُحتضنة إياها وترقص إلى أن يرتطم جسدها المتْعب بالأرضية فاقدة الوعي أم تبكي بحرقةٍ، لكنها لم تفعل أيًّا من ذلك وتركتها غارقة في مَسْبَح الحيرة وبقعة القهوة، ثم توقفت عند الباب والتفتت إليها مُلتاعة القلب:

- هل كان يبدو عليه أنه بخيرٍ يا أم يونس؟

- كان في أحسن حال.

فنظرت إلى ساعة هاتفها التي كانت تشير إلى الحادية عشرة والدقيقة الثلاثين مساءً، ووقفت قليلًا تفكر ثم صعدت الدرج فالوقت متأخر لن تستطيع الخروج للبحث عنه حيث رأته أم يونس التي بَعد زيارتها لها وقعت في مأزق الظنون بأن ضيفتها ممسوسة من الجان وتستلزم حالتها علاجًا فوريًّا على يد الشيخ لطفي ليقرأ عليها الرقية الشرعية، واَجَّلَتْ التنظيف فيما بَعد تبخيرها للشقة كلها لطرد الشرور التي حلت بها. وكمَن سقط بمنطاد سقطت عهد فوق رأس زوجها الذي استغل يوم العُطلة في النوم المتَقطع ودفعته بكلتا يديها، ففتح عينيه ببطء لشدة الإنارة التي غمرت الغرفة بفعلها ووجدها على حال غير مُبشر، تمطى

في كسل وروت له ما حدث بسرعة رهيبة حتى انسحقت الكثير من الأحرف في سباق السرعة هذا، فأشار إليها بأن تقلل من تلك السرعة لكي يفهم وعندما فهم ثار مغادرًا الفراش:

- أم يونس! إنها سيدة مجذوبة لا يُؤخذ على كلامها، مُخرفة!

- بل إنها متزنة، صالحة، منحها الله الشفافية.

فسألها عن السبب الذي يجعل عبد الرحمن يذهب إلى هذه الناحية، وما الذي منعه من المجيء إليهما، إلى بيته! فذكَرتهُ بالفترة التي تلت مقتل أروى حين ظل عبد الرحمن ثلاثة أشهر حبيس حجرته إلى أن تمكنت هي من إخراجه من تلك العُزلة إلى الحياة تدريجيًّا وانتظم في أداء الصلاة بالجامع وصار مجلسه فيه أكثر من مجلسه في المنزل، فأكمل لها زيدان ما حدث بَعد ذلك من سهره لوقت متأخر من الليل على المقاهي والنوادي الليلية، وكيف انتهت به إحدى السهرات في كايرو جاز كلوب ـ Cairo Jazz Club بمشاجرة فدخل على أثرها قسم شرطة العجوزة لنجدته، وفجأة عاد إلى بئر كآبته مرة أخرى، وبَعد محاولاتٍ من زيدان وافق على الخروج للعمل بشركة هندسية للحاسبات توسط له لدى رئيس مجلس إدارتها الذي له علاقة حسنة به، وبَعد انقضاء شهرين له بالشركة تركها ورجع إلى شرنقته مجددًا.

امتعض على ذكر هذه المعاناة، إلا أنها كانت معاناة مقدور عليها وابنه تحت مظلته يُبَكِّتُهُ إن أخطأ، يداويه إن جُرح، فاختفاؤه بهذه الطريقة هي المعاناة الحقيقية التي تفوق أي مقدور، لم تُعِرْ عهد أي أهمية لكلام هذا الفيلسوف اليوناني تلميذ أرسطو الجالس قُبالتها يُحاورها بالاستدلال المنطقي مُبددًا لشعاع الأمل الرفيع الذي أحاطته بكفيها، وقد يكون الأول والأخير الذي يسطع أمامها وسط الظُلْمة بأن ابنها ما يزال فوق سطح هذا الكوكب يتنفس، وشخص بصرها إلى الثريا المُعلقة بسقف الغرفة المرتفع وساد الصمت إلى أن ثقلت جفون تلميذ أرسطو. بينما ظلت هي مدهوشة من قاهرها بالمنطق الذي لم يتمسك بالأمل مثلما فعلت، مثلما اعتقدت أن الحياة تحتاج إلى كبسولات الأمل في الشدائد حتى إن أدى هذا الأمل في نهاية الأمر إلى لا شيء والحالة المستثناة من اللجوء إلى الأمل هي إحياء محبة زائفة.

●●●

ضرب إعصار رسائل أحلام هاتف مصطفى الجديد في الثانية التي أعاد فيها الاشتراك في خدمة الإنترنت، فاق تخيله هذا الكم من الرسائل، هذا الكم من الصرخات وأسئلة لا تُحصى، فقرأ رسائلها ببسمات ظافر في حرب طاحنة، وطال به التفكير أيرد عليها أم لا؟ فَرَدَّ بَعد يومين بمزيد من الحجج الواهية والكلمات الخالية من دسم الحُبِّ واتفقا على مقابلة.

وفي صباح اليوم التالي وبعيدًا عن القرية سارت إلى جانبه وسار هو في أقصى العالم دونها. فترة من الصمت. فاصل زمني ومكاني وشعوري بينهما بَعد سلام اليدين إحداهما يد مشتاقة والأخرى جيرانيتية غير مبالية. توردت أنوثتها سعادة عندما حدد معها موعدًا، تمنت أن يعود إلى سابق أيامه معها، إلى سابق إدمانه بها حد شَفَا الجنون، ففتحت خزانة الملابس ووقعت عيناها الحائرة أول ما وقعتا على الرداء الذي ظلت لا ترتدي سواه طوال أشهر بُعْدهمَا على الرغم من تُخَمَة الأرفف بالملابس، حتى تحول ذلك الرداء إلى خرقة بالية يفوح منها الحزن وتتناثر الدموع فأطاحت به في بغض إلى آخر الغرفة، واختارت من بين الملابس الأجمل والأوسع فقد كان دائمًا يكهرب الأجواء حولها إن حدث وارتدت عن غير قصد ما يظهر مفاتنها أو استعملت مستحضرات التجميل على وجهها بقدر زائد من وجهه نظره.

أثناء سيرهما في ذلك الصمت أنصتت لصوتها الداخلي القائل: «هل من حُب معتدل وحب آخر مجنون؟ وهل الحُبُّ المعتدل له الدوام أكثر؟ والإسراف في الحب قد يأتي وراءه ملل، والمجنون به سيبرأ والمدمن عليه سيبرأ؟ يجب الاعتراف بأن هناك مَن لا يُجيد أبدًا الحُبَّ في حين أنه قد يُجيد أي شيء آخر في الحياة كأن يُجيد رقص التانجو أو الغناء الأوبرالي أو حتى السير على الحبل أعلى قاعة سيرك. قد يُجيد أشياء كثيرة إلا الحب، فالحب لهيب جنون، شراهة إدمان، الحب أنا وأنتَ ما بَعد الطوفان وليس بَعده وحدكَ أنتَ، ليس بَعده وحدك أنتَ يا مصطفى».

نظرت إليه خلسة بطرف عينها الغائرة من قلة النوم وكثرة البكاء في ليالي البعاد، وبحركة طفولية أخرجت دون أن يُبصرها خصلة شعر من أسفل حجابها لكي ينهال على رأسها بمطرقة غضبه كما كان يفعل، لكنه لم يفعل هذه المرة. للمرة الـ ...! توقفت عن عد مرات تساؤلها: «مَن هذا؟»، لن تفكر في الإجابة عن هذا السؤال الآن، فهي معه الآن وقد تجهزت لاغتراف أكبر قدر من السعادة، وببرمجة غير قابلة للتحديث سألها عن أحوالها.

فخاطبها صوتها الداخلي ثانيًا: «يسألني عن حالي وهو به أعلَم! من أين له بكل هذه البلادة الشعورية؟!»، ران الصمت

بينهما مرة أخرى إلا من حفيف الأشجار وصوت كعب حذائها على الأسفلت ثم نطق:

- أريد أن أُخبركِ شيئًا، فأنتِ عندي أغلى من أن أخبركِ إياه في رسالة أو اتصال هاتفي.

فَحَدَجَتْهُ بقلق وواصل:

- دعينا نَبْقَ هكذا أفضل، على البر.

- أوضح أكثر.

- فلندع العلاقة التي بيننا..

فوقفت حياله واحتدت عليه مُقَاطعة:

- علاقة! أتختصر كل ما بيننا في كلمة علاقة؟!

فهمت ما يعنيه بكلامه فما من أنثى يستعصي عليها فهم رجل غروره فقط مَن يُلَقِّن ذهنه ذلك، كل ما قاله بَعد ذلك طنين نحل في الأُذن فتركته وهمت بالرحيل، فاستوقفها ليوصلها إلى أقرب مكان للبيت، فصرخت في وجهه كما لم تصرخ في حياتها من قبل واستأنفت السير بِخطوات سريعة قاذفة في صندوق القمامة بالطعام الذي أعدته ليتناولاه معًا وناولها هو عوضًا عنه طعنة نافذة في القلب!

كان مصطفى أثناء المقابلة هادئًا، ومُتأنقًا، ومتألقًا يضع العطر الذي أهدته إليه يوم عيد مولده، مَرِحٌ مع برود لا مُتَنَاهٍ لا يُفَارقه؛ حتى إنه يُحْتَسَبُ عضوًا من أعضاء جسده، تحدث إليها بِبَسَاطَةِ مَنْ يُلْقِي عبر شاشة التلفاز بيانًا عن حالة المناخ لا عن جرحٍ للمشاعر وهدمِ أول لَبِنات حياة، فبَعد كل هذا الحب وكل هذه المدة والترتيب للخطبة يقول ذلك! وبَعدما أصبح يومه كله لها ويومها كله له كان ينقصهما فقط سرير يجمع جسديهما لحظة النوم، حتى الحلم ضيفهما معًا كل ليلة على مأدبته، لقد عرفت الآن الإجابة عن سؤالها المتكرر «مَن هذا؟»، هذا هَارِبٌ من عنبر الحالات النفسية الخطرة.

لم تلمح في عين هذا الْمجَسَّم البشري أي شفقة عند إلقائه بيانه التعسفي، فقالت لنفسها: «ليته يَعلم أن القسوة تقتل في القاسي أكثر مما تقتل فيمَن يسكب عليه القسوة، ويا ليتني علمتُ أن الغدر أصبح نمط حياة، وعلي أن أتوقع أن هناك ضربات قادمة». أفاقت من إغماءة حُب على ثقة لم تكن في موضعها، أفاقت على ورقة يانصيب خاسرة وليس حُبًّا، وبمنديل ورقي جففت دموعها الزاحفة على خديها من تحت نظارتها الشمسية السوداء، كانت مستعدة هذه المرة لإخفاء عينيها الدامعتين عن المارة بتلك النظارة الساترة على الرغم من أنها كانت تصبو إلى

الخير من وراء هذه المقابلة التي تخلفت من أجلها عن العمل اليوم، وقد دعت له الله كثيرًا بالعدول عما صار عليه تجاهها.

تعدت الساعة الثالثة مساءً ولم يعد إلى البيت، وأثناء سيره أمام مقهى الصيادين سمع اسمه يأتي من داخل المقهى بصوتٍ أجش:

- مصطفى.

فعرف مَن المنادي، فأحباله الصوتية لا نظير لها تجعل مَن يسمع الصوت الخارج منها مرة واحدة لا ينساه مدى الحياة، فأصم عنه أذنيه وتجاوزه بمسافة فأشار إليه شخص عابر على صاحب النداء لينتبه له فهز مصطفى له رأسه شاكرًا في الوقت الذي أراد فيه أن يكافئه ببصقة في وجهه، كان ذو الصوت الأجش يجلس على كرسي في آخر صف بالمقهى واضعًا ساقًا فوق الأخرى بكِبر مرتديًا جلبابًا من نوع مرتفع الثمن وحذاءً لامعًا، قابضًا على كوب من الزنجبيل قد شرب نصفه، جبهته العريضة وشاربه الكثيف مع طول القامة أكسبوه بعض الهيبة، فألتفت إليه مصطفى ورفض دعوته إلى الجلوس مُتعللًا بأنه على عُجَالة من أمره، فقام الرجل متوجهًا نحوه وصافحه مُبتعدًا به أمتارًا قليلة عن صخب المقهى فاكفهر وجه مصطفى وأنزل يده التي وضعها على كتفه، ولولا أنه في عُمَر أبيه لكان الوضع مختلفًا وبسيمفونية

رديئة من الكحة الناجمة عن إفراطه في تدخين السجائر والنرجيلة قال لمصطفى:

- سمعتُ أنكَ تركتَ عملكَ بالشهادة الجامعية، أأعجبتكَ عيشة الصيادين وهذا الفقر؟!
- ما من بديل.
- البدائل كثيرة تحتاج منكَ فقط إلى قليل من التفكير.

حاول التملص منه:

- سأفكر، أستأذنكَ الآن.
- سؤال أخير، أَلَمْ يَحِنِ الوقت بَعْد لكي يُحيلَ الوالد مركبه الكهل على التقاعد؟ المشتري موجود.
- الحاج يوسف ليس ببعيد عنكَ اذهب إليه بنفسكَ واسأله. السلام عليكَ.
- انتظر.

قالها ونظر خلفه إلى ذلك الرجل القصير غزير الشعر الجالس على نفس طاولته بالمقهى فقرأ الرجل نظرته وناوله شيئًا عرضه أمام مصطفى بابتسامة ماكرة:

- أليس حرامًا أن يرمي أحدهم الطعام في القمامة في هذه الأيام الصعبة؟!

إنه لا يعرف مع مَنْ يتعامل، فلم تؤثر في مصطفى صاحبة حقيبة الطعام نفسها لكي يؤثر فيه عرضه ثلاثي الأبعاد ضعيف الإخراج هذا، فحط مصطفى يده اليسرى في جيب بنطاله من ذات الجهة ورد عليه قائلًا بلا اكتراث:

- حقًا!

ورفع يده اليمني بالتحية، وود لو يدمغ هذا اللقاء غير المنتظر ببصقة في وجه صاحب الصوت الأجش المَوَّان، هكذا اسمه الذي أعطاه ما يستحق من السِّبَاب بينه وبين نفسه طوال الطريق الذي واصل فيه السير متمهلًا. كان أول من رآه عند دخوله البيت في منتصف الساعة الخامسة مساءً والده الحاج يوسف الذي طال به المقام بالقرب من الباب متحفزًا لأمرٍ ما ووجهه ممتقع:

- أين كنتَ منذ الصباح؟

لم يَعْتَدْ على مثل هذا السؤال إلا من أمه، فأجابه والقلق جليًا على ملامحه بأنه قام ببعض المشاوير واختتمها بالمرور على صديق له بالجوار مكث عنده بعض الوقت.

- فقط؟!

طريقة والده التهكمية في النطق بكلمة فقط نشطت ذكاءه بأن شخصًا ما وشى به عنده، إلى أن سمع صوت المجرم الواشي، ربيع وهو يتحدث إلى أخيه الصغير في الغرفة، فخرج يُقدم خطوة ويأخر أخرى خافضًا رأسه رُعبًا عند تنصته لصوت مصطفى الذي فتح له باب البيت وبنظرة من عينه توعده بالكثير فلينتظر وفوق ذلك لَقَّنَهُ لكمة على ظهره قبل أن يرحل؛ فلا تقتصر المحرمات عند الحاج يوسف على الخمر ولحم الخنزير والزنا إلى آخره، ولكن هناك أيضًا أشخاص يعدهم من المحرمات أمثال المَوَّان، فدخل غرفة نومه ومن ورائه مصطفى لكي لا يسمع أهل البيت الجزء المهم من حديثهما معًا، خاصة زوجته وأغلق الأخير الباب خلفهما موضحًا له أن المَوَّان كان يريد أن يُسلم عليه فحسب، وأنه ما كان ليرد عليه لولا عابر سبيل لزج نبهه لندائه فأحرجه بذلك أمام الجميع، ففاجأه الحاج يوسف بأنه ذهب إلى المَوَّان ولم يطلعه على ما دار بينهما بالتفصيل، وكانت الخلاصة أنه أرعد له بأن اقترابه منه مرة أخرى سيؤدي به إلى نتائج سيندم عليها طوال حياته، كان كَنَوَّةِ البحر في وجه مركب صغير مُغَامِرَ:

- مَوَّان، ابتعد عن ابني، كفاكَ يا مَوَّان، كفاكَ.

المُحَيِّر أمام مصطفى أن المَوَّان قال لأبيه نفس الكلام الذي قاله هو له حتى أمر المركب الكهل لم يتحدث عنه مطلقًا، وقبل أن يغادرا الغرفة عاهده على أن يُعرض عنه بَعد ذلك، وإذا بطرَقات مُتْعبة على الباب ودخلت عليهما بَعدها الحاجة صالحة في ثوبها الأسود، أرادت معرفة سر هذا الاجتماع المغلق ودون أن يرتبك لسان الحاج يوسف أجابها في ثبات فهو كابنه تمامًا أو ابنه هو الذي مثله فتلك القطرة من ذلك الينبوع:

- نرتب لرحلة الصيد القادمة.

فعبست ملامح وجهها الصغيرة ورأته في هذه اللحظة قد اضطجع على قمة الغباء، تنافقه ذكورته بأن ما تفرزه غدده المسؤولة عن الكذب تهضمه كامرأة ببلاهة «هلاوس ذكورية»، ومع ذلك سمحت بمرور الكذبة من أمامها، فمتى كان الحديث عن الصيد يجري خلف باب موصد! وبدأت الموشح على قول الحاج يوسف الذي لا تَطْرَب له أذناه كلما اصطحب مصطفى معه للصيد في عرض البحر، ولكن هذه المرة إصرارها ازداد أطنان المرات وأشارت عليه أن يذهب إذا شاء دون ابنها إلى هذا الشر الذي يصيدهم واشتاطت غضبًا على مصطفى:

- أَلَمْ تَقُل إنكَ تفكر في العودة إلى القاهرة للعمل بها مرة أخرى؟ ما الذي يؤخركَ إلى الآن؟! غادر هذا الموت!

فشعر ببعض الراحة لما قالته أمه بالنيابة عنه أمام أبيه الذي تفاجأ وصاح بلهجة آمرة حادة:

- ما من عودة لكَ إلى القاهرة.

لم يرفع عينيه في وجه أبيه قائلًا:

- لن أقضي عمري كله عاكفًا على ظهر مركب، لقد رجعت إلى القرية بناءً على رغبتكم جميعًا بَعد الثورة لنبقى معًا.

وفي تحدٍّ لم تُقْدِم عليه أمه من قبل:

- بل سيغادر، لن أضحي بابني.

وهتف صوت مفزوع من خارج الغرفة:

- ما الذي يحدث عندكَ يا يوسف؟

كان الصوت للجدة غصون والدة الحاج يوسف، استندت إلى الجدران للوصول إلى باب الغرفة بعمودها الفقري المقوس ورداؤها الأسود، فأسرع مصطفى إليها وأمسك بيدها النحيلة البارزة العروق وأجلسها على أقرب مقعد منتهزًا الفرصة وزاغ من الغرفة، فالجدة تقحم نفسها في أي حوار عائلي وعلى الرغم من شيخوختها المتقدمة فإن شخصيتها القوية لم تَشِخْ بَعد. دخل غرفته وارتمى على فراشه شابكًا أصابعه تحت رأسه، وظلت خديجة وأخيها الصغير بعيدًا في الغرفة المقابلة، تلك الغرفة التي

تشاركها فيها الجدة. هدأت الأصوات في غرفة الجدال إلى أن تلاشت بتأييد الجدة لرأي أمه أمام أب لم يتزحزح عن رأيه، فابتسم وهو يرنو ببصره إلى السقف، لا يعرف لِمَ تذكر الآن خوفه الزائد عن الحد في صغره من مروحة السقف؟! حتى إنه كان يُفَضِّلُ في أشهر الحر الشديد أن ينام وسط فيضان عرقه على أن يديرها، خياله الأخرق صَوَّرَ له أنها ستخرج عن السيطرة أثناء دورانها، تزداد سرعتها وتزداد إلى أن تُفَكَّ صَوَامِلَهَا وتَجُزُّ رقبته فترسم دماءه لوحات تجريدية على الحوائط وأثاث الغرفة والأغطية، فاستل يده ليطمئن على وجود رقبته سالمة، وعلى حين غرة ظهر له المَوَّان فجأة من العدم كما العفريت، فاسترجع تفاصيل المكان الذي قابل فيه أحلام صباح اليوم، الشارع كان خاليًا تقريبًا من السيارات والمترجلين، أكان المَوَّان شجرة من الأشجار المنتشرة على جانبي الطريق؟! أم كان هو ذلك القط ذا الرأس الضخم الذي مشى بمحاذاتهما على الرصيف وكان يموء بين الحين والآخر؟! أم إنه هو نفسه صندوق القمامة الذي ألقت به أحلام حقيبة الطعام؟! فضحك من دهاء المَوَّان ولعنه في ذات الوقت وانعطف بالتفكير في بُغْيَتِهِ من وراء ذلك وفي البدائل التي لَمَّحَ إليه بها، فهل يقصد بالبديل الهجرة؟ لن يجازف هو وإن فكر فيها تفكيرًا جادًا فمن أين يأتي بالمال؟ فإذا باع هذا البيت بمَن فيه من أفراد عائلته لن يُسَدد تسعيرة شحنه إلى إيطاليا.

لقد تذكر خوفه القديم من جماد ما عليه إلا تحريك الهواء من حوله وتذكر مكان مقابلة الصباح بالتمام الأشجار ومواء القط وتلك الندبة التي في وجه عابر السبيل اللزج، كل شيء تذكره باستثنائها هي التي لا يعلم حالها الآن إلا الله حتى إنه تَدَرَّ وضحك، حتى إنه غَطَّ في نوم عميق من التعب ثم نهض بَعد قليل وتناول العشاء وتصفح بعض المواقع الإخبارية على هاتفه ثم عاد إلى أحضان فراشه.

تأخر هو وأخوه في النوم فدخلت خديجة عليهما الغرفة بَعد عدم استجابتهما لخبطها على الباب ووقفت تنظر إليهما بدهشة وهي تقول:

- ألم تستيقظا بَعد؟!

وبعينيه الصغيرتين نصف المغمضتين بادلها أخوها الصغير نظرة عابرة ثم ابتسم إليها ببراءة أضفتها عليه أكثر متلازمة داون ـ Down Syndrome التي يُطلق عليها بالخطأ المنغولية، فعندما وُلد حمله الحاج يوسف راضيًا بمنحة السماء له قائلًا: «أسميته حبيب الله» وها هو ذا في عُمر الثانية عشر فاغرًا فاه متثائبًا وملوحًا لها بيده الصغيرة:

- ديجا.

وبمجرد أن قالت له: عليكَ به يا حبيب، نهض من فوق سريره بهمة بالغة وبدأ هجومًا طفيفًا على مصطفى الذي ما يزال نائمًا مُحدثًا له بإحدى يديه بعض القلقلة فتململ دون أن يستيقظ فانكب عليه حبيب يهرسه بيديه الاثنتين كهرس شوكة لحبة بطاطا مسلوقة، فأفاق من نومه يتوجع، لكنه تقبل مؤامرة حبيب وأخته خديجة التي ألصق بها لقب ديجا وأصبح كل أهل البيت ينادونها به، كانت تشبهه في الملامح أما الخصال فلا، وكانت في هذه الفترة في انتظار عامها الأول بالجامعة.

وعلى مسافة خطوة واحدة لبثت تعاين بعينيها الصافيتين اللوحات التي استولت على سطح المكتب وعلى مساحة لا بأس بها من الأرضية كأنها تراهم لأول مرة، فلا يوجد لوحة واحدة من بين كل هذه اللوحات مكتملة، جميعها أنصاف لوحات فاستنبطت برجاحة عقلها شيئًا من هذا قائلة:

- تعرف فقط كيف تبدأ الأمور لا تُنهيها.

«عم تتحدث؟»، استدار مصطفى إليها، إنها تقصد رسوماته، لا يعرف لماذا ظن أنها تقصد شيئًا آخر، فاعتدل جالسًا وأجاب:

- لستُ أدرى فكلما تزينت أمام ذهني فكرة أبدأ في تنفيذها ولكن سرعان ما تقطعها فكرة أخرى فأتركُ الأولى وأهب وقتي للثانية، وهكذا دواليك.

- الصبر ينقصكَ دائمًا، الصبر أو الإيمان التام بالشيء!

ساخرًا:

- ديجا تعظ!

لم تُلْقِ بالًا إلى سخريته وتابعت:

- عليكَ أن تتعلم أن تنهي ما تبدأه، فالأمور المُعلقة كاللعنة التي لا تفارق أعقاب أقدام أصحابها.

وأمسكت بإحدى اللوحات:

- انظر إلى هذه اللوحة أو لوحة صديقكَ العم بيومي لو اكتملت لكانت لها قيمة واستفدت كذلك من بيعها أو باستمتاعكَ بشيء أنجزته بنفسك، فالمنتصف لا يؤدي إلى شيء، المنتصف تيه.

شعر للمرة الثانية بأنها تقصد بكلماتها شيئًا آخر ما عدا اللوحات، وضعت يدها على نتوء عيبه دون أن تُدرك، وبمزاج قد ساء:

- ماذا تريدين الآن؟

- أريد أن أنظف هذه الحظيرة.

خُيِّلَ إليه أنها تقصد بالحظيرة رأسه لا الغرفة، وفي تصميم تشمرت وعقصت شعرها الحريري المنسدل على شكل كعكة وثبتته بمشبك وأنزلت عن كتفها منشفة التنظيف ووضعتها هي

والمكنسة اليدوية والجاروف على كرسي المكتب، ثم دفعت أخويها خارج الغرفة فضحك حبيب الله ملء شدقيه، ودخل مصطفى دورة المياه، نزع ملابسه ووقف عاريًا أسفل دش صدئ راجيًا الماء أن يَقْطُرَ على رأسه، وإذا بكل ثقب فيه يُخرج له لسانه فلن يُرِيه نقطة ماء واحدة وبدورق بلاستيكي ودلو به ماء قضى الغرض واستحم، حمد الله أن الدش لم يهطل عليه ماء مختلط بالصرف الصحي مثلما يحدث في بعض الأحيان، فمَن يكون هو أو مَن على شاكلته لكي ينعموا بماء غزير ونقي! كما كان يردد دائمًا.

وعلى المقهى تجمهر الصيادون، منهم الجالس على مقعده ومنهم الواقف وتحلقوا للنقاش، كانت القرية في هذا اليوم لا حديث لها إلا عن اقتحام الشرطة مخزن بالغانمية في ساعات الفجر الأولى وإلقاء القبض على سبعين شخصًا من جنسياتٍ مختلفة كانوا يستعدون للهجرة غير الشرعية، سبعون حلمًا غير شرعي، سبعون استغاثة من أوطان كَلَّتْ منهم أو هم مَنْ كَلُّوا من أسقامها، من فاقدي الأمل في أوطانهم ومتوسمي الأمل في أوطانٍ غيرها، من راغبي الهروب من ذواتهم وأقدارهم أكثر من رغبة الهروب من أوطانهم ذاتها غير أنهم سيقابلون أنفسهم مرة أخرى في طُرقات الأرض الجديدة وسيكون في شرف استقبالهم نفس صُرة أقدارهم.

مر أحد الأشخاص على الطاولات بحماسة يصف لجالسيها ومن بينهم مصطفى كيف كانت طلقات النار تدوي في الليل ورَوَّعَت الأهالي المقيمين في البيوت القريبة من المخزن وندب النساء في أنحاء كثيرة من القرية على أبنائهن الذين كانوا من ضمن المقبوض عليهم واقتادتهم الشرطة إلى مخزن معتم من نوع آخر له نفس الوحشة، له نفس الإحساس بالغربة عن هذا الواقع، أرواح معتمة لا تضيئها شمعة.

●●●

موقف سيارات الأجرة.. فيشا سليم.. طنطا

انبعث من صياح المَوَّان رائحة الجبروت فخنقت جنبات الليل ورجل ثلاثيني قوي البنية، يعمل سائقًا على إحدى سياراته للنقل الثقيل تأخر يومًا واحدًا عن موعد تسليم حديد التسليح لموقع بناء، فالمَوَّان يمتلك أسطولًا من سيارات النقل ما بين نقل بضائع وأفراد، استعطفه السائق وأخبره بأنه لم يتعمد ذلك، فابنه الصغير أجرى عملية فُجائية لوقوعه من فوق الدَّرج وكُسرت عظمة فخذه كسرًا مُضَاعَفًا؛ لذا تأخر عن موعد التسليم، فَمرَّرَ المَوَّان أصابعه بعصبية بين خصلات شعره الذي غَطَّى بياضه بصبغة سوداء منذ فترة قريبة، ثم أدخل يده في جيبه وأخرج بعض الأوراق النقدية ووضعها في كف السائق مُشددًا عليه قبضته جاحظ العينين قائلًا بجفاء:

- الرحمة في العمل تُفْسِح الطريق للخسارة، ابحث لكَ عن عمل في مكان آخر يا ابن علام.

وبَعد أن أجهز على ضعفه أوصاه بسماجة أن يُقبِّل له صدغ ابنه المريض وانصرف السائق مصدومًا مطأطئ الرأس دون كلمة فلم تُجدِ توسلاته نفعًا، حضر لحظة جلد مشاعره شاب يُدْعَى سياسي جاءته تلك التسمية من حديثه المستمر عن السياسة

بجهل، يعمل نادلًا في مقهى الصيادين بقرية برج مغيزل التي نادرًا ما يحل عليها المَوَّان الذي لا أحد من أهلها يعرف له غير ذلك الاسم الحركي، فمنهم مَنْ يقول إن البحيرة هي مسقط رأسه، ومنهم مَن يقول إنها الغربية، تبين بعضهم أنه رأس شبكة تهريب إلى منجم الآمال الملقاة على الأرض، إلى ذلك الموت الأسود، وللمَوَّان العديد من الوسطاء في معظم المحافظات متخفين في مهن مختلفة مُتخذين أيضًا لأنفسهم أسماء حركية ومنهم سياسي هذا.

غادر المَوَّان موقف سيارات الأُجْرة بسيارته التي لا يناسب طرازها القديم ثروته الكبيرة، بَعد أن كسر فيه إنسانًا كما يكسر عودًا من القصب على إحدى ركبتيه، وكان سياسي جالسًا إلى جواره بوجنتيه البارزتين وشعره المجعد، عمره لا يتعدى الرابعة والعشرين، وعلى الرغم من تفاوت السن بينه وبين المَوَّان فهو الأقرب إليه من كل العاملين تحت يده، ربما لمهارته وخفة ظله وقدرته على التحدث والإصغاء باهتمام، نظر إلى الموان متوجسًا وعاد ونظر إلى الطريق متحدثًا بحنق:

- مَن الذي كشف أمر مخزن الغانمية وأبلغ الشرطة؟! لقد اتخذنا كل الاحتياطات المعتادة!

ضاربًا كفيه ببعضهما.

فرد المَوَّان بعظمة: أنا.

فأطبقت الدهشة على أنفاس سياسي عَاقدًا كلماته وذراعيه على صدره.

وواصل المَوَّان:

- حصَّلنا منهم الأموال، فلماذا نكلف أنفسنا ثمن مركب نسبة غرقه بهم تسعة وتسعين بالمئة؟! أو ينتهي بهم الأمر بالوقوع في يد خفر السواحل، لقد قُمْتُ بنجدتهم بإبلاغ الشرطة.

وضحك ضحكة مُجلجلة أصابت الوجود بالغثيان من خسته!

●●●

صباح يوم السبت.. منطقة السيدة نفيسة

جالت عهد في المنطقة تَعْرِضُ على مَنْ يقابلها من ساكنيها صورة عبد الرحمن سائلة إن كانوا رأوه من قبل أم لا، ولو كانت ذرات تراب الأرض لها القدرة على النطق لسألتها أيضًا. أذن لصلاة الظهر فتوجهت إلى المسجد لأداء الصلاة، وبَعد الفراغ منها عاودت التحري، وكانت تأتيها الإجابة دائمًا بلا إلى أن غابت الشمس، فجلست على حافة الرصيف أمام المسجد مباشرةً لتريح قدميها اللتين تورمتا وما عادت تشعر بهما وارتقى بصرها إلى أعلى وظلت قليلًا هكذا حيث تشع من المئذنتين والقبة إضاءة خضراء مع ذلك النسيم الذي يُلاَطف تعبها، أجواء ذهبت بروحها إلى ربوع السكينة ولكن شَرَخَها وجود دُخلاء؛ مقاهٍ وباعة جائلين وباعة ناصبين موائد للسلع تُسمي بسطات أو يفترشون بها الأرض ما بين سِبَحٍ مختلفة الأحجام والأحجار وبخور سائب وآخر مُغلف بالسلوفان الملون آخِذًا هيئة مثلث أو أعواد مصفوفة طوليًا داخل علب، ومُعلقات لأعين زرقاء وأكف بأحجام متفاوتة وآية الكرسي، وحُلي ولعب أطفال زهيدة السعر، ومأكولات ومشروبات «فول سوداني، وذرة مشوية، وشاي... »، وسلع أخرى وشحاذين ومَن لا مأوى لهم.

هـرول أطفـال الباعـة حفـاة خلـف شـاب مُحْسِـنٍ يحمـل سـلة كبيـرة مـن الخـوص بهـا شـيء مـا يفرقـه علـى المحتاجـين الرابضـين أمـام سـاحة المسـجد الأماميـة واخترقـوا مَـن أحاطـوا بـه من السـائلين ثـم عـادوا إلـى ذويهـم في سـرور وبـين أيديهـم أرغفـة خبـز أسـمر بهـا أرز وقطـع لحـم بقـري. اجتـذب عهـد مـا يحـدث وأمعنـت النظـر، وقـد أسـندت رأسـها إلـى راحتهـا، انفـض الجميـع مـن حـول الشـاب المحسـن بَعـد أن وَزَّعَ كل مـا في سَـلَّتِهِ مـن أرغفـة ولاح لهـا بِمحَيّـا نورانـي وجلبـاب أبيـض وعمامـة خضـراء كمـا النـور المشـع بأعلـى المسـجد، لاح كجزيـرة نجـاة أمـام شـخص وحيـد وسـط محيـط غرسـه الوجـل في جـزء طـافٍ مـن حطـام سـفينته. كادت تنكـب علـى وجههـا أثنـاء محاولتهـا الوصـول إليـه لكنهـا تماسـكت واجتثـت مـن طريقهـا أي عقبـة علـى هيئـة إنسـان صارخـة:

- عبد الرحمن!

لـم يصلـه صوتهـا، الزغاريـد التـي كانـت تُطْلقهـا النسـاء المصاحبـات لعروسـين قاصديـن المسـجد لعقـد قرانهمـا كالحائـط السـد فصرخـت وصرخـت: عبـد الرحمـن، وإذ بيـد تغيثهـا، يـد زيـدان توقظهـا مـن النـوم!

فقامـت تَتَصَبَّـبُ عَرقًـا بضربـات قلـب مُتسـارعة وعضـلات متألمـة، حتـى إن كاحلهـا يؤلمهـا كأنـه كان واقعًـا ومـا هـو بحلم، فشـربت بعـض المـاء واسـتردت توازنهـا تدريجيًّـا، وتذمـر زيـدان:

- أَلمْ تكن الكوابيس توقفت عن مُلاحقتكِ! لِمَ عادت إليكِ مُجددًا؟

التقطت أصابعها حبات العرق المتساقطة من جبهتها وقالت بيقين زائد:

- طُرق العودة دائمًا متاحة لأي شيء!

وشَردْت ثم أردفت:

- إنها علامة!

فردد بدهشة:

- علامة!

التزمت الصمت دون أن تُلْقِي بإجابة في بلاط مَنْطقهُ، لم تخبره بما رأَت وهو لم يسأل، عدت الرؤيا من كرامات أهل البيت تبشرها بالعثور على عبد الرحمن قريبًا وإن أخبرته بذلك لتصور أن مَن تُحدثه أم يونس وليست زوجته عهد.

استغرق في النوم فتأملته بعين شاكية قائلة في داخلها: «تنقصني أشياء وأشياء، ينقصني أن توافقني الخُرَافة وإن كانت حقًّا خُرافة، ينقصني وجودكَ الفعلي لا ذلك الهبوط الاضطراري لكَ كل ليلة فوق سريري، أن ترتفع بي فوق الألم، فأنا امرأة خرج

إلى الحياة شعورها بالاحتياج الدائم إليكَ في اللحظة التي نبض فيها إهمالكَ لها بالحياة، وأحتاج أيضًا إلى عدم فقدانك الأمل في عودة الغائب»!

في صباح ذات اليوم ذهبت إلى منطقة السيدة نفيسة، وصادفت هناك ما جاءها في الرؤيا حتى وجوه بعض الباعة بدت لها مألوفة، كل شيء حولها مُعَاد على أرض الواقع إلا عبد الرحمن، لكنها لم تيأس فربما تجده في يوم آخر، وفي اليوم التالي خرجت كالعادة بَعد زيدان؛ لكي لا تُبلغه بوجهتها فيضعف من عزيمتها، وأثناء نزولها الدرج وجدت باب أم يونس مفتوحًا فنظرت في الداخل فقابلتها رائحة مُطهر الفنيك الذي مُسِحَت به الأرضية منذ قليل وسلحفاتها حسنية المتمردة تُمرن سيقانها على المشي بَعد هروبها من الصندوق، وفي غضون ذلك صعدت أم يونس بِنَفَسٍ مُتَهَدِّج على درجات السلم المؤدية إلى مدخل العمارة وبين يدها وعاء كبير به بقايا طعام؛ فقد اعتادت أن تطعم القطط الوافدة على العمارة حتى استدام بقاؤهم فيها، وقد أثار ذلك كثيرًا من المشكلات بينها وبين الجيران، والغريب أنها لم تكن تسمح لأي قطة بدخول شقتها النظيفة. رافقت أم يونس عهد إلى المسجد في هذا اليوم؛ فقد تبينت منذ مدة قصيرة أنها ليست ممسوسة من الجان بل ممسوسة فَقْدٍ، ولم تكن تدع يوم الأحد

يفوتها، يوم الحضرة «سبب حضور القلب مع الله» مجلس الذكر الجماعي وقراءة القرآن وترديد الصلاة على النبي محمد «عليه الصلاة والسلام» الذي تؤديه الطرائق الصوفية السُّنية خاصة، ويعتقد بعض الناس كأم يونس أنها ليلة الزيارة للسيدة الكريمة، فكل شخص مكروب يزور في هذه الليلة يشعر بالراحة النفسية والصفاء.

مر أسبوع وعهد تسأل وتبحث في محيط المسجد منتظرة أن يظهر لها عبد الرحمن كما ظهر في الرؤيا إلى أن اقتربت منها امرأة نحيفة القوام دكناء البشرة، يبدو عليها رقة الحال، طرف عباءتها ملطخ بوحل جاف، أعربت لها عن رغبتها في رؤية صورة الشخص الذي تبحث عنه وبَعدما رأته أفصحت:

- إنه هو!

وباهتمام: مَنْ هو؟

- ذلك الشاب الذي يسكن معنا المقابر، ولا يتكلم بتاتًا مع أحد.

فصكت صدرها وأجهشت بالبكاء:

- مقابر!

أبرمت معها سريعًا اتفاقًا، أن تأخذها إليه في الحال ولها منها كل ما تريد، وبَعد عدة خطوات لهما نحو المقابر نزل من سيارته صائحًا:

- عهد، يا عهد.

فاستدارت إلى مصدر الصوت واغتمت:

- زيدان! ما الذي جاء به؟!

وتراجعت قائلة:

- من الجيد أنه جاء لكي يذهب معنا ونأتي بعبد الرحمن.

أصبح زيدان واقفًا قبالتها مُستنكرًا:

- لماذا تتوجهين ناحية المقابر في هذا الظلام؟!

فأشارت إلى المرأة التي قد تبخرت!

وفي المنزل، وبمجرد أن أغلق الباب وأشعل الأنوار، نظر إليها وقد احتقن وجهه بالدماء وصوته بالغضب:

- ماذا لو لم أَقُمْ بالاتصال بكِ باكرًا وأعرف أين أنتِ وقررت أن أفاجئكِ بالحضور وأَعلَم ما القصة؟

وازداد سَخطًا:

- وماذا لو لم أحضر في ذلك التوقيت كنتِ قُتلتِ أو وقعتِ في أيدي عصابة في وسط المقابر؟

فاغتاظت خارجة عن صمتها:

- ماذا! ماذا! لِمَ لا نفترض صدق المرأة وأنها تريد المساعدة حقًّا، لِمَ يهيمن سوء الظن على طريقة تفكيركَ؟!

- ولماذا اختفت عندما رأتني؟!

- لقد أخفتها.

وأردفت بصوت مختنق: أنا أتعلق بقشة!

- تقصدين بوهم.

فنظرت إليه نظرة ثاقبة فأمسكَ ذراعيها بشيء من العنف:

- اسمعي..

وأفلتهما مُتراجعًا عما كان سيقوله:

- لا شيء.

وتركها ودخل غرفة النوم مسرعًا.

●●●

كارديف ـ Cardiff بريطانيا ـ British

جلست نيرة على أريكة تحتل إحدى زوايا غرفة المعيشة وأسرعت في نزع جوربيها لكي تتنفس أصابع قدميها بَعد إجهاد التسوق، ووضعت واحدة من مساند اليد وراء رأسها رافعة ساقيها على الطاولة، وما أن أغمضت عينيها حتى فتحتهما على رنين آتٍ من حقيبة يدها فقامت متكدرة تفتش عنها بين حقائب المشتريات فاتضح لها أن الرنين لرسالة تذكيرية سجلتها على الهاتف أمس حتى لا تنسى وسط ازدحام يومها أن تتصل بأمها، فقد أخبرها والدها زيدان هاتفيًا عن أفعالها غير المحسوبة التي ستضر بها نفسها عاجلًا أو آجلًا، وعن نصيحة الطبيب المباشر لحالتها بضرورة علاجها داخل مصحة نفسية لبعض الوقت، فاحتجت نيرة بشدة، فأمها لن تتحمل شناعة أن يُفْعَل بها ذلك مرة أخرى، ولن يسلما أيضًا من سياط ألسنة الناس، فوعدته بأن تتحدث إليها وستحرص على أن لا تُشعرها بعلمها بما حدث، وقبل أن تضغط على أزرار الهاتف للاتصال بها، تلقت اتصالًا من هيلين صديقة الدراسة بجامعة كارديف –Cardiff University فلَوَت شفتيها ودفعت الواجهة الزجاجية للشرفة إلى الخلف ناظرة إلى مساحة خضراء مترامية الأطراف لتنفث فيها صداعًا قادمًا لا محالة، فهيلين كثيرة الكلام،

وصفت لها هيلين باستفاضة سعادتها العارمة لملاقاة حبيبها باتريك في حديقة الروث بارك – Ruth Park، ففي ساعات قليلة فقط أعادها طفلة، ركبا الدرَّاجة الهوائية معًا، واشترى لها بالونات ملونة وحلوى، وأغدق عليها مشاعر لا تُشترى، عَوَّضَهَا أيامًا من التقصير في حقها بسبب طبيعة عمله مصورًا بصحيفة ديلي تلغراف – Daily Telegraph ومقرها لندن، وبجذل قالت لها:

– شتَّان ما بين الرجل الذي يُعِيد إليكِ طفولتكِ وبين الذي يحولكِ إلى شاهد قبر وأنتِ ما زلتِ مُدَوَّنَة في سجل الأحياء، شتان ما بينه وبين حبيبي السابق ويل.

وانقشع المرح من صوتها واستوى مكانه القلق، فباتريك يُحِب العمل الإنساني التطوعي بما يفوق الحد، انضم إلى العديد من قوافل إغاثة اللاجئين بالمخيمات ومَن يموتون جوعًا في إفريقيا وأماكن النزاعات الداخلية حاملًا معاناة البشرية على عاتقه. كانت في كل مرة يذهب فيها إلى أحد هذه الأماكن تتوجه إلى الكنيسة لتصلي وتدعو أن يعود إليها دون أن يمس بأذى، واقترح عليها هذه المرة أن ترافقه في القافلة القادمة، فالعنصر النسائي مُشارك أيضًا مثل صديقته مارتينا ذات الأصول العربية والمقيمة ببريستول – Bristol، إلا أن تأثر هيلين بالمآسي الإنسانية لا يتعدى شاشة التلفاز شأنها في ذلك شأن الكثيرين من مشاهدي ما تبثه

نشرات الأخبار كل دقيقة، وهؤلاء أعلى درجة من أولئك الذين إحساسهم عطب، لذا لم توافق. بَعد انتهاء المكالمة أخذت نيرة قرصي مُسكن وصبت لها كوبًا من اليانسون وعادت إلى أريكتها أمام التلفاز تُقلب بين القنوات بجهاز التحكم تتابعه صورة بلا صوت؛ فما يزال صوت هيلين يُعشش في أذنها، واستوقفها أثناء ذلك مشهد لطفل في السادسة من العمر تقريبًا، هزيل الجسم مرعوبًا، بُحَّ صوته من كثرة الصراخ، واختلطت دموعه وملابسه وأحلامه الصغيرة بنزيف دمائه وبالتراب الرمادي الذي غَطَّاهُ من أثر تهدم منزله بقذيفة، مُتلفتًا حوله يلقى نظرة شاملة على الدمار بعينيه الغائرتين: «كان هنا إنسان، كانت هنا حياة، كانت هنا أمي»، لم يدرك ما فعله الكبار السيئون بطفولته، لم يدرك غير الشعور بالألم وخوفًا يراوده وأثرًا لن يزول من نفسه بأن الحياة تجربة خطرة، وأنه أصبح وحيدًا منبوذًا من الموت الذي ذهب إليه أهله عنوة، وبالحديث عن جنسيته ردت نيرة على نفسها: «وما أهمية معرفة جنسية هذا البائس الصغير فأسفل سقف الألم تتساوى جميع أجناس البشر، وإن كانت ملامحه العربية تُعلن أنه الهدف القادم»، فدمعت عيناها وتركت كوبها الساخن، فماذا يعني صداعها أمام تمرغ هذا الطفل في الوجع، كانت كصديقتها هيلين من أولئك المتعاطفين فقط.

كل ما توقعته نيرة من مكالمة أمها حدث، فكيف تتخلى عنها وعن أخيها في محنته تلك وتسافر؟ من أين لها بهذا القلب الذي تُعربد فيه القسوة؟! ـ على حد قولها ـ فحاولت أن تمتص غضبتها:

- تعلمين يا أمي الحبيبة أن هنا دراستي العليا وعملي و...

فثارت عليها: اصمتي يا ابنة أبيكِ.

وألقت الهاتف بعصبية شديدة على المقعد فأمسكه زيدان وهَدَّأَ من رَوْع ابنته التي انفتحت في البكاء، وأغلق الخط مُنتقدًا عهد على أسلوبها اللاذع معها ومضت الليلة كئيبة.

●●●

عندما يعزف أحدهم على أوتار جرحكَ مُستمتعًا بالعزف، فاعْلَمْ أنه ليس بإنسان، وهذا هو مصطفى، فلم يكن يمتلك قدرًا من المروءة يمنعه من إيهام قلب أنثى بمحبته متقهقرًا بَعدها بالتخلي تاركًا لها فضاء سوداويًّا تتأرجح فيه بين جحيمين، بين رجاء عودته وأعجوبة النسيان، فجعلها تزهد الحياة كما نسيت الحياة وجودها. شَيَّدَتْ بينها وبين العالم الخارجي حائلًا مداميكه من فولاذ، تُناول والدها الدواء وترعى متطلباته الشخصية، ثم تدخل غرفتها تقدم نفسها مرة أخرى قربانًا للأحزان، رأت أن العُزلة في حال الخذلان في الحب تحمي من ملامسة الآخرين لذلك الجرح، لكن ما عرفت أن العزلة تمنح المرء المساحة الكاملة لكي يلمس جرحه بنفسه عَامِلًا على اتساعه أكثر وزيادة عمقه أكثر، وحارت قائلة: «العزلة وبال، لا نعلم إن كنا نحن مَن نختارها أم هي مَن تختارنا، فأحيانًا نختارها بإرادتنا ونعود بَعدها إلى الحياة أو نتقن تمثيل العودة».

في الفترة الماضية شعر والدها بألم شديد أسفل الظهر وتقلص بعضلات الساقين عند المشي مما استلزم إجراء فحوصات طبية له لتحديد السبب وراء ذلك فساندها الجيران للذهاب به إلى مستشفى رشيد لعدم وجود إمكانيات في الوحدة الصحية بالقرية، وكشفت الأشعة التي أجراها عن إصابته بانزلاق غضروفي،

فبدأ بالعلاج التحفظي الذي يتضمن الراحة واستعمال الأدوية إلى جانب العلاج الطبيعي، وفي حال عدم نجاح هذا العلاج معه سيخضع للجراحة، فتهكمت أحلام بمُصابهما في جزع: «ظننت أنه بمرور الوقت سيزول الهم ففاجأني بذريته الكبرى».

وكانت لها جارة مُحبة وكريمة الأخلاق تجعل ابنتها الصغيرة تمر عليها كل يوم لتملي عليها احتياجاتها من السوق لتجلبها إليها، تمكنت هذه الجارة من تحويل الحب إلى فعل، فلم تكن كمصطفى الذي لا يعرف كيف يكون الحب، أو كيف تكون ذكراه، فقد علم بما آل إليه وضع أبيها الصحي ولم يسأل، وهي التي كانت كتفها بكتفه دائمًا كما الرجال وأكثر من أهل بيته في أي نازلة تلمُّ به، كانت على استعداد لتتلقى عنه الرصاصة، أما الآن فتتمنى رصاصة رحمة لكليهما، قالت لنفسها كثيرًا: «إن الاحتياج إلى مَن نُحب يكون في بعض الأحيان مرضًا مُزمنًا سنبرأ منه يوم اصطدامنا بقلوبهم المتحجرة وتبدأ فصول الكراهية»، وكانت موقنة أن عمى الحس أقبح عمى لكنها كانت أمام نفسها تلتمس له كل الأعذار الممكنة، أعذار تؤلمها لأنها تعلم أنها كاذبة، كان مأزقها الحقيقي أنها تعيش في المنطقة الوسطى ما بين الخيال والواقع، ليس باستطاعتها تحويل الخيال إلى واقع، أو أن تتعايش مع ذلك الواقع، لم تخفَ انبعاثات تحلل روحها وجروحها غير المرئية على أبيها كيفما خفيت على الجميع وأولهم مُسببها، وأدرك أنها في

حاجة إلى أمها التي كانت لها صديقة ولكن من أين يأتيها بها؟! وما لم يدركه أنها أيضًا في حاجة إلى مُعذبها فقد مر كثير من الوقت وما يزال هذا العالق بالقلب والذاكرة يبرح بالمكان.

وضعت نصب عينيها سؤالًا: «أتكون اعتادت ذلك الوجع؟! لكن كيف؟! إن اعتياد الوجع وجع فوق الوجع» وجلست في منتصف مخدعها تضم إليها وسادتها الصغيرة وتذكرت تحذيرها فيما مضى لمصطفى بعدم الاقتراب من قلبها إن كانت مشاعره غير أكيدة أو أنها ستكون له صيدلية الشفاء لرجوعه من أرض الحب منحورًا بغدر دنيا لزواجها بآخر، فبَعد تَغَيُّبِهِ عن العمل مُتعللًا بالمرض سألته عما به ولم يجبها، ثم عاد وروى لها عن حبيبته دنيا التي تركته، فهربت أحلام بعيدًا عنه وعن جرحه بعدما تكالبت عليها المخاوف فطاردها باهتمامه: «أُريد إسعادكِ»، فأسعدها أيامًا وقتلها حُزنًا عُمْرًا بأكمله، «باللّه لن أبتعد عنكِ أبدًا، أحبكِ» وحنث في الحلف.

كانت في بعض الأحيان تُراسله لتفهم فقط شيئًا ما كاسرة عنق كرامتها بقبضة يدها الناعمة التي تستحيل في ثوانٍ إلى يد من حديد وسرعان ما تندم بَعدها لأيام لأنها قامت بذلك، فأرسلت إليه تسأله بَعد مقابلتهما الأخيرة عن سر تغيره تجاهها فأجابها:

- من الطبيعي أن أتغير فالظروف لها قُدرة سحرية على أن تُغَيِّرَ أي إنسان.

- لكنها لا تُغَيِّرُ المشاعر!

- بل تُغَيِّرُ، لقد توقفت عن التخطيط لأي شيء، فلتذهب بي الدنيا حيث تشاء.

ما فعلته بنفسها أقصى أنواع العذاب، ففي الوقت الذي هو فيه يمارس طقوسه اليومية كادت هي تُجَنُّ، تقيم حوارًا مع نفسها، وتقتنصها الذكريات وهي في هذا الضعف. أحاديثهما السابقة كمحطة القطارات في رأسها، يرحل قطار بصفيره ويصل قطار آخر بضوضاء مُغادريه:

- مصطفى.

- نعم.

- أنا وأبي سنسافر إلى القاهرة نزور عمتي وسنشارك في مظاهرة ٣٠ يونيه ضد حكم الإخوان، إنها ثورة ضد تنظيم الجماعة.

- لا، فلينزل عم منصور إلى المظاهرات كيفما يشاء أما أنتِ فلا، فهمتِ؟

...

- مصطفى، الشقة التي تعلو شقتنا أصبحت خالية، ما رأيكَ إن قُمْنَا باستئجارها إيجارًا جديدًا لنتزوج فيها؟ وننام ولو على ورق الجرائد، يعنيني فقط أن نكون معًا.

- لا، كوني واقعية ودعكِ من هذا الخيال.

- ما رأيكَ إذًا أن نعيش مع أبي فهو لن يمانع؟

- لا، لن أستريح.

...

- ما من داعٍ للشبكة فلتكن دبلة لا غير.

- لا، عائلتي لن توافق فلا بد أن نأتي بشبكة للعروس أمام أقاربنا.

فعصفت بها الهواجس: «قد يكون تورط معي في الحُبِّ أو قد أكون برتقالة اشتهاها قلبه الذي جف عقب أيام حُبِّهِ العجاف وبَعدما اعتصرها مرتويًا رمى القشرة، أو قد أكون من البداية مجرد لعبة حب، أيًّا كان حُبه فقد أدى إلى جريمة قتل شنعاء، قتل روح أحبته بصدق، يبدو أنه قبل التوغل في حُبِّ شخص ما يجب أولًا إجراء تحليل لدمه؛ للتحقُق من وجوده الفعلي وإجراء أشعة مقطعية لمراكز الإحساس لديه؛ للتحقُق من أنها تعمل بكفاءة، فعدمَ الإحساس بالآخر نقمة» واستخلصت أن أقبح ما يمكن أن

تفعله الحياة بإنسان بإرادته الكاملة أن تجعل التفاهة تطفو فوق سطح شخصيته وتطغى عليه اللا مبالاة، وهي قد فعلتها معه!

وفي جنح الليل والسكون، وبرباطة جأش وقفت أحلام حافية على سور سطح البيت، قررت إنهاء حربها الضروس مع النفس، فاستنشقت دُفعة كبيرة من الهواء مرة واحدة، ولم تغمض عينيها، بل أبقتهما مفتوحتين، وأصبح وزنها خفيفًا كقطرة ندى، وجرى في أوردتها الشعور بالحرية، فثوانٍ وستترك هذا العالم العدواني، حركت قدمها اليمنى وسلمتها للرياح لتلحق برحلتها الأخيرة فحام حولها الموت هامسًا أقبلي، أقبلي، ففردت ذراعيها استعدادًا لتلبية النداء، عندئذ شعرت باستماتة ساعدين قويين على جسدها، لم يتركاها تسقط، فقامت من النوم على صياح الديكة القريب وجبينها ينضح بالعرق وفي ملابسها وبشرتها بعض من رائحة العنبر.

كانت في هذا الصباح إلى المساء في ذروة حزنها وآلام المعدة، اتخذت مجلسها وأضاءت هاتفها المغلق ونظرت إلى صورة مصطفى المحفوظة به من ضمن أرشيف خاص قائلة بكبرياء أنثى جريحة:

- لقد أبقيتكَ في حياتي كل هذه المدة لكي تذهب بي إلى أبعد مدى لكراهيتكَ!

قالتها ولم تَعِ أمُحقة هي أم مُدعية، وأردفت بيأس:

- وذهبتُ ولكن ضاق بي الكون، فعندما نحب تصبح فرحتنا ملء الكون، وعندما نكره مَن نحب يصبح الكون ملء قبضة أيدينا.

وإذا بشذا يُعبق غرفتها وعينين لوزيتين من ورائها ترمقان صورته في هاتفها بغضب:

- أنتَ عاهة في جبين الحُبِّ.

فالتفتت ببطء إلى مصدر الصوت والفزع ينبثق من ملامحها وانتفاضة جسدها وحدقت بعينيها اللتين احمرتا من كثرة البكاء إلى صاحبة هذا الصوت الدافئ الذي حُرمت من سماعه منذ سنوات، كان خلفها مَن أحكمت قبضتها عليها في الحلم لتمنعها من السقوط، تأملت هذا الكيان الذي ظهر لها فجأة في ثوب قرنفلي اللون:

- أمي!

فربتت على شعرها مبتسمة الثغر:

- هي يا حبيبتي!

لم يستمر فزعها منها طويلًا أو اقشعر جسدها من لمسة يدها، حالة من السكينة والسلام اعترتها أمام هذا الوجه العطوف،

بلبلة الفكر ما جعلتها تتبين أهي في حلم، أم محمومة، أم أن أمها واقفة أمامها في ضوء الغرفة الخافت، لا بد أن ألمها استدعاها من العالم السفلي، لكن الأهم من كل ذلك أنها هنا الآن، فغابت عن الوجود الفَظّ بين أحضانها لمدة دقائق بل ساعاتٍ وربما أيام، ثم أخذت أمها بيدها متوجهة إلى المرآة وكفكفت دموعها براحتها الحانية قائلة بتحسر:

- أهذه ابنتي أم عصفورة ميتة على قارعة الطريق؟!

فتبادلتا النظر صامتتين ثم أجلستها أمها أمامها وصففت لها ما بقي من شعرها المُتعرق الذي تساقط بغزارة على مدار الأيام السابقة؛ حدادًا على حُبها بطريقته وواصلت:

- أحلام، يجب أن تعلمي أنه لن يُزْهر لكِ سخطكِ على الدنيا شيئًا، ولن يُزهر خوفكِ من مواجهة ما في الغيب وحدكِ شيئًا، ولن يُزْهر حزنكِ من تصرفات أحدهم معكِ شيئًا، كل ما في الأمر أن الألم سيسحب روحكِ شيئًا فشيئًا، ولن يبقى لكِ أو منكِ أي شيء.

واعتراها الغيظ:

- أما هذا الأجوف الذي أبكاكِ وأوصلكِ إلى ما أنتِ عليه الآن، فإنه في حاجة إلى فترة لكي ينضج فيها عاطفيًّا، وقد لا

ينضـج أبـدًا، وربمـا يحتـاج إلـى مقابلـة مَـن تُلَقِّنُـهُ درسًـا، أمـا أنـتِ فَتَحَصَّنِـي منـه بـاللّه وتَعَـوَّذِي.

نامـت أحـلام هـذه الليلـة نومًـا عميقًـا، وفي الصبـاح نهضـت تبحـث عنهـا في الغرفـة فلـم تجدهـا، وعندمـا وضعـت أطبـاق الفطـور أمـام أبيهـا الراقـد علـى سـريره كان علـى وجهـه علامـات الارتيـاح، كأنـه علـى درايـة بزيـارة أمهـا لهـا البارحـة التـي كانـت سـجاياها وتحديـدًا طيبتهـا تـدل علـى أنهـا لـن تعيـش طويـلًا، فالطيبـون هـم أول مـن يغـادرون الحيـاة، ماتـت ولـم يَغْـزُ الشـيب رأسـها وتركـت لابنتهـا إرثًـا ثقيـلًا؛ إرث الطيبـة ورهافـة الشـعور، فشـنفت أحـلام أذنـي أبيهـا قائلـة:

- أبي، لقد رأيتُ أمي في الحلم.

- رأيـتِ بدريـة! يَـا لَحَظِّـي فلـم تزرنـي في المنـام منـذ مـدة طويلـة!

- رأيتها أيضًا حقيقة لا حلمًا.

فهز رأسه مبتسمًا، وجلست حياله مهمومة فقال بَعد تنهد:

- لـم أَرَكِ علـي هـذه الحـال إلا عندمـا توفيت أمكِ، لن أسـألكِ مـا بـكِ، ولكـن كونـي قويـة ولا تنتظـري أن يرحـم العالَـم ضعفـكِ.

فأومأت متفهمة، ثم حملت الأطباق الفارغة إلى المطبخ ودخلت غرفة العقاب النفسي غرفتها، واعتزمت هذه المرة الانتصار على نفسها وعادت إلى زمرة مُصَلِّي الفجر بَعد انقطاع دام عدة أيام من حربها النفسية، وانتحبت كثيرًا في سجودها على سجادة الصلاة حتى أوشك قلبها أن يغادر من بين الضلوع، فما تزال الذكرى اللعينة حيةً، وما تزال الدهشة تجري مَجرى الدم، وانطلق لسانها بالدعاء له وقطعته بالبكاء، فما كف لسانها يومًا عن الدعاء له، فإن مرض تدعو له، وإن تعثر في خيبة أو شكى إليها همًّا تدعو له، كانت دائمًا تُصدق كل ما يقوله لها أو كانت تريد أن تُصدق لكي لا تُصدم فيه، فلم تعرف للحب سَمِيًّا إلا معه، وما يعذبها أكثر أنه على عِلْمٍ بعذابها وعلى الرغم من ذلك فإنه لا يترفق. كان كتين الكومودو – Komodo Dragon أضخم أنواع الورل من السحالي البرمائية اللاحمة الذي يعض ضحيته ويقف يشاهد تألمها من سريان السم في خلاياها خلية تلو خلية لمدة ساعات وأحيانًا أيام لتموت في النهاية.

وقبل أن تأوي إلى فراشها، تذكرت الموقف الذي لم تَطْوِهِ الذاكرة في سراديب النسيان:

– مصطفى، أتتذكر زميلنا أحمد؟ لقد طلبني للزواج، له العذر فهو لا يعرف أنني لا أستطيع تلبية طلبه.

فضحكَ: ولماذا لا تستطيعين؟

- أتضحكَ! أماتت فيكَ كل المشاعر؟! رُد.

- ... «فلم يرد».

بَعد تَذَكُّرها لهذا الموقف نزعت العصابة السوداء عن عينيها، فهو ما جعلها تشعر مرة واحدة باحتوائه، ما كان النبراس في ظُلمة أيامها أو السد المنيع بين عينيها ومسببات الدموع لم يكن غير مُستَعْبد باسم الحب، لا تفعلي، ولِمَ تفعلين؟ لا، لن تَجْرُئي، كانت له الأم والحبيبة، بينما هو عرف فقط من أين يُؤْكَل القلب وأكله.

أطفأت المصباح وتدثرت بالغطاء وهي تصغي إلى فكرة طريفة طافت بذهنها: «إذا أردت أيها الذَّكَر أن تتسلى بمشاعر فتاة لملء وقت فراغكَ فاطلب ممَن أَوْقَعَهَا حظها العاثر بكَ أن تقرضكَ مبلغًا من المال لا يُرَدُّ لتشتري بعض المُلْهِيات عنها؛ مأكولات جاهزة قد تقف في منتصف حلقكَ وتصعد بذلك روحكَ، أو اذهب بهم إلى رحلة ترفيهية قد تلقى فيها حتفكَ وأخبرها بأن هذا المال بديل عن اللهو بقلبها، ستدفع إليكَ لا تقلق، فالأنذال أمثالكَ ما عليهم أن يقلقوا من أي شيء أبدًا».

●●●

أدى العسكري في انضباط شديد التحية العسكرية إلى الضابط عصام، العائد من إحدى المأموريات بلياقة بدنية عالية وفتح له باب مكتبه وقبل أن يدلف الضابط إلى الداخل قال بعنجهية:

- القهوة يا عسكري.

دقائق ودخل عليه الساعي بها.

وأثناء ذلك كانت عهد تقف أمام باب مكتبه وعن يمينها زيدان ونبيه الجندي محامي العائلة الذي يقاربه في العمر. الأكسجين مُتناقص في المكان والإضاءة باهتة، أما الرائحة فَمُقْرِفَة؛ خليط من عرق وأشياء أخرى، وعلى مرمى بصرهم ظهر في أول الممر أحد العساكر يحث ثلاثة نساء مقيدات على مواصلة السير أمامه بأقذع الشتائم، والسُكر واضح على أقصرهن طولًا، جاءت وقفتهن في ملاصقة مكتب الضابط عصام ومواجهة عهد، بينما دخل العسكري الحجرة المجاورة لمكتبه، مما منحها الفرصة أكثر لتفحصهن من كثب، فإحداهن امرأة متصابية بشعر ذهبي مُستعار، وسحنة مطلية بالألوان، وحاجبين موشومين أسفلهما مظلتان من أهداب صناعية كثيفة وعينان لهما نظرة وقحة كوقاحة ثوب صاحبتهما الذي يكشف عن لحمها الأبيض المترهل، أما الفتاتان اللتان برفقتها فقَدَّرت عُمرهما بأنهما في سن نهلة الخادمة، ولكنهما تحولتا إلى امرأتين كاملتي الأنوثة ظاهريًّا

بفَضل شعر صناعي وحَمَّالة صدر تُبْديه أكبر حجمًا من الطبيعي ورداء عارٍ يُبين جزءًا لا بأس به منه فيُسِيل لُعَاب ضعفاء الأنفس من الرجال.

خرج العسكري من الحجرة وقذف بهن في حجرة بها مجموعة من رجال ونساء مقبوض عليهم بذات اليوم، فاستشفت عهد أن المرأة المتصابية قوادة فشعرت بالغثيان وأمسكت معصم زيدان بعصبية:

- أريد أن أُغادر هذا المكان.

- ألستِ أنتِ مَن أتت بنا إلى هنا؟!

رن الضابط عصام الجرس للعسكري الواقف بجانب باب مكتبه من الخارج وصاح بصوته الجَهُوري:

- أدخل النسوان يا عسكري.

وبَعدما خرج صف النسوة من مكتبه، دخل نبيه المحامي وانتظره في الخارج زيدان وعهد التي تعبت ساقاها وسخنت ركبتاها من طول الوقوف، وبدأت بالشكوى فلم يحرك زيدان ساكنًا، كان الضابط عصام جالسًا على مكتبه بنظرته الحادة وحاجبيه العريضين في بداية الأربعينات من العمر، عامل نبيه المحامي بود كأن بينهما سابق معرفة، ودعاه إلى الجلوس أمامه فجلس وأفصح له عن طبيعة المحضر الذي تريد مُوكلته الدكتورة

عهد تحريره، وبَعد قليل خرج من عنده متوجهًا هو وموكليه بَعد أن أشار إليهما أن يتبعوه إلى آخر الممر يسارًا لثالث حجرة حسبما أرشده الضابط ليحرر لهم أمين الشرطة المحضر فذكر فيه المحامي بخبرته الطويلة ما سيجعل الشرطة تهتم بالبحث عن امرأة المقابر كالابتزاز.

ظنت عهد أن الشرطة بَعد هذا البلاغ ستُسرِع غدًا أو حالًا في البحث عن المرأة التي أدلت بمواصفاتها لكونها خيطًا قد يصلهم إلى ابنها، وفي الردهة المفضية إلى الباب الخارجي للقسم نقلت ظنها هذا إلى محاميها ذلك المخضرم عريض الجسد الذي يخامرها نحوه النفور دون سبب، فكشرت ملامحه الجامدة التي لا بصيص للمشاعر فيها فدخول أفراد الأمن منطقة المقابر ليس هينًا، يحتاج ذلك إلى تخطيط مدروس؛ فهي عالم له قوانينه وحكامه من البلطجية وتجار المخدرات والمسجلين خطر، وهروبهم وارد إذا استشعروا وجود رجال الأمن، فهم يحفظون مداخل ومخارج المنطقة جيدًا، وبَعد أن أوضح لها ما يحدث عادة في مثل هذه الحالة مضى في خطوات وئيدة وبعض الانحناء إلى سيارته الفارهة.

خرجت عهد من قسم الشرطة ساخطة على ذلك المحامي وكل مَن في القسم متوجهة إلى شقة عابدين، جمعت أشياءها التي جاءت بها إلى هناك في حقيبتين عائدة إلى شقتها بميدان لبنان خشية

عودة عبد الرحمن في أي وقت ويجدها مهجورة، وأوصت أم يونس بالمراقبة عندها في العمارة ومحيط المقام الذي لن تستطيع الذهاب إليه خوفًا من غضب زيدان الذي اتفقت معه على العودة.

مرت أيام تحطمت فيها أعصابها وحدث وهجمت قوات الأمن على منطقة مقابر السيدة نفيسة للقبض على إرهابي يؤويه مجرم يشتهر باسم العقيد نشاطه الإتجار بالسلاح والمخدرات، اخترق المنطقة فردان من الأمن، وذلك بالتعرف إلى أحد رجال العقيد وادَعيا أنهما متعاطيان للمخدرات ويريدان شراء جمجمة ميت لطحنها وخلطها بالمواد المُخَدرة وخرجت الحملة بحصيلة من المجرمين أهمهم العقيد الهارب من حكم مؤبد بسجن أبو زعبل إبان جمعة الغضب عام ٢٠١١م، وعثر في حوزته على كمية من مخدر الهيروين وأردت الإرهابي قتيلًا بَعد مقاومته وإصابته لأحد أفراد القوة، وبعيدًا عن الاستدعاء الرسمي تحدث الضابط عصام إلى نبيه المحامي وأبلغه أن الحملة لم تُسفر في طريقها عن أي أثر لامرأة المقابر، وأن موكلته وفق التحريات كانت من قريب تُعالج نفسيًّا، وبناء على ذلك فإن المرأة التي رأتها من نسيج خيالها، فلم يجادله لأن زوجها نفسه لم يَرَ المرأة المزعومة تلك في ذلك اليوم.

●●●

معبر باب الهوى.. تركيا

انتظرت عشرون حاوية مساعدات في طابور طويل لتخضع وأفرادها للتفتيش الدقيق وإتمام الإجراءات المتبعة لعبور معبر باب الهوى الذي يربط الأراضي السورية والتركية عند إدلب وذلك بالتنسيق مع الجيش السوري الحر والحكومة التركية.

كان المشهد بالقرب من المعبر يعج بمئات النازحين السوريين العالقين بحقائبهم والذكريات لعدم توافر أمكنة لهم داخل معسكر اللاجئين، فئات عمرية مختلفة بأرواح مُمزقة وبطون هضمت حبات من التمر أو لقيمات من الخبز، بعضهم جالس على الأرض تحت أشعة الشمس الحارقة، وآخرون يحتمون بعرائش الزيتون، ومن بينهم نساء يُرْضِعْنَ صغارهن بأَثْداءٍ تغلغل فيها الحزن والتوتر فجَادت عليهم بقطراتٍ شحيحة من لبن ملآن بفزعهن من المجهول.

عشرات الجرحى ونزيف لا يتوقف وضمادات لا تؤدي الغرض، منهم مَن أوشك أن يفارق الحياة بين لحظة وأخرى من طول انتظار وصول سيارة إسعاف واحدة، وأقارب لا يملكون لهم غير الدعاء، وبقلوبهم المرتجفة وأعينهم المبحرة في الدموع يتابعون

ذلك الصراع غير المتكافئ بين الموت والحياة مُدركين أن الموت هو المبارز الأقوى والأعنف، والإنسان أمامه بكل ما أُوتِي من قوة لا يملك أي دفاعات غير الكثير من العذاب والكثير من الألم!

وجوه مُتعبة قطع أصحابها مئات الكيلومترات سيرًا على الأقدام من مناطق مختلفة مُتنقلين بحذر بين البلدان والمدن تحت وطأة القصف وطلقات الرصاص الجنونية التي استمدت جنونها من التكوين الصخري لقلوب مُطلقيها. رحلة شاقة ومُخاطرة كبرى بَعد أن صار الوطن بؤرة خطر دفعتهم إلى بيداء مُقفرة قد يضطرون إلى المبيت وسط زواحفها ورياحها الباردة إلى أن تأذن لهم السلطات التركية بالعبور إلى الجانب الآخر بأرواح ممتلئة بندوب البارحة، وإلى أن يحدث ذلك كان تعاملهم مع السلطات ما بين التماسك والجموح، ووجوه مُغبرة يائسة ساقها نظرها إلى بعيد حيث حاول أصحابها مرارًا الهروب، فما يزال الجسد يرتعش من حمى الذكرى القريبة والأسنان تصطك عند استرجاع صوت طلقات رصاص حرس الحدود التي صُوبت نحوهم وسقوط بعضهم قتلى وإلقاء الناجين منهم في السجن، بينما فر المُهرب بمبلغ لا يقل عن مائتي ألف ليرة عن كل هارب منهم، ثم أُعيدوا إلى بؤرة الخطر مرة أخرى بَعد كتابتهم إقرارًا بعدم تكرارهم التسلل إلى الحدود بهذه الطريقة غير الشرعية.

خَدَّرَ الحزن مارتينا وكل أفراد القافلة على الرغم من أنهم عاشوا من قبل مواقف مشابهة، فإن ذات الألم شعروا به كأنه القطفة الأولى، فحدثت نفسها قائلة: «لو كانت الصحراء لها قلب وعين لترى على مَنْ تقسو ما كانت لتقسو كالبشر الذين لا شغل يشغلهم في الحياة غير تلغيم دروب الآخرين بالقسوة»!

توجهت القافلة إلى محافظة حلب التي تبعد نحو ٥٠ كيلومترًا من المعبر، وفي الطريق فتحت مارتينا زجاج النافذة لتتأمل جغرافيا المنطقة فعبث الهواء بخصلات شعرها الفاحم القصير، ولم تزعجها الأشعة المرسلة من قرص الشمس إلى عينيها السوداوين، فقد حصرت اهتمامها في التحديق إلى صورة والدها الدكتور داود التي فرضت نفسها على مساحة السماء والطبيعة المحيطة في جلسة عائلية بَعد عودته من عمله بمستشفى بريستول للعيون – Bristol Eye Hospita الذي يعمل به استشاري جراحة، ظهر أمامها المشهد بكل تفاصيله، والدها بشعره الفضي الكثيف المقسوم من المنتصف، ووجهه الطويل، وأنفه الروماني الذي يدل على شخصية قوية ونشيطة وهي جالسة في مواجهته يحدثها لكي تتراجع عن فكرة مشاركتها في القافلة، وكان ينظر بين الفينة والأخرى إلى أمها سعاد التي عارضتها بشدة، فقد مرت بالتجربة قبل ذلك وهذا يكفي، ولتساعد الإنسانية من بعيد وليس بالقرب من اللهب، أما شقيقتها الوحيدة سلفيا التي تصغرها بأربع

سنوات، فقد كانت أثناء ذلك الحديث تضع سماعة الهاتف بأذنها مستمعة إلى الأغاني، فحضرت مارتينا ابتسامة خفيفة فشقيقتها غير معنية بأي شيء عدا نفسها، فالطباع بينهما متباينة بوضوح، لكنهما لهما نفس القوام الممشوق ونفس الجمال الشرقي الهادئ لأمهما، إلا إن جسد الأم يشبه في الشكل ثمرة الكمثري فالكتفين والخصر أقل قليلًا من الأرداف المكتنزة، استطاعت في النهاية انتزاع الموافقة من والديها، فمناطق الأخطار بعيدة عن المكان الذي ستقصده القافلة، وليس لكونها أنثي عليها أن تختبئ طوال الوقت داخل خوفها من مواجهة العالم.

كان والدها فخورًا بها وبطريقة تفكيرها لولا خوف أمها المبالغ فيه عليها الذي نقلته إليه، فقد أرادت مارتينا أن تُشْعِر مَن يتجرعون الويلات على يد مَن يُدَرَجُون بحكم النوع في لائحة البشر بأن هناك في بقعة ما من العالم مَن يتألم لألمهم ويمد لهم يد المساعدة على قدر استطاعته، وإن كان ألم مَن اخترق السيف عنقه لا يُعادل ألم مَن تأثر فقط بالمشاهدة حتى إن كان لصيقًا بجلده، وألمها أيضًا أنها لم تُعلم والديها بأن هذه المرة مختلفة وأنها ستذهب إلى أبعد من منطقة المخيمات.

لوحت فتاة جالسة على الكرسي المتاخم لها أمام وجهها قائلة:

- مارتينا، باتريك يتحدث إليكِ وأنتِ لا تنتبهين له.

- عذرًا باتريك، عذرًا شيرا، يبدو أن ذهني قد شرد قليلًا.

فابتسم باتريك فكشف عن أسنانه البيضاء المتلألئة:

- إنه لمن دواعي سروري أني تعرفت عليكما.

فتهلل وجه الفتاتين، ووَلَّىَ بَعدها لهما ظهره مُستقرًّا في مقعده الأمامي بوسامته وتناسق قوامه اللذين يجعلانه يُصلح عارضًا للأزياء أكثر من كونه مصورًا صحفيًّا، وكانت كفاءته في معاملة النساء تتفوق على تلك الوسامة، وهذا هو سر جاذبيته الحقيقية. غاصت شيرا في مكانها بشعر كستنائي هائش واصلًا إلى أذنيها قد تناست معه أنوثتها، وبسطت ساقيها الرفيعتين ببنطالها المريح أسفل المقعد واستدارت إلى مارتينا بوجهها المكتسب اللون البرونزي:

- أنتِ من أصول عربية وبالتحديد مصرية، هل أصبتُ؟

- نعم.

قالتها وعاودت النظر إلى خارج النافذة مرة أخرى شاردة الذهن.

فقاطعتها شيرا: ألا تريدين التحدث إلي؟!

- بلى، لكن لماذا تقولين ذلك؟!

- لأن العرب يكرهون الصهاينة.

وضحكت مواصلة:

- أنا يهودية ولا أعيش في إسرائيل ولم أَزُرْهَا يومًا.

فردت مارتينا بصوت هادئ النبرات:

- أنا لا أفكر بعنصرية وأعيش أيضًا في مجتمع غربي متعدد الجنسيات والأديان.

وبحماسة:

- وما دام لم يُشِحْ أحد بمخالب العداء في وجهي فله مني السلام.

وتابعت حديثها:

- وأنتِ، لِمَ تُساعدين العرب الذين تظنين أنهم يكرهونكِ؟!

فضحكت ضحكة مُستفزة:

- لأني مثلكِ لستُ عنصرية.

فنظرت مارتينا شزرًا إلى هذه الفتاة المتحذلقة وصمتت، فهي تعاملها تعاملًا عاديًا كأي من معتنقي اليهودية الذين لا يد لهم في

جدار الرُّفات العربية والحقوق المسلوبة الرطب دائمًا من جريان الدماء المستباحة والدموع المقهورة هنا وهناك وعلى مرور أزمنة، وذهب بها التفكير إلي أن الجدران التي يُشيدها الآخرون بداخلنا لتصير حربًا دائرة بيننا وبينهم لا تهدأ، تصير وخزًا مستمرًّا لن تستطيع دورة الزمن أو أي مَن كان أن يحرك حجرًا واحدًا منها سنتيمترًا.

نهض باتريك وطلب من شيرا أن تتبادل معه المقاعد رغبة في الحديث إلى مارتينا في أمرٍ ما، فعلى ما يبدو أنه أرهف أذنه لحوار الفتاتين.

فاستجابت متأففة، وجلس إلى جانب مارتينا فأضاء المقعد ثم قال ملتفتًا برأسه إليها:

- هل لديكِ حبيب يا مارتينا؟

- لا، لِمَ تسأل؟

- أرى أنه لا يزعجكِ أحد باهتمامه، فحبيبتي مزعجة في هذا الشأن.

فنجح في جعل فمها الدقيق يسطع بابتسامة، وأردف:

- اسم حبيبتي هيلين، تشبه كثيرًا في الملامح النجمة جوليا روبرتس.

وعرض عليها صورتها التي يضعها خلفية لشاشة هاتفه:

- لقد أعددت لها مفاجأة، سأقدم لها خاتم الزواج بَعد عودتنا من سوريا.

فتمنت لهما السعادة، وأخبرها بأن لا تُلْقِي بالًا لما قالته شيرا منذ قليل؛ فهي تميل إلى الجنون أكثر من التعقل فوافقته الرأي، ورجعت بظهرها وشردت بذهنها خارج النافذة مجددًا.

الحب! لم تَدْرِ إن كان ينقصها محبة رجل من عدمه، قد يكون السبب في ذلك شخصيتها المستقلة الطموحة، أو لأنها لم تقابل حتى الآن مَن يمكنها أن تبني جسرًا قويًا بين أوردة قلبه وقلبها وصغائر أمور حياته وحياتها، لكنها ما تزال تذكر ذلك الشعور البديع الذي مر بها وهي فتاة صغيرة، أكان هذا الشعور هو الحب أم إنه لم يكن يَمُتُّ للحب بصلة؟ «فمرحبًا بالحب إن بحث عنها وجاءها إلى حد عتبات قلبها مُحملًا بالورد، ووداعًا أنيقًا له إن لم يتحسس وجودها في هذا العالم المزدحم وتجاوزها إلى الأبد» على حسب معتقدها.

شد انتباهها من بعيد سحابة سوداء عظيمة الحجم انتشرت في السماء من جراء تصاعد دخان القصف، فتخيلت ما يدور أسفلها من حفل خسة لشواء اللحم البشري الذي يزكم الأنوف

مـن رائحتـه أكثـر بالاقتـراب مـن مـكان القصـف، فالتقـط باتريـك ببراعتـه في فهـم النسـاء تداعيهـا الداخلـي وسـألها إن كانـت بخيـر فـردت بصـوت أسـيف:

- مـن أيـن يأتـي الخيـر؟! وقـد أصبـح الشـر في الأرض صيـدًا جائـرًا للخيـر!

- مـا مـن دهشـة في الأمـر، فبوجـود البشـر مـا عـاد هـذا الكوكـب آمنًـا بمـا يكفـي، الوحشـية أصبحـت اللسـان الـذي يتحـدث أكثـر!

انتقلـت شـيرا إلـى كرسـي شـاغر بجانـب محمـد، أحـد أفـراد القافلـة، وبـدأت معـه مـا بدأتـه مـع مارتينـا منـذ قليـل فأفحمهـا بلباقتـه وانضبـاط أعصابـه، وعـادت إلـى مكانهـا وقـد بُهتـت وتوقفـت الحافـلات العشـرون في منطقـة أكثـر أمانًـا، فنزلـت منهـا خفيفـة الحركـة ومـن ورائهـا باتريـك حامـلًا حقيبـة ظهـر متوسـطة الحجـم ومارتينـا بزيهـا الرياضـي الأزرق وباقـي الطاقـم وعددهـم اثنـا عشـر.

كان مجاهـدو جبهـة الإغاثـة السـورية الذيـن أَمنَّـوا القافلـة في الطريـق واقفيـن بجـوار بـاب الحافلـة الأولـى، فتقدمهـم شـاب أصهـب تميـل قامتـه إلـى الطـول وتبـرز عضـلات سـاعديه المفتولـين مـن أسـفل ملابسـه يدعـى مازنًـا، ودون إطالـة منـه أشـار علـى أفـراد

القافلة بأن يتبعوه إلى مكانٍ يستريحون فيه قليلًا، لكن مارتينا وشيرا أرادتا الذهاب إلى المستشفى الميداني للمساعدة، أما باتريك فأخرج آلة التصوير من حقيبته وأخذ يلتقط الصور، في حين شرع بقية أفراد جبهة الإغاثة في استدعاء مَن يفرغ معهم الحاويات من المساعدات استعدادًا لتوزيعها على الأسر المنكوبة، وكانت المساعدات عبارة عن: «أرز، ودقيق، ومعلبات، وألبان أطفال، وملابس، وأغطية، وعقاقير، ومعدات طبية... » كان يصل إليهم أصوات القصف من على مسافة عشرة كيلومتر، فرسم بعضهم في مخيلته كيف أصابت القذائف، وكم من القتلى والجرحى أوقعت، وكيف هي ضحكات القاتل التي يشمئز منها الجحيم، فقالت مارتينا في نفسها: «عندما تتبلور فكرة القتل في ذهن أحدهم ويصبح بين يديه مسدس فلن يكون بَعدها في حاجة إلى غواية شيطان؛ فقد صار ذاته شيطانًا»!

تربصتهم رائحة الموت النفاذة التي وطئت كل شبر، وتمكنت من كل شيء، كانت تقتفي أثر أي مخلوق يخطو هناك وتضعه على قائمة الانتظار، ترهبه إلى أن تتصدع عظام جمجمته وتسكن في أكوام الأبنية التي سقطت على رؤوس قاطنيها وسدت الطرقات وبين جدران البنايات المهجورة غير المعلوم مصدر قوتها وصمودها بَعد ما ألحقته بها طلقات الرصاص الهستيرية والقذائف العشوائية

والموجهة، وتسكن البنايات السوداء المحترقة والمزروعات المحترقة، أفئدة مُحترقة وآثار للدماء ما تزال حية، جدران تئن، وخَلْق تئن، ومَن يشعر؟!

وفي وسط هذا الدمار ارتفعت على استحياء رائحة طعام شارف النضج على يد امرأة أحسنت التصرف مع الألم بمواصلتها الحياة، بإضرامها النار في أخشاب من منزلها الذي تهدم جزئيًّا واضعة عليها قِدْر الطهي لتُطعم مَن تبقى من صغارها ما تبقى لها من مؤنٍ، وقد كانت تلك الأخشاب ذات يوم لسرير ينام عليه صغارها مطمئنين، قرى برمتها صارخة: «أين كنت أيها العَالَم؟ لقد كان هنا مجزرة»!

توجه مازن بثلاثتهم مارتينا وشيرا وباتريك إلى مدرسة اتخذها الأهالي ملجأ لهم من القصف، كان الوضع في الداخل مأساويًّا، تَجمُّع لحطام بشري يؤلم القلب، وبَعد مسيرة دقائق لهم في الداخل انفصل عنهم باتريك وضاق صدر شيرا من عدم قدرتها على فهم الحوار الذي كان دائرًا باللغة العربية بين مارتينا ومازن فتركتهما وأخذتها رجلاها إلى طفلة صغيرة مليحة الوجه بعُمْر الرابعة جالسة على دكة خشبية بالفناء الداخلي في ظل البناية، ثوبها بالٍ، وقدماها مُتربتان، وبإحدى ساقيها جُرح قطعي مُخيط بخمسة عشر غرزةً، وبين أسنانها اللبنية قطعة خبز يابسة، فأخرجت شيرا من حقيبتها

بعض الحلوى ومدت إليها يدها بها محاولة بيدها الأخرى أن تُمَسِّدَ شعرها الملبد الضارب إلى الصفرة، فتراجعت الصغيرة بجسدها إلى الخلف مبتعدة عنها في توجس، ورمقتها بنظرة ذعر من عينين ترقرق فيهما الدمع وبأسفل العين اليسرى كدمة اختلط فيها اللون الأحمر بالأزرق، وفجأة ظهر من وراء الصغيرة طفل له نفس قسمات وجهها، وله جسد البراءة وصلابة الجبل، كان هو نفس الطفل الذي رأته نيرة والعَالَم أجمع على شاشات التلفاز وتأثروا به قليلًا وعادوا بَعدها إلى ممارسة حياتهم الطبيعية كأن شيئًا لم يكن، هو الوحيد الذي لم يستطع أن يعود إلى سابق عهده مع الحياة، تيبست بسمته، وانطفأت طفولته، وشاخ قلبه وغاب عنه إلى الأبد أَحِبتُه، ما يزال على هيئته التي رآها العالم بقميصه وبنطاله الممزقين والملطخين بدماء حال لونها وزاد عليه ضمادة من الشاش ملتفة على صدره المصاب ولاصق طبي على جبهته، وعَبَّأَ القيح جراح ذراعيه، اقترب قليلًا وألقى بالحلوى من يد شيرا على الأرض ونظر إليها نظرة مُتعمقة في الغضب والحسرة قائلًا:

- لا نريد.

وأمسك يد أخته الصغيرة وحثها برفق على النهوض واندلعت ثورته حتى احتقن وجهه:

- نريد أبانا وأمنا وأخوينا!

وتمهل على أخته في مشيتها وهي تجر ساقها وارتقيا الدرج.

لم تفهم شيرا ما قاله لها هذا الطفل البائس التعس، إلا أنها شعرت بما لم تفهمه وارتعبت، راقب مازن الموقف من بعيد فأقبل عليها بمشيته العسكرية وكذلك مارتينا ليخففا عنها لكنهما لم يستطيعا الاقتراب من الطفل الذي بادر ورشقهم جميعًا بنظرةٍ كالخنجر مسمومةً بالآلام حَجَّمَتْهُمْ لحشرات وحَجَّمَت العالم المتسع لحفرة قاذورات ضيقة، لحظات وناداهم باتريك من الدور العلوي كي يصعدوا إليه، وقبل أن يلبوا نداءه اهتزت الأرض من تحت أرجلهم نتيجة انفجارٍ ما، فاندفع مازن إلى الخارج وغاب لبعض الوقت، ثم عاد بَعد حصوله على معلوماتٍ مبدئية بأن الانفجار لصاروخ أغار على حي قريب، فأخبرته مارتينا مرة أخرى برغبتها في الذهاب إلى المستشفى الميداني وإذا بمازن مدهوشًا:

- ألَمْ تخافي بَعد التفجير الذي حدث؟!

- لا، بل أُصِرّ أكثر!

لكنها لم تتمكن من الذهاب؛ فقد صادف في هذا التوقيت نقل مَقر المستشفى إلى مكانٍ آخر لتجنب الاستهداف، نزل كلٌّ من مارتينا وشيرا وباتريك ضيوفًا على عائلة مازن، وجاءت استضافة باقي أفراد القافلة عند مجاهدين آخرين من جبهة الإغاثة.

كانت أول ليلة لهم هناك غير هادئة؛ اخترقتها ثلاثة غارات مُتفرقة على مناطق بالجوار، واكتنف كل حواسهم أصوات الهاون وطلقات الرشاش الضارية، وخنقهم ظلام دامس شتت بعضًا من هوله ضوء شموع هزيلة. وفي صبيحة اليوم التالي عادت الكهرباء بَعد انقطاع دام ثماني ساعات، وانقطعت بَعدها مياه الشرب بالتناوب، تناولوا الفطور على عجالة وشكرت مارتينا والدة مازن على حُسن ضيافتها لهم على الرغم من أن قلبها كأم لم يتقبل أن فتاتين بمحض إرادتهما يأتيان إلى هنا وأين الأهل من هذا القرار؟! وكان لمازن نفس الرأي، وتقريبًا كل مَن رآهما هناك كان كذلك.

انطلق كل أفراد قافلة الإغاثة إلى المستشفى الميداني بَعد نقله إلى قبو إحدى العمارات ووقف على حراسته مجاهدون من الجيش الحر، قام مازن بمهمة التعارف السريع بين الأطباء وأفراد القافلة ومضى لأداء ما وراءه من مهام، كان يوجد في المستشفى الكثير من الحالات التي تتفاوت في درجة خطورتها ما بين بتر، ووقف نزيف، وجراحة عظام وأشلاء تنوح حولها أرواح فارقتها.

دنت مارتينا من رجل مُمدد على سطح منضدة معدنية سابحًا في دمائه، عينه شاخصة وصدره العاري يعلو ويهبط بشدة وفجوة دخول الرصاصة واستقرارها في القلب واضحةٍ للعين فجست رأسه فلسعتها حرارته المرتفعة وصاحت:

- أما من أحدٍ ينقذه؟

فترك طبيب مصري متطوع اسمه أسامة زميله يستكمل عنه تجبير ساق مكسورة لصبي، وبخطوات واسعة اقترب منها باديًا على وجهه الإجهاد؛ فلم ينم منذ البارحة، وزفر بشدة الهواء من رئتيه حتى انتفخت وجنتاه الممتلئتان بالدمامل ورفع يده اليمنى وهوى بها على فخذه النحيف لإحساسه بالعجز:

- ما من إمكانياتٍ متوفرة لإنقاذه!

- أنتركه يموت دون أن نفعل له شيئًا؟!

فضاق صدره: هل أنتِ طبيبة؟

- لا. أنا متخصصة بعلم الأدوية.

- لقد فعلنا كل ما في وسعنا معه.

وأدار نظره في القبو بحيطانه القاتمة التي لا يوجد بها منفذ واحد للتهوية وأردف:

- انظري حولكِ، إمكانيات تكاد تكون معدومة، وأجهزة مُعطلة، حتى الأدوية التي جئتمونا بها لن تصمد طويلًا أمام طلقات نارية جشعة واتساع فيِّ الموت.

فلفظ الرجل أنفاسه وسط النقاش، فالموت لا يُصْغِي لمثل هذه النقاشات عديمة الفائدة، فألقى الطبيب بغطاء على وجهه ونطق بالشهادة ولم يكن الوحيد الذي رجعت روحه إلى خالقها في تلك اللحظة.

مر يومان على أفراد قافلة الإغاثة وهم منهمكون في المساعدة على إسعاف الجرحى، وشعرت خلالهما مارتينا بأنها وأفراد الطاقم غير مُرحبٍ بهم من ناحية الطبيب أسامة، استشفت ذلك من طريقة كلامه ونظراته كأنهم هم مَن يفجرون هنا وهناك ويُسقطون القتلى، وفي عينيه السؤال الذي اعتادت رؤيته في بعض الوجوه منذ وقت مجيئها إلى هذه الأرض: «ما الذي جاء بكِ إلى هنا أيتها الأنثى؟ ممنوع كعبكِ العالي أن يخطو ساحة الأخطار، كوني أنثى مرفهة وبعيدة فهناك ساحات يعلوها لافتة للرجال فقط».

كانت مارتينا من أولئك الذين مهما بلغت قوتهم تختلج قلوبهم عندما يرون الموت جاثمًا على وديعته يستردها، فأطبقت بحسرة جفن رضيع غادر الحياة بين أيدي الأطباء وهم يحاولون إنقاذه صارخًا صرخة أخيرة أفزعت الطيور في أعشاشها والسباع في عرينها حتى ديدان الأرض فَزعت، فزع الجميع وتألم إلا آذان الطُغاة، فمِن زمن قُطعت والأفئدة. لم يتَحمل ألم كف مبتورة وجسد ضئيل صُفِّيَ من الدم، وقد يكون عرف بطريقة ما بعيدة

عن إدراك البشر أن أمه رحلت فلم يَقْوَ على العيش دونها وشد الرحيل إليها، فنظر أسامة إلى جثمانه حزينًا وقال:

- نام يا صغيري، فعندما يلفظكَ أهل الأرض بغير وجه حق تحتضنكَ الجنة!

فعلقت مارتينا:

- لو كان تراب الأرض الذي يتصارع عليه البشر المسعور ذهبًا خالصًا ما ساوى الفزع المختوم على وجوه الضحايا ووجه هذا الملاك!

في اليوم الثالث، اعتزم أسامة الانتقال بالقرب من أرض المعارك لإسعاف الجرحى، فطلبت شيرا مرافقته، فقابل طلبها بالرفض المصحوب بنظرة ازدراءٍ غير مفهومة المغزى، فازدادت إصرارًا، مما جعل مازنًا يحاول إقناعه بأنها ممرضة ماهرة ومفعمة بالحيوية، وأنها ستكون مُسَاعِدَة جيدة له، فهز كتفيه باستخفافٍ ثم وافق على غير رضا، فتعجبت شيرا من تصرف مازن وهي التي تراه ومارتينا من هؤلاء الذين لديهم رغبة خفية في إطلاقهما خارج الحدود قائلين لهما: «هيا، هيا من هنا استمتعا بجولة تسوق في تركيا»، لكنه شاب ذو خلق يعاملهما بلطف جم، ولا يقارن بالطبيب أسامة فقد تكون رغبته تلك ناجمة عن خوفه عليهما، فرمقتهما

بنظرةٍ قاتمة ومسحت عن وجهها ذلك التوتر الذي وجد له مُتنفسًا على هيئة عَرقٍ، ولم تقلق على زوال مساحيق التجميل، فمنذ اليوم الأول لها في القافلة لم تهتم بمثل هذه الأمور، وبالمثل مارتينا التي تحدثت إليها بهذا الخصوص قبل ذلك قائلة بأنه من السهل على المرأة أن تتخلى عن مساحيق زينتها، ولكن من المستحيل أن تتخلى عن هدفٍ أصرت على بُلوغه.

بضع ساعاتٍ لها إلى جوار الطبيب أسامة تساعده أو بمعنى أدق تساعد الجرحى: تطهر الجروح، وتضمدها، تناوله من الحين إلى الآخر مقصًّا، أو شاشًا، أو خيطًا... لكنها لم تُناوله ذلك السؤال العالق برأسها وينخر كالسوس: «لماذا هذه المعاملة؟» خانتها الشجاعة التي أتت بها إلى هذه الأرض من أن تطرح مجرد سؤال، فذكَّرَت نفسها بأنها ليست هنا من أجل استطلاع آراء الآخرين فيها أو قيامها بتحليلهم نفسيًّا، على الرغم من أن آراء الآخرين قد تَكشف عن فهمهم الخاطئ، وقد تَكشف عن أنهم معتوهين ليس أكثر.

وفي خِضَمِّ المعارك جاءهم عبر اللا سلكي نبأ العدوان على المستشفى الميداني وانقطع الإرسال دون تفاصيل عن حجم الخسائر، ففقدت شيرا صوابها صارخة برغبتها في الرجوع للاطمئنان على باتريك ومارتينا والجميع، فهاج وماج مجاهد من

الجيش الحر عليها أنهم محاصرون الآن وأن الأخطار باتت تحيط بهم، فكيف تعود؟! وما الذي أتى بها بينهم! كان هذا الرجل ذو الشاربين المعقوفين إلى أسفل والصوت المخيف هو أكثر مَن قابلتهم جرأة حتى الآن، هو الوحيد الذي قالها صراحةً، وإن كانت لا تميز أهذه جرأة أم وقاحةٍ، فأحيانًا يُخلط بينهما، وللتفريق يتطلب معرفة سابقة بالشخص.

●●●

بَعد الظهيرة

قامت ريم بزيارة مفاجئة لأحلام في البيت لكي تنتشلها من بوتقة الحزن الذي جعل من أنوثتها جثة خارجة من القبر للتو اجْتَثَّ منها قابليتها للحياة وجعلها ترتدي بإحكام رداء الوحدة الخشن، فسعدت أحلام برؤيتها واحتضنتها طويلًا، وتساقطت من عينيها رواسب من الدموع، ثم أَلْقَتْ ريم التحية على الأب المريض الراقد على الفراش وبين يديه سبحة تَجْرِي أنامله على حباتها، يُحصي ذِكره لله وامتدحت ما يفعله فَرَدَّ قائلًا:

- إن الله هو المؤنس الوحيد في الشدائد، هو المؤنس الوحيد عندما يَنْفَضُّ من حولك الخلائق يا ابنتي.

بينما أسرعت أحلام الخطو أمامه حتى لا يلاحظ عينها الباكية، ودخلت غرفتها قبل ريم ورتبت بخفة بعض الفوضى، كان هواء الغرفة مكتومًا كهواء مخبأ مغلق منذ الحرب العالمية الأولى واكتشف وفتح في الحال أو كهواء مُعتقل تحت الأرض عُذِّبَ فيه مَنْ عُذِّبَ وتحللت فيه الأجساد، كل شيءٍ في الغرفة يدل على أنه دار فيها صراعات نفسية عنيفة وصرخات لم يسمعها أحد ودموع لم يجفف منابعها أحد، وقلب مُتَّقِدٌ لم يطفئه أحد،

وخاطر منكسر لم يُطيِّبْه أحد، روح هنا تَعَذَّبَتْ دون رحمة، كل شيءٍ في الغرفة شارك أحلام في ذلك الحزن، إنها العِشْرة التي قد يتهاون بها البَشر وتتمسك بها الأشياء، وهكذا الحزن عندما يَتَمَكَّن يتوسع في رُقعة نفوذه.

شعرت أحلام بضيق ريم من هواء الغرفة ففتحت النافذة لتُجدده، وأَنْصَتَتْ لقلبها القائل: «ومَن في استطاعته أن يُزعج الحزن ويطرده خارجًا؟!»، غابت عنها قليلًا وعادت وقدمت لها كوبًا من الشاي وطبقًا به مخبوزات مُحلاة، ولم تَنْسَ أن تُغلق باب الغرفة عليهما حتى لا يصل صوتهما إلى أبيها، فصارحتها ريم وهي تعيد الكوب إلى الصينية بعدم جدوى عُزلتها، فَلْتَقْهَرِ الحياة بخروجها إليها ولْتَقْهَرْ مَنْ قذف بها للحزن طعامًا هنيئًا وسط ظُلْمة غرفة، تناولت بعض المخبوزات وأبدت إعجابها بها بَعد عَلمها أنها مَن أعدتها بنفسها وأخبرتها بحقيقة أن الحزن لا يخجل من أوجاعنا، بل يزداد مع أوجاعنا شراسة، وعندما يَنْقضُّ الحزن على الروح، لا يُبْقِي روحًا فيها ولا جسدًا!

فخفضت أحلام رأسها قائلة:

- إنه فوق طاقة الاستيعاب أن يأتيكِ الغدر مِمَّن اختبأتِ خلف ظهره من سهام الغدر، لذلك كان الانهيار، وكان الحزن كما ترين.

تأهبت لحَمل صينية التقديم إلى حوض المطبخ بَعد أن أتت ريم بشهيةٍ مفتوحة على المخبوزات وما في الكوب، لكن ريم أمسكت بمرفقها لكي تبقى جالسة ولتُنجز ذلك فيما بَعد وأخرجت من حقيبة يدها قلمين من أحمر الشفاه واقتربت منها حيث تقعد على حافة السرير محاولة شق طريق للابتسامة في هذه الشفاه الوعرة المتشققة وهذا الوجه الذي ارتُكبت بحقه جريمة وقُطف من بستانه فذَوَى:

- انظري إلى لون قلم الشفاه هذا، إنه بلون دم الغزال، لقد اشتريتُ لكِ واحدًا على سبيل الهدية.

وحَدَّقَتْ بعينيها الرماديتين العميقتين إليها وبدأت في وضع أحمر الشفاه على شفتيها الرفيعتين تجربه ووضعته لها بَعدها على الرغم منها، فقد ظفر وزنها الزائد على ضعف مقاومة أحلام وبثقة قالت:

- وضعكِ لأحمر الشفاه يَطعن الحزن في مقتل.

يا ليت جميع المشكلات والعلل تُحَلُّ بوضع أحمر الشفاه، لأُسْعِدَتْ قلوب تعيسة وحُرِّرَتْ بلدان مُحتلة ونَعِمْنَا بالحب والسلام إلى آخر دقيقةٍ في العمر، هذا ما فكرت فيه أحلام في تلك اللحظة.

مررت ريم أصابعها على أنفها العريض واستأنفت:

- أخبريني، هل مصطفى يسأل عنكِ؟

فهزت رأسها ببطء نافية وبأسى:

- مَن كان قلبه أعمى لن يعود ليبُصر فجأة.

- أرأيتِ! أنتِ الآن تحتاجين إلى بقية مستحضرات التجميل.

فابتسمت لها ابتسامة ليست نابعة من القلب لكي توهمها بأنها أحرزت ما جاءت من أجله، فقد كانت ترى أن كلمات المواساة تُطفئ النيران المشتعلة في الصدر لكنها سرعان ما تشتعل مرةً أخرى، إن حدث وأطفأتها.

فسيطر الجد على وجه ريم وبلهجة لا تخلو من العتب:

- أحلام، أنتِ غبية، غبية إلى درجة الألم، فالوفاء لَمن لا يستحقه غباء يدفع إلى الألم.

وأوصتها بأن تعيش كما يجب فمَن قتل فيها الحياة يصول ويجول فيها، ما كانت تريد أن تصب على الجروح زيتًا تجاوز درجة الغليان، لكنها أرادت منها أن تَفيق وأن تكره غير الجدير بحبها هذا وتضعه في كبسولة وتطلقه في فضاء النسيان بلا رجعة، لذا أخبرتها بما فهمته من كلام خطيبها طاهر عن مصطفى

فقد جعلت مهنة الصيد منهما صديقين ولم تُظهر لطاهر أهمية الموضوع لها حين قال أن مصطفى عاد إلى القاهرة ليعمل بها مُجَددًا لكنه يظن أن عودته إلى هناك لسبب آخر، وبهدوء أعصاب قاطعت أحلام عبارتها:

- من أجلها.

وبَعد أن كانت ريم واقفة تهم بالانصراف مُهندمة ملابسها، جلست وقد علت وجهها الدهشة:

- أكنتِ تعلمين؟!

- بل كنتُ أشعر، أشعر بها، بأنفاسها وهو يتحدث إليها في اليوم كل دقيقة وكل ثانية. أشعر برقصة قلبها على إيقاع كلمات تغزله بها.

- هل وَاجَهْتِهِ بالأمر؟

- فعلتُ وأحتقر نفسي كلما تذكرت أني فعلتُ.

وصمتت هائمة بين أروقة الذكريات ولم تُفصح لها عن سبب شعورها بالاحتقار؛ فقد كانت في كل مواجهاتها له يُسقط كبرياءها صريعًا من فوق ظهر جواد حبها، كانت في كل مرة تعود منهزمة أمام جيوش كذبه الجرارة، فربتت ريم علي ظهرها برفق

قائلة بأن الابتعاد شفاء من قُربٍ مزمنٍ بلا شعور، فغيرت أحلام مجرى الحديث مُتكلفة الفكاهة عابثة بهدية ريم بين أصابعها:

- لقد أعجبني أحمر الشفاه هذا، جذاب.

فلثمت وجنتها فنظرت إليها أحلام بعين منكسرة:

- ريم، أحِبيه بين بين فالفراق ينتقي الأحبة.

- مصطفى هو مَن انتقى الفراق، الفراق لم يَنْتَقِه، والألم الذي سَلَّمَكِ له يدًا ليد هو أكبر دليل على أنه لا يُحبكِ.

ورققت لهجتها:

- حبيبتي أحلام أعرفُ أن مَن يُسعد الروح اليوم قد يكون سببًا في نزيفها المُميت غدًا، ولكن إن جَبُنَّا ولم نُحِبَّ فَلَنْ نُحِبَّ أبدًا وأنتِ ستجدين يومًا مَن يُقَدِّر حُبكِ وصفاء هذا القلب.

ونظرت مباشرة في عينيها المتورمتين:

- أحبي رجُلًا أولاً ثم دعي القدر يقول كلمته، ولا تناضلي من أجل مَن ترككِ ورحل فمعركتكِ خاسرة، فإذا كنتِ تنتظرين أن يعود، لن يعود، فمتغير المشاعر لا يتوب، اقطعي شجرة التمني واحتسي فوقها كوبًا من عصير الفاكهة لا قهوة سادة فأمره لا يستدعي ذلك.

غادرتها ريم ولم يغادرها الألم وتردد في الغرفة الباردة صدى الأفكار والذكريات من جديد، ألم مواجهته بوجود امرأة أخرى في حياته سَرى في جسدها كأنه كان منذ لحظة:

- إن في الأمر امرأة أخرى!

فأرسل إليها كتابيًّا ضحكاته المعهودة:

- لا تَجنحي بخيالكِ فما من وجود لها.

- تصرفاتكَ لا تقول ذلك.

- عندما يوجد إحداهن في حياتي سأُعلم كل الناس.

- وأنا! كنتُ لا أستحق إلا أن أكون في الخفاء.

- أنتِ مَن تصرين.

- وماذا كنتُ أنا؟!

فتباطأ في الرد غير مكترث، وهي في أمس الحاجة إلى الإجابة وأخيرًا:

- أعدكِ بأن أخبركِ بها عندما توجد.

- بهذه البساطة.

- أنتِ مَن تتخيلين أشياء ليس لها وجود.

- وأنتَ لا تقول الحقيقة.

- لا تنسِ أن تحكي لصديقاتكِ عن مصطفى الخائن.

فأربد وجهها ولم تُجبه، كانت تود أن تقول له صارخة: «إنكَ أقل من أن تكون سرًّا في حياتي ومُتناهي الضآلة من أن تكون في العلن»، لكنها لم تكن لتجرحه، لا تعرف لماذا أتى على ذكر الصديقات وهو الذي يعرف أنها غير ثرثارة وما من صديقات لها غير ريم، أدركت بَعد فوات الوقت أن معرفة الإنسان من الداخل تستوجب المواقف وبعض الوقت لأنها دائمًا تأتي مُتأخرة لَمن تَعَذَّرَ عليه قراءتها من البداية، فسخرت بَعدما تذكرت ذلك مخاطبة المجهول همسًا: «كنتُ أعرف أنكَ كاذب، كنتُ أعرف. فقد تتحمل المرأة ممَن تُحب تقلبات مواسم حبه لها، قد تتغاضى عن أي شيء عدا قبض حدسها على رائحة امرأة أخرى في حياته»!

نهضت جاهدة ووقفت في النافذة رافعة رأسها إلى السماء تشكو وأجهشت بالبكاء فالسماء تتسع لآهات الموجوعين أمثالها ثم أغلقت النافذة عليها ثانيًا، فليس بالضرورة أن يكون الموت البطيء سببه مرض عضوي ينتشر في الجسد على مَهَلٍ، فهناك أيضًا أشخاص تنتشر في الجسد على مهل، وهناك تأثير أفعال ينتشر في الجسد على مهل، فكان انتشار مصطفى وأفعاله في جسدها.

●●●

وقعت هيلين مغشيًّا عليها في غرفة المعيشة عقب مشاهدتها الصادمة لما بثته نشرة الأخبار عن نبأ ذبح حبيبها باتريك على يد جماعة داعش الإرهابية بَعد أَسَرهم له، وصَحِبَ هذا النَّبَأَ عَرْضٌ لمقطع مُسَجَّل لتلك اللحظة الدامية ولم ينقطع خلال ذلك صوت نيرة التي هاتفتها لتجعلها ترى ما رأته على شاشة التلفاز، حتى شريكتها في السكن لم تهتم بإغلاق الهاتف أو الرد بقدر اهتمامها بإفاقتها.

وفي التوقيت ذاته كفت والدة مارتينا عن تنسيقها لوسائد الأريكة واعتدلت في وقفتها عند سماعها خبر الاعتداء على قافلة الإغاثة من التلفاز وإعلان اختفاء ابنتها بَعد استهداف المستشفى الميداني، فاستدارت إليه واقتربت من شاشته أكثر للتأكد، فبلغت صرخاتها عنان السماء، فقد أفهمتهم مارتينا قبل سفرها أن وجهة القافلة مخيمات اللاجئين على حدود تركيا وستقوم بَعدها والطاقم بجولة لزيارة معالم تركيا السياحية، أسعفها التفكير أن تتصل بها لكنها تذكرت أنها نسيت هاتفها أسفل غطاء فراشها، وأنها أتصلت بهم من رقم غريب تتأسف على نسيانه، وأضافت كذبة أخرى إلى كُتيب كذباتها، وحينها ما تشككت الأم في كلامها لأنها كانت تنسى كثيرًا أشياءها في أي مكان لكنها كأم لم تَطمئن وقتها وغضبت وتَوعدتها بأنها ستعاملها بَعد ذلك كأم شرقية

كما يجب حتى إن كانت في هذه السن؛ فقد أساءت إلى الحرية الممنوحة لها، تراجعت إلى الخلف ولم تَسْتَغِثْ بَعد أن نزل عليها هذا الخبر الكارثي، فقد كان زوجها في هذا الحين يُجْرِي عملية دقيقة لأحد المرضى، فقد أخبرها بذلك قبل مغادرته المنزل، أما ابنتها سلفيا فهي في كوكبها الوردي العائم في بحرٍ من الموسيقى.

لم تصمد ساقيها أكثر من ذلك، فجلست وقد تحجرت الدموع في عينيها ثم صارت مطرًا وبرقًا ورعدًا، أرادت تكذيب الخبر لكن اسم ابنتها على الشاشة في قائمة المفقودين، وباتريك الذي حدثتها عنه سابقًا ها هو ذا مذبوح الرأس، مشهد تقشعر له الإنسانية فتردد في داخلها أن الدم المُراق صار اعتياديًّا، القهر صار اعتياديًّا، الذل، النخاسة، العبودية، اغتصاب الميت قبل الحي، اغتصاب الأوطان، أكل لحم الأخ صار أيضًا أمرًا عاديًا، فما من خطيئة إلا وحدثت في هذا الزمن الغريب، زمن أصبحت فيه قطرة دم الإنسان أشهى من مُكعب سكر!

وتذكرت عبارة مارتينا لها أثناء حديثهما الأخير: «الزمن يدور بنا في متاهات، وإنسانيتنا من أسفل جلدنا تنساب يا أمي»، فازداد بكاؤها.

كان جُرْمُ باتريك الوحيد أنه ما يزال إنسانًا، وأسوأ ما فعلته يداه أنه سَجَّلَ بعدسته مهازل البشرية في حين أن خفافيش الدم

تُبْغِض مَن يفضحها، تتخلص من كل مَن يُوَثِّقُونَ فظائعهم في حال وقوعهم بين براثنهم فتخلصت منه، لم يكن لحظة الذبح ينظر إلى عدسة قاتليه، بل كان يرنو إلى ما وراء ذلك، إلى ما هو أعمق من ذلك، كان يرنو إلى عين هيلين، حُبه الذي كاد يقترب منه بنهاية سعيدة فابتعد عنه للأبد بنهاية مؤلمة، فشعرت هيلين بتلك النظرة، عرفت طريقها إلى القلب، فهمت لُغتها، سمعت من خلالها صوته وهو يُذكرها بآخر يوم التقاها فيه قبل سفره إلى حيث يودعها الآن، وكم كانت مُحقة بإلحاحها عليه بأن لا يذهب لكنه غير نادم قائلًا لها بعينيه: «حبيبتي هيلين هناك طرق في الحياة يجب ألا نندم أبدًا أننا سلكناها»، وأخبرها أيضًا بأن ألم حرمانه منها يفوق ألم قطع عنقه الذي سيشعر به بَعد دقائق من ذلك السيف، وتركَ قُبلة طويلة على غشاء قلبها قائلًا: «أُحبكِ» ودعاها إلى أن تسامحه فعليه الآن أن يرحل، فلم تتحمل وتداعت، غابت عن الوعي واحتُجزت في غرفة العناية المركزة، واعتقد الأطباء أنها غيبوبة، إلا إن روحها في الحقيقة رفضت الرجوع إلى الواقع. كانت ممتزجة بروحه لا تريد أن تتركه وعاتبته لأنه لم يمتثل لرجائها بعدم الذهاب ولدموعها بأن يبقى، والآن رحل بلا عودة فكيف لها أن تعود إلى الحياة دونه! كانت نُزهتها في ربوع الحُب قصيرة والحزن الذي في انتظارها طويل، إن حدث وعادت.

كانـت مارتينـا تقاسـم باتريـك الجـرم نفسـه، أمـا عـن العالـم فقـد اسـتنكر جـزء منـه الحـدث ببعـض الكلمـات وبعـض الألـم المؤقـت ومواصلـة الحيـاة بمزيـدٍ مـن الضحايـا الجديـدة.

●●●

صباح الجمعة

صوت تكبيرات إرهابي داعش أثناء ذبحهم باتريك والموسيقى التصويرية المصاحبة للحدث تَسبب بخروج عهد من غرفة نومها منزعجة وتَهفهف ثوب النوم الطويل الذي ترتديه من خطواتها الحثيثة حتى كادت تتعثر في سجادة الممر، ووجدت في النهاية زيدان جالسًا في خمول يدخن سيجارته الفاخرة أمام التلفاز، فقد كان يلجأ إلى التدخين عندما يقع على عاتقه ضغوط شديدة بالعمل وتجعله أيضًا لا يستطيع النوم، فمالت بجذعها على الطاولة الواطئة التي بجانبه وأمسكت بجهاز التحكم عن بُعد وأطفأت الشاشة بعصبية دون أن تُدقق النظر بها واستدارت إليه باقتضاب:

- أليس ما نحن فيه كافيًا!

كان قلبها المُثْقل بالفَقْد لا يجعلها تقوى على رؤية مثل هذه الدموية أو تسمع عنها، وفي غفلة من زيدان نسي ذلك فنهض من فوق الأريكة لامسًا ذقنها بحنو:

- اهدئي يا عهد، اهدئي.

فتنهدت بقوة:

- وجعي على ابني لم يدع مساحة لأوجاع أخرى، استهلكني الوجع!

عاد وجلس قائلًا بهدوء بعدما نفث دخان سيجارته:

- لا بد أن تعتادي.

وباندهاش: على ماذا؟!

- على غياب عبد الرحمن.

فجثت أمامه مصفرة الوجه واضعة يديها المرتعشتين على ركبتيه وقد لاحت الشرارة الأولى لجموح جنونها:

- لماذا تقول ذلك؟ هل علمتَ شيئًا؟ هل حدث لعبد الرحمن مكروه؟ هل...

فقاطعها: لا، لم أعرف شيئًا، انْسَيْ ما قُلته لكِ.

- لكنكَ قُلْته للتو.

- ضغط العمل أحيانًا ما يُفْقِدني صوابي.

فقامت متكئة على أقرب مقعد إليها واندلعت حرائقها:

- أنا التي لا أعرفُ.

- ما الذي لا تعرفينه؟

- لا أعرف لِمَ نحن معًا إلى الآن؟!

- ماذا تقصدين؟

فتأججت كلماتها أكثر:

- أظن أنه آن الأوان لكي أعيش دونكَ يا زيدان.

ففار دمه كما القهوة وهب واقفًا كالملدوغ وقذف بسيجارته المشتعلة على المنفضة فسقطت بالقرب منها على الطاولة صائحًا:

- ما هذا الذي تقولينه؟ هل أنتِ واعية بما تقولين؟!

وكمُهرة مقهورة حرروها من اللجام أسرعت إلى غرفة النوم وصفقت الباب خلفها بشدة في وجه ثورته، فزاد ذلك من غضبه:

- أنا الذي لم أعد أطيق هذه الحياة، لم أعد أطيقها، أسمعتِ.

كاد قلبها يقف من تأثير كلماته التي لا ينتقيها في كثيرٍ من الأحيان، فارتكن جسدها المترنح على الباب تلتقط أنفاسها بمشقة ثم تقدمت ببطء نحو الشرفة جالسة على كرسيها دقائق ولمحته بالأسفل من بين سياج سور الشرفة وهو يبتعد بسيارته فتحدثت كأنها تُرسل إليه رسالتها هذه مع الرياح:

- أتعرف يا زيدان لقد حاولتُ كثيرًا أن أجعلكَ تشعر بأنكَ على وشك خسارتي ولم تُقدر مُحاولاتي المستميتة، الآن لي الحق في احتقاركَ والقيادة ستكون لعقلي في الخطوة القادمة.

●●●

كانت مارتينا في خشوع تام للأفكار التي تدور في رأسها حتى إنها لم تشعر بالفتاة ذات الخامسة عشر التي قامت من جوارها بسُترة مزركشة متسخة، تمزق كمها الأيسر مُتَهدلًا من أعلى كتفها مُظهرًا لحمًا بضًّا به بعض الخدوش العميقة التي ما تزال مفتوحة، لم تتناسب بهجة سُتْرتِها مع بؤس الواقع، ولم يكن بإمكانها أن تشعر بالبهجة وهي بين ثنايا العاصفة. اقتربت الفتاة من الحائط وخبطت رأسها به بشدة عدة مرات متتالية والأعين اليائسة تُصَوَّب نحوها دون حراكٍ، فغادرت مارتينا محراب التفكير ونهضت من منتصف الغرفة ولحقت بها أخرى ذات طول فارع وعينين نجلاوين في محاولة للوصول إلى الفتاة ومَرَّتَا بصعوبةٍ بين النساء المُكدسات فوق بلاط غرفة الاحتجاز صغيرة المساحة بالمقارنة لعددهن الذي تعدى الخمسين امرأة، واستطاعتا السيطرة عليها وأجلساها بَعد أن قاومتهما صارخة: «دَعوني أموت، دعوني»، وهمهمت بكلام غير مفهوم فهدأت مارتينا من روعها وإن كانت هي أكثر مَن يحتاج إلى مَن يُوقِف دمارها الداخلي، وكشفت شريكتها في الإمساك بالفتاة عن قميصها التحتي المصنوع من القطن الخالص وقطعت بفكها القوي شريطًا عريضًا منه ولفته على جُرح رأس الفتاة عدة لفات وأنهتها بعقدة، وأراحت مارتينا رأسها على فخذها ولملمت آثار الدم عن وجهها فبدا لها النمش المزدان به، ولكن سرعان ما أطبقت الفتاة عينيها وبدأ جسدها في الارتجاف.

وبصوت خائر سألت مارتينا شريكتها في إنقاذ الفتاة من الانتحار إن كانت على سابق معرفة بها فأجابت منهكة:

- نعم، لقد اقتادنا جرذان داعش الملاعين من العراق إلى هنا مُوثقين بالأغلال مع الكثير من النساء والأطفال، هي من الموصل من منطقة جبال سنجار وأنا من تلعفر.

وواصلت:

- ما زلتُ لا أصدق ما حدث، أنا الآن في قبضة أقذر مَن يمشي على الأرض!

شعرت مارتينا بازدياد ارتجاف المصابة قائلة:

- كيف التصرف؟ إنها تحتاج إلى غطاء وشُرب بعض الماء يا... ما اسمكِ؟

- اسمي الزهراء والفتاة تُدعى جليلة وهي يزيدية لكن أنا مسلمة شيعية المذهب.

- وأنا مارتينا فقط، فلا بد أن تذوب كل الفوارق الآن، وليتها تذوب إلى الأبد!

- ماذا لو تركناها تموت ونحاول أن نفعل ما فعَلتْه فالموت أهون مما ينتظرنا في الساعات القادمة.

فانهارتا، وبَعد تفكير نهضت الزهراء ونزعت عدة أوشحة عن بعض النساء ودثرت بهم جليلة فلم يعترضن؛ فمنذ وقوعهن في الأسر وهن لا يجرؤن أن يعترضن على شيء. حاولت مارتينا أن تتذكر اللحظات الأخيرة التي سبقت الإلقاء بها أمس وسط الظلمة في هذه الزنزانة القميئة الرطبة بَعد أن نُقلت إلى عدة أماكن احتجاز، الصورة غير واضحةٍ أو غير مكتملة في ذهنها، كل ما تتذكره صوت تفجير قوي، واشتباكات خارج المستشفى الميداني، وطلقات رصاص متعاقبة، ومُسُوخ تَقْتُل مَن يُقابلها وتأسر النساء، تتذكر جيدًا ذلك المسخ الذي كان يخفي ملامح وجهه تحت قناع أسود لا يُظهر إلا عينيه اللتين نظر إليها بهما بغِل كأنها أكلت كبد أمه وأبيه نَيِّئةً وتلقت منه ضربة أفقدتها وعيها.

تأملت تلك الزنزانة التي اتضحت لها معالمها عندما دخل عليهن قبل قليل بعض من نور الشمس من خلال نافذة صغيرة عالية مُؤمنة بأسياخ حديدية، فالجدران قديمة فوقها وعلى الأرضية دماء كنقش حزين ونُتَف متفسخة لجلد ولحم بشري مما يُستدل منه على أنه جرى بها العديد من عمليات التعذيب والقتل؛ لذلك كُنَّ يسمعن طوال الليل صرخات وحامت حولهن أطياف زادت من تعميق شعورهن جميعًا بالرعب، تفحصت النساء اللواتي كُنَّ يجلسن في تلاصق ووجوههن لا يتبين تفاصيلها على

وجه الدقة من كثرة البكاء والوَجل، والفتاة التي تعتزلهن بزاوية وتحتضن نفسها بقوة بضمها ركبتيها إلى صدرها وتهتز هزاتٍ عنيفة من وقتٍ إلى آخر. شُغلت مارتينا هُنَيْهَة بردود أفعالهن المتنوعة؛ قضم للأظافر، وشد بعض خُصلات الشعر، وعبث لا شعوري ببثور الوجه إلى أن تنزف منها الدماء، وأعين مفتوحة على آخرها متصلبة على شيء ما بالفراغ، وأعين زائغة ما بين الكابوس والواقع تُحاول إدراك في أيهما هي الآن، وفي نهاية تفحصها لهن لم تجد من بينهن مَنْ تعرفها.

رفعت الزهراء رأسها إلى النافذة مُنْصتة لصوت القصف القادم من بعيد فأغمضت عينيها في حالة من التواصل الروحي مع اللّه داعية أن ينتهي عذابها القادم قبل أن يبدأ بقذيفة، لم تكن حداثة سنها بعائق بينها وبين أن تتحلى ببعض الشجاعة فسارت باتجاه باب الزنزانة وكل الأعين تتوسل إليها بأن لا تقوم بإيقاظ الشر الآن فَلْيُؤَجَّلْ قليلًا فهو على كل حَالٍ آتٍ، لكنها قررت أن تطلب مياهًا لجليلة، فالتصق النساء ببعضهن أكثر حتى اتسعت رُقعة المساحة الخاوية من الأرضية، فخف الخوف قلبها وارْتَدَّت إلى الخلف عندما سمعت صوت أقدام تقترب من الباب، صوت إدارة المفتاح في القفل جعلها تهرع إلى مكانها وتلتصق بالبقية فما لاقته من عذاب على يد رجال داعش في الطريق إلى أن وصلت

إلى هنا لم يَخْبُ من بالها بَعد، فهربت دماؤهن جميعًا وصارت هيئتهن كجثامين باردة في ثلاجة الموتى. فُتح الباب ببطء ووقفت حيالهن السجانة، امرأة بارتفاع الباب وعرضه، لم يَنْجَلِ لهن من إسدالها الأسود وغطاء وجهها الأسود غير عينيها وصوتها الذي يشبه بوق السيارات، وبصوت غير مسموعٍ رددت شَفَتَا الزهراء الزرقاوان وهي ترتجف:

- البشعة.

تقدمت السجانة المعروفة باسم أم الأشرف عدة خطوات إلى الداخل ولوحت في وجوههن بالهراوة، وضربت بها الحائط عدة مرات بقوة وصاحت بهن:

- ما هذه الجلبة التي تحدثونها!

وتداخل مع صياحها بهن لُكْنة أجنبية لامرأة وقفت أمامها حاملة بندقية آلية بيد وباليد الأخرى جهاز لا سلكي، مظهرها نسخة طبق الأصل منها لكنها أعلى مرتبة فهي القائدة وقبل أن تتصرف كالت لهن بعض الكلمات النابية بلُغَتها الفرنسية التي لا يعرفها الكثير منهن، واخترقتهن أم الأشرف تركل كل مَن في طريقها منهن للوصول إلى جليلة، ولا بأس كذلك إن سحقت بقدمها يدًا أو قدمًا أو حتى مرت على رقبة، وبيد غاشمة أمسكت شعر

جليلة وسألت بغلظة عما حدث لها، فأخبرتها الزهراء بشيء من الخوف بأنها سقطت مغشيًّا عليها فارتطم رأسها بالبلاط، فنظرت إلى أثر الدماء الحديث على الحائط ولم يتقبل عقلها تلك الرواية لكنها لم تجادل:

- فَلْتَمُتْ تلك الحثالة، ما الحاجة إليها!

وبَعد تردد سألتها الزهراء ماءً لجليلة، فرفعت غطاء وجهها قليلًا وبصقت عليها وكانت هذه إجابتها، وقبل أن تمضي إلى الخارج ركلت الدلو الصفيح الموجود بجانب الباب الذي يقضين فيه حاجتهن لتصير الزنزانة بَعد هذه الركلة أكثر تقَزُّزًا من رائحة البول والغائط.

لم تنبس مارتينا بكلمة أو تَأَوُّهٍ خلال ذلك كأنها خُلقت بلا حنجرة، كأنها صخرة بجبل لكنها، سرعان ما مالت برأسها إلى الوراء منفصلة عن أرض الواقع ورأت أمها قبالتها تُعَنِّفُها لما فعلته بنفسها وبهم وعادت وانتبهت لزمجرة الباب فانقبض قلبها وقلوبهن ثانيًا، فقذفت أم الأشرف بزجاجة ماء صغيرة وبعض الخبز على الأرضية وبصوت يشبه زمجرة باب الزنزانة قالت:

- فَلْيَهْرِي أبدانكن جميعًا.

وأغلقت الباب وراءها، فلم تتهافت الأسيرات على أرغفة الخبز الناشف بما عليه من عفن أخضر الذي تعف البهائم من أن تأكله على الرغم من عدم تناولهن للطعام منذ مدة طويلة حتى الماء لم يتقاتلن عليه.

استرقت الزهراء السمع لصوت الطائرات الحربية الآتي من بعيد، فاتجهت إلى النافذة تدعوها بصوت عالٍ إلى دك المكان وازداد صوتها علوًّا فتعلقت بها الأنظار وجلًا، وجذبتها مجموعة من النساء من ثيابها ووثبت عليها إحداهن ولطمتها مرتين لكي يصمت لسانها المتسرع هذا ولا يستدعي لهن السجانة من حُفرتها مُجَددًا فتنهال عليهن ضربًا بالهراوة أو جَلْدًا بالسوط، ثم أخذنها في أحضانهن يخنقهن بحباله السميكة الألمُ وتحرقهن الدموع، وبَعدما هدأت رجعت إلى موقعها بجوار مارتينا وقطرت بعض الماء في فم جليلة المغمضة العينين على غير نوم، نهضت جليلة وزحفت على أربعتها ببطء قاصدة الحائط وعندما بَلَغَته قربت شفتيها إليه هامسة بصوت متهدج: «أمي، أمي» وضربته برأسها ضربة خفيفة وتمنت لو أنها تملك قوة خارقة كما أبطال أفلام الخيال الأمريكية فتُحْدث ثغرة كبيرة به تستطيع أن تصل من خلالها إلى أمها التي أبعدوها عنها بالزنزانة المجاورة. لم تجد فائدة من ندائها الضعيف كما النداءات السابقة فأسندت رأسها إلى الحائط الذي يبعث برودة وبلادة إنسانية وانتحبت:

- سيدو، إفرام، أمي!

إلى أن انفتح جرحها من جديد وعاد ينزف في خطوط متعرجة فوق وجهها الطفولي إلى أن لطخ مرة أخرى سترتها المزركشة، لم يَغِبْ عنها للحظة صورة أخويها الكبيرين سيدو وإفرام وهما يُقْتَلاَن نُصْبَ عينيها وعين أمها، فعندما سمعوا عن قرب جماعة داعش الإرهابية من قريتهم جمعوا ما استطاعوا من أغراض، لكنهم لم ينجحوا في الفرار، واقتحم رجال داعش عليهم المنزل، ذلك المنزل الذي كد أخواها ليظل قائم الأركان بَعد موت الأب وهم صغار، علق بذاكرتها صراخ أخيها إفرام والتذلل بأن يقتلوه رميًا بالرصاص لا نحرًا وهذا دعاها إلى أن تسأل نفسها في تلك الزنزانة متعجبة: «منذ متى والصياد يُجري حوارًا مع فريسته بأي الطرق تودين الموت على يدي!»، أما أخوها سيدو فكان يبدو في ثبات متناهٍ، لكنه يموت ألف مرة من الداخل، فقد توصل حينئذ إلى أن الموت مصيره سواء تذلل أو ضرب الصياد بقبضة يده فليفارق الحياة إذًا ورأسه يعانق السماء.

لم يختلف ما حدث مع الزهراء عما حدث لها، فالبربرية واحدة وقمع الآدمية واحد؛ فقد استولت جماعة داعش على المدينة التي تقيم بها الزهراء، دمروا المساجد، والمكتبات، والقلعة التاريخية، واحتلوا منازل ونسفوا أخرى، وقتلوا، وسرقوا...،

وتَعَقَّبَ أحدهم فتنتها إلى مسكن عائلتها ورمى ببعض الدولارات أرضًا أمام والدها القعيد بالغ الكبر بدعوى أنها مهرها فلم يقبل ولكن مَن خَيَّرَهُ بين القبول والرفض؟! وأصبحت في لحظة تحت الأسر ولَقِيَ بَعد ذلك الذي أسرها حتفه في إحدى الهجمات، أما والدها فما علمت أَقُتِلَ أم حدثت المعجزة.

سويعات قليلة ودخل عليهن الليل، عَرق مُتَقَصِّد وقلوب مُعلقة بالإله يُحدثونه، كُلٌّ وطريقتها حتى بزوغ الفجر، فالمحنة جعلتهن يُقْبِلن عليه كحال أي عابد في محنة حتى إن كان غارقًا في المعاصي، فبمجرد مناجاته لربه وتفريغ ما يجيش في الصدر له يجعله يشعر بأن فصام العقدة بات وشيكًا وإن لم يكن وشيكًا، ومنهن من قضينه في البكاء والصرخات المكتومة والهمس غير المفهوم وقضته مارتينا في استنكار ذلك الجانب المظلم من شخصيتها الذي اتضح لها بين هذه الجدران، الجانب الرخو المستكين الذي أخرس لسانها. لم تشعر خلال حياتها الماضية بأنها ضعيفة لأنها أنثى أو أنها لم تقابل مَن قهر فيها كونها أنثى. تضمنت معتقداتها القديمة أن الأنثى مخلوق ضعيف أمام مَن تُحب فقط، آمنت بأن القوة الحقيقية مصدرها العقل لا سلاح في يد وقسوة في قلب، هكذا رأت نفسها، وعلى نقيض ذلك رأت نساء داعش.

نظـرت إلـى القمـر الـذي جـاء ليُلْقـي التحيـة علـى النفـوس المعذبـة فلـم تكـن تـدرك قبـل هـذه اللحظـة نعمـة ملامسـة الطبيعـة لهـا: ضـوء القمـر، وسـخونة أشـعة الشـمس، وتَخَلُّل الهـواء لخصـلات شـعرها مداعبًـا، والآن أدركـت أن في الوجـود أشـياء كبيـرة في حـد ذاتهـا والاعتيـاد وحـده مَـن يجعلهـا تبـدو في العـين صغيـرة، علـى غيـر مـا هـي عليـه لكـن عندمـا ينقطـع بطريقـة مـا ذلـك الاعتيـاد يبـدأ التفكيـر فيهـا بشـكل آخـر أو إدراك أهميتهـا.

●●●

حمل مصطفى الأطباق الفارغة من فوق الطاولة وأخذ ينَظَّفَ مفرشها من بقايا الطعام فأستبد به الشعور بالإهانة، كان دائمًا يأتيه هذا الشعور وهو ينظف طاولات المقاهي التي عمل بها فيما مضى، لم يختلف الوضع معه كثيرًا الآن، من مقهى لقاعة طعام بفندق ذي ثلاث نجوم في وسط القاهرة التي أحب مكوثه فيها عن القرية لكنه لم يحب عمله بكليهما، ذهب به الشعور إلى أنه لم يصل إلى أي شيء في حياته؛ فهو هنا لا شيء وفي القرية أيضًا لا شيء، كان أبعد من أن ينظر إلى داخله فقد يكون العيب من الداخل. مرت بجانبه امرأة متهادية الخطوات بزي قصير غامق اللون، ولكي تجعله ينتبه لوجودها نقرت بأطراف أصابعها على الطاولة التي يُخليها من آثار الزبائن المغادرين، وعندما نظر إليها غمزت له بإحدى عينيها المكحلتين باسمة فجادت شفتاه عليها بنصف ابتسامة. كانت هذه المرأة المتجاهلة للتقاليد صاحبة الفضل عليه فبَعد أن توطدت علاقتها به عن طريق الإنترنت رشحته لرئيسها في العمل لشغل وظيفة نادل، أما عن علاقتهما فغير شائنة لكنها بلا اسم، فالعلاقات عديمة الاسم مريحة دائمًا؛ فظلالها لا تلقي على الرجال أي عبء.

حان موعد انصرافه فتوجه إلى مسكنه وتذكر أخته ديجا وهي تصف غرفته التي يشاركه فيها أخوه حبيب الله بأنها

حظيـرة، فابتسـم ابتسـامة عريضـة؛ فلـو رأت الغرفـة التـي يسـكن فيهـا الآن أعلـى سـطح عمـارة ويقاسـمه إيجارهـا أحـد أبنـاء الصعيـد المغتربـين لكانـت عرفـت كيـف تكـون الحظائـر «مـا هـذا البـؤس؟» قالهـا لنفسـه فقـرر أن ينسـى هـذا كلـه ويضحـك، نعـم، سـيضحكَ هكـذا هـو، لا يسـتقر علـى حـالٍ، وهـذا مـا جعـل أحـلام تظنـه في بعـض الأحيـان مجنونًـا، لكـن الحقيقـة المؤكـدة البعيـدة عـن الظـن أن عواطفـه لهـا سـقف، محـدودة، أقـل مـن أن تسـتوعب حجـم حبهـا الكبيـر، وعلـى الجانـب الآخـر وقـف خيالهـا الخصـب كمُحبـة عقبـة أمـام تصديـق الخيبـة التـي جاءتهـا مـن وراء حبـه.

أجـرى اتصـالًا بأختـه ليطمئـن علـى العائلـة كعادتـه فأخبرتـه بـأن أخـاه حبيـب متذمـر ويحطـم الكثيـر مـن الأشـياء حتـى إنـه خـرج مـن البيـت في غفلـة منهـم قُبيـل عصـر اليـوم محـاولًا ركـوب المعديـة فسـأله قائدهـا: «إلـى أيـن أنـتَ ذاهـب؟» فقـال: مصطفـى، فاصطحبـه أحـد الأهالـي إلـى الحـاج يوسـف الـذي كان جالسًـا في ذلـك الوقـت علـى مقهـى الصيادين، فعـاد مصطفـى إلـى القريـة في إجـازة مدتهـا يومـان ليـرى ذلـك المتذمـر مـن غيابـه ويواجـه غضـب والـده لمخالفتـه لـه وسـفره إلـى القاهـرة. سـار في اتجـاه البيـت ولـم ينعشـه هـواء القريـة؛ أسـبب ذلـك تكويـن الهـواء المشـوب بهمـوم أهلهـا أم شـيء مـا في صـدره هـو؟ قابلتـه في الطريـق عربـة يجرهـا حمـار

بإرشاد سائقها الجالس على مقدمتها وإلى جواره طفل صغير رث الثياب، له أذن بارزة وبعيدة عن الرأس وأنف أقنى يسيل منه المخاط، وخلفه بقليل حزمتين ذابلتين من البرسيم، فلمح مصطفى شيئًا ما بين يدي ذلك الصغير فحدق إليه أكثر قائلًا: «ما هذا؟؟ أيُعقل!» فاستوقف سائق العربة، واتضح له الشيب الناشب في مفرقيه فاستفهم منه بهدوء عن كيفية وصول مذياع عم بيومي إليه فاستغرب الرجل عند سماعه الاسم وصده فليس من شأنه من أين أتى بهذا الشيء، فخطف مصطفى الجهاز غير حافلٍ ببكاء الصغير وقلب فيه فتبين له أكثر أنه هو، ففيه رائحة عم بيومي ورائحة الشقاء. أنهى السائق الموقف لم يُردِّ جلب الوجع إلى رأسه فأخبره بأنه اشترى هذه الخردة من شخص ما بالمقهى، فأعطاه مصطفى ما دفعه من جنيهات فأخذها، فقد كان حكيمًا مُتَّبِعًا مبدأ؛ إذا جاءتكَ المشكلات لاهثةً دعها تمر دون أن تُعيرها اهتمامًا لكي لا تتفاقم، وإذا استطعت أن تنثر فوقها بعض الورد انثر.

غير مصطفى اتجاهه في السير واستقبله في الطريق غبار كثيف ومشهد تبدل بعمال يقفون أعلى أنقاض بيت عم بيومي يأتون على ما بقي منه قائمًا، فأسرع الخطو قائلًا بدهشة:

- ماذا تفعلون؟! أين عم بيومي؟!

فنظر بعضهم إلى بعض وواصلوا الهدم، فصاح بهم أكثر:

- أين عم بيومي؟!

فانتصب أحدهم وهو يمسح العرق عن جبينه:

- أتقصد الرجل الطاعن في السن الذي كان يسكن هنا؟

فهز رأسه بالإيجاب، فرد عليه عامل آخر ممَن يجمعون الردم ويلقون به داخل سيارة نصف نقل:

- لقد مات.

وأردف: هل أنتَ أحد أقاربه؟

فلم يُجِبْهُ وانصرف بجزع شديد في القلب، ولحق به ربيع الذي يعمل على مركب صيد والده الحاج يوسف، فلم ينتبه له أو ربما انتبه ولم يُبَالِ بَعد هذه الصدمة واستدار إلى الخلف مودعًا المكان بنظرة أخرى وتمتم بحزن:

- في حياتنا أماكن تُعد جزءًا منا فقدها يؤلم الروح إلى الأبد وكذلك بعض البشر، مثلكَ يا عجوز.

وبصوت أقرب إلى الهمس قال له ربيع:

- لقد رأيتُ كل شيء؟

فحرك رأسه نحوه: عَم تتحدث؟!

- أعرفُ ما حدث لعم بيومي.

قالها وتلفت حوله قبل أن يفتح فمه راويًا ما شاهده بعينه

بدا عم بيومي كأنه نائم على مرتبته التي تشعر فيها البراغيث بالوئام، ودخل عليه سياسي النادل وبعض الرجال الذين أخذوا يقلبون في محتويات الغرفة كاللصوص حتى إن سياسي تطاول على حُرمة الموت وقَذَفَ بجُثْمَان عم بيومي بعيدًا عن المرتبة ومزق كسوتها وفتش فيها لكنه لم يجد شيئًا، استولى الرجال الذين معه على كل شيء تقريبًا في الغرفة: الثياب، والمذياع، والصينية المنبعجة والطست وبقايا طعام التقطها أحدهم من داخل ورقة وألقاها في فمه، حتى الأقفاص أخذوها، أخذوا أي شيء يمكنهم بيعه ولو بثمن زهيد، وأخرج سياسي عشرة جنيهات من جيب عم بيومي فأصابه الإحباط من حقارة المبلغ ومع ذلك دسه في جيبه، وتابع ربيع روايته غاضبًا بلسان رجل رشيد:

- لو كان لحم عم بيومي يؤكل لأكلوه، لو يوجد مُشترٍ له لباعوه، فالطماعون لا يَتواعَدون مع الرحمة!

- هل رأيتهم وهم يقتلونه؟ فهي غابة وكل شيء منحط ودنيء حدوثه جائز.

فأجابه بأنه كان يختبئ وراء أشجار النخيل يراقبهم منذ اللحظة الأولى ولم يَرَ قيامهم بالقتل، ورجع بروايته إلى مقهى الصيادين حين ذهب إلى هناك لإحضار كوب من الشاي للحاج يوسف، وأثناء ذلك دخل عليهم رجل من أهل القرية حزين الوجه يبلغهم بموت عم بيومي لكي يُغسله أهل الخير وينهوا إجراءات الدفن، وأخبرهم بأنه اكتشف موته قبل قليل عندما مر عليه لشراء بعض الأقفاص فناداه كما كان يفعل دائمًا فلم يرد، فتوجه إلى خلف البناية حيث الغرفة التي ينام فيها فوجد الباب مفتوحًا وعم بيومي فوق فراشه قد فارق الحياة، الوقت كان باكرًا وعدد الجالسين على المقهى قليل، فتحدث سياسي بصوت منخفض إلى بعض الرجال وتحركوا جميعًا مُسرعين فتعقبهم هو دون أن يشعروا به ليرى ما يخططون له.

قطع روايته ونظر بفضول إلى المذياع الذي يحمله مصطفى:

- كيف حصلتَ عليه؟!

فتجاهل سؤاله قائلًا:

- يبدو أنهم كانوا يعتقدون أن هناك جِرَارًا يُكنز فيها العجوز أموالًا لا تُعد ولا تحصى، يا لها حقًّا من غابة يسكنها أغبياء!

- هل له أقارب؟

- له ابن أخت وافته المنية منذ عامين.

وأخبره ربيع عن قيام شخص غير معروف بوضع يده على الأرض التي كانت موطن عم بيومي، فاستنبط مصطفى من مجمل كلامه أنه ما دام ظهر سياسي في المشهد فالشخص غير المعروف هو المَوَّان. حماسة مصطفى وشدة غضبه أعطت ربيع إيحاءً بأنه سيفتك بسياسي، وأنه سيعلقه من رجليه كما المواشي ويضربه حتى الموت، وسيشعل الحرائق في كل القرية؛ فمَن مات هو عم بيومي، لكنه لم يفعل ذلك أو أقل منه وانعطف مع الطريق متوجهًا إلى البيت وتحديدًا إلى غرفته ثم وقف أمام اللوحة التي رسمها لصديقه صانع الأقفاص يتأملها، وجهه الشيء الوحيد المكتمل فيها فتمتم:

- كانت ديجا مُحقة بخصوص لوحاتي الناقصة!

تجنب النظر إلى اللوحة مجددًا وحاول أن يجد سببًا مُقنعًا لترك العجوز بابه مفتوحًا ليلًا، أشعر بدنو أجله ففتحه كل ليلة لكي لا تُنْسَى جثته إلى أن تنبعث منها رائحة الموت الكريهة أم ماذا؟

ونظر إلى المذياع فسمع صوت عم بيومي ونهجان صدره وهو منسجم يدندن مع أغنية من التراث، فضحك وقتذاك وسأله:

- أتُحبَ يا عجوز؟!

- أهنا نبض، إذًا أنا أُحبُ.

وهمس باسمها مشتاقًا: «ست النسا». عزاء مصطفى أن صديقه الآن حيث كان يتوق، هو الآن مع حبيبته فهو بالتأكيد مُنَعَّم. قاطع شروده رسالة هاتفية وصلته فأجْرَى بَعدها اتصالًا بَدَّدَ ذلك المأتم وحَوَّلَهُ إلى إنسان آخر.

●●●

في عصر اليوم، رن هاتف أحلام أسفل الوسادة، ذلك الجُثْمَان الهامد الذي هجرته الحياة بهجرة اشتياق الحبيب وعشقه لسماع صوتها دائمًا، كان المتصل صديقتها ريم فاستلقت على ظهرها فوق الفراش تجتر العذاب ألوانًا ولم ترد لكن الإلحاح جعلها تتراجع:

- أحلام، إنه هنا.

فلم تفكر كثيرًا: أنا آتية.

قرعت باب الغرفة المجاورة واستأذنت أباها في الخروج لشراء دوائه الذي نفد وبعض مستلزمات البيت، ودخلت غرفة ريم مُسرعةً كأنها قطعت المسافة من بيتها إليها ركضًا دونما توقف، أو كأنما قد نما لها جناحان في غمضة عين وجاءت طائرة، لم تَسْتَأْ ريم من حضورها، ولكن استاءت من رغبتها في رؤية مصطفى، وهذا مخالف لما اتفقا عليه في آخر مقابلة بينهما بأن تنسى، فأدركت أنها أخطأت في إخبارها بوجوده في وجود ضعف إرادتها تجاه الشفاء منه ورمقتها ببصرها في دهشة، وجه باهت، ومعطف طويل فوق ملابس غير متناسقة وحجاب غير ملفوف بعناية فحنقت عليها:

- ما بكِ يا أحلام؟! أهذا ما اتفقنا عليه!

ظلت صامتة تنظر من وراء خَصَاصِ النافذة مُدةً طويلة في توتر إلى أن خرج مصطفى من البيت، فهرولت إلى الخارج وتركت ريم وقد انطفأ نور عقلها فبدت كالبلهاء لا تفهم شيئًا، سارت خلفه دون أن يشعر بخطواتها وعندما وصل إلى المكان الذي اعتاد الجلوس فيه قرب الشاطئ ثبتت وراءه وأراقت على ثيابه قنينة العطر التي أهدت إليه مثلها وأحبت عبيرها عليه وباليد الأخرى أوقدت فيه النار بالقداحة، فرمى نفسه في المياه مذعورًا وقبل أن يسألها أي سؤال كانت السكين التي تخبئها تحت المعطف داخل قلبه وأدارتها لتقطع من لحمه أكثر وأكثر، لم يستغرق الأمر طويلًا وسكن جسده، فنظرت إلى دمائه فوق يدها وأخذت تعدو والدموع تحملها الرياح إلى أن قفزت من مضجعها مرتعشة وتأملت يدها من جديد والدموع التي أغرقت وجهها والوسادة فزفرت من أعماقها ورددت بعض الآيات القرآنية لتهدأ:

- إنه كابوس، لا أستطيع أن أفعل به ذلك!

كان وقحًا في الغياب لكنها لن تقتله حتى إن استحق القتل فَيَدُها لا تستحق أن تَقتل. فكرت إن كان هذا الكابوس بفعل الشيطان أم أن عقلها الباطن كان هو الشيطان؟ أهذا ما تتمناه له وخلف البراءة يرقد الوحش؟! لا، لا يمكن أن تكون كذلك ودعت له بالحفظ.

غطت رأسها وفتحت النافذة لتستنشق بعض الهواء وبَعد قليل دقت باب غرفة والدها فجاءها صوته بأنه مُستيقظ، فدخلت وقبلت جبينه وهو مُستَلْقٍ على سريره، وتَفَقَّدَتْ عُلَبَ الدواء فوجدت بعضها أوشك أن ينفد وانزلقت إحداها من يدها عند سماعها رنين هاتفها فدعاها والدها إلى الانتباه، ذهبت إلى غرفتها وألقت نظرة على اسم المتصل فكادت عيناها تسقطان على الشاشة المضيئة فالمتصل ريم، الكابوس! فلم تُجِبْ فأرسلت إليها ريم رسالة «أما زلتِ في طور الكآبة، مصطفى في القرية، أخبركِ فقط لكي لا تُفَاجَئِين به في أي طريق» فابتسمت ابتسامة فاترة وهمست:

- من المفاجآت ما أسعد، ومنها ما قتل.

●●●

في تمام الرابعة عصرًا، وقفت عهد في ردهة طابق محترق المصباح أمام باب شقة تُغطيه أكوام من الأتربة وخيوط عناكب آمنة ومستقرة عليه منذ زمن، ذلك الباب الذي ما استطاعت يومًا عبوره بَعد أن أصبح كل شيء خلفه ذكرى بعيدة، حدقت إليه طويلًا على شعاع الضوء الآتي من الطابق الأسفل وانتابتها أحاسيس مختلفة، وضعت حَقِيبَتَيْ ملابسها على الأرض فسقط مفتاح الباب من يدها وانقبضت كل أحشائها عندما هبطت يد على كتفها اليسرى ثم صوت يقول: عهد، فَأَنَّبَتْ نفسها لأنها لم تسمع صرير الباب المزعج والأقدام الصاعدة على الدرج، لا بد أن يُسَمُّوهَا سيدة الرعب بدلًا من أم يونس، ستقتلها هذه المرأة ذات يوم.

فالتفتت إليها وبلهجة حادة:

- لِمَ لَمْ تُحدثي أي صوت يا أم يونس؟! لقد أخفتني.

فخفضت رأسها خجلًا من ترويعها لها وأحكمت لف الشال الملتحفة به حول منكبيها وأخبرتها بأنها نادتها عدة مرات عندما لمحتها تصعد الدرج لكنها لم تسمعها، لم تكن تسمع غير ذلك النداء الذي يدعوها إلى الاقتراب فإنه في اشتياقٍ إليها، عرف بَعد كل هذه السنين أن يأتي بها، وتعجبت من رغبتها الآنية في دخول شقة عائلتها تلك المغلقة منذ زمن طويل، واقترحت عليها أن تستريح في شقة زيدان إلى أن تستدعي خادمتها نهلة لتنظف الشقة.

لقد تخلصت عهد من نهلة بمنحها أجر شهر على سبيل المكافأة وشكرت لها خدماتها قبل أن تجيء إلى هنا، ولم تَنْسَ أيضًا أن توصي رزق بواب العمارة أن يتصل بها في حال عودة عبد الرحمن، كانت تعلم أنه سيُبلغ زيدان بحديثهما هذا وعن توجهها إلى شقة عائلتها بحي عابدين. التفتت ونظرت إلى الشقة المقابلة؛ شقتها هي وزيدان فمن ذلك الباب وفد إليها الحب والاهتمام، وهجم عليها بَعد ذلك البرود والإهمال، فحولت نظرها بعيدًا رافضة اقتراح أم يونس التي التقطت المفتاح من فوق الأرض ذلك المفتاح الذي لم تكن عهد تتركه في يد أحد من أفراد أسرتها مهما كانت الأسباب، وأزالت بيوت العناكب بيدها، وجعلتها تدخل الشقة بقدمها اليمنى مُرَدِّدَةً بصوت مرتفع عدة أذكار دينية، فسكان المكان من الجن تَعَوَّدُوا سنوات على عدم وجود إنس معهم.

أزالت عهد الأغطية المتسخة بالأتربة عن بعض المقاعد، بينما فتحت أم يونس الشُرفة فبدت الشمس في طريقها إلى المغيب من فوق الحديقة التي تتوسط الميدان ثم أخذت جولة قصيرة في الغُرف باحثة عن جهاز الراديو حتى وجدته، وصدح بجنبات الشقة ترتيل الشيخ عبد الباسط وشعرت بما كانت تريد عهد أن تقوله: «ارحلي يا أم يونس، دعيني وشأني» فاستأذنتها في الانصراف ووعدتها بأنها ستعد لها عشاءً جيدًا وتمر عليها به، فقد كانت في نظرها امرأة وحيدة، إنها مُتزوجة لكنها وحيدة؛ لذا استمرت في الوقوف إلى جانبها.

نَظَّفَتْ عهد الصالة وغرفة نوم فقط، وفي المساء عادت أم يونس وبخرت كل ركن ببخور المسك حتى كتمت صدر عهد ثم تناولا العشاء معًا ورحلت بَعده ومبخرتها النحاسية في هدوء. تنهدت عهد ارتياحًا وتمددت على أريكة الصالة ودعت الذكريات إلى الاستئناس بها على الرغم من أنها كانت ترى أن النبش في الذكريات الحلوة أحيانًا يُفسد على الإنسان تَقَبُّل حاضر ليس له طعم أو رائحة طيبة، لكن النفس تعشق تَذَكُّرَ ما كان يومًا يسعدها، في حين لا تنتظر الذكريات المؤلمة أبدًا دورها وتأتي غازية مُقتحمة. تذكرت والديها وأختها، أرواحهم حولها في كل مكان يُطوقونها، رفعت رأسها من فوق الوسادة نحو ذلك الوجه الصافي الذي أخذ يقترب منها رويدًا رويدًا، هذه هي المرة الأولى التي تراه فيها يبتسم، كانت أختها فدوى صاحبة هذا الوجه الذي لم ينفصل عنها يومًا، كان دائمًا يأتيها قبل مجيئها إلى هنا حزينًا وباكيًا وأحيانًا مُرتاعًا، لم تمكث طويلًا واختفت من أمامها وظهر ما طاردها مرارًا، غرفة العناية المركزة وفدوى مُحاصرة بالأجهزة، والطبيب يحاول إنقاذها لكنه الاحتضار.

استيقظت عهد صباح اليوم التالي ووجدت نفسها مُتدثرة بغطاء فوق ذات الأريكة، لا تتذكر أنها قد جلبت غطاء وقد تكون فعلت وسقط ما قامت به من الذاكرة.

طرقـات خفيفـة علـى البـاب لأم يونـس التـي جاءتهـا بالفطـور فلم تشـأ أن تفتـح لهـا وحدثت نفسـها بأنـه إذا كان البُعـد عـن البشـر والاكتفـاء بالنفـس مرضًـا نفسـيًّا فمرحبًـا بالأمـراض النفسـية، إلا أنهـا تراجعـت بَعـد أن تذكـرت أنـه مـا مـن شـيء في البيـت لتأكلـه.

●●●

أشرقت الشمس فاتضحت أنحاء الزنزانة، وبَعد عشر دقائق تقريبًا، ساور القلق امرأة سورية تُدْعَى بتول تجاه الفتاة التي تعتزلهن في إحدى الزوايا؛ فهي لا يصدر عنها أي حركة، فاقتربت منها ودفعتها دفعة خفيفة بأصابع يدها فمالت الفتاة على جانبها الأيمن، لقد ماتت من شدة الرعب فتنهدت بتول من أعماق صدرها مرتجفة ورفعت كفيها إلى السماء:

- رحماك يا اللّٰه، رحماك، لا إله إلا أنتَ!

فتعالت الصرخات من كل صوب مصحوبة بلطم شديد على الوجوه وضرب على الصدور والأرجل، فأتى ذلك لهن بالسجانة أم الأشرف تلوح بسوطها في الهواء وجَرَّت المتوفاة من شعرها على الأرض كأنما تجَر حيوانًا نافقًا قائلة بخشونة:

- نار جهنم في انتظار الفاجرة.

واستدارت إليهن بعين يتطاير منها صهد جهنم:

- وفي انتظاركن جميعًا. الكلاب الجوعى لديها اليوم وليمة.

فحدجتها مارتينا من خلف ظهرها احتقارًا، ثم خرج صوتها مسموعًا لهن جميعًا باستثناء مَن تقصدها بكلامها فقد غادرت والجثة:

- يا لكِ حقًّا من امرأة بشعة!

فعاجلتها بتول بالرد:

- هكذا هن نساء كتيبة الخنساء، هكذا نساء داعش.

فَصَمَتْنَ جميعهن في حزن وابتعدن عن بتول فمنذ أن زُجَّ بها في تلك الزنزانة وهن ينظرن إليها بريب دائم ومن بينهن مارتينا، يَحْسبنها جاسوسة لأم الأشرف لارتدائها نفس زي نساء داعش فيما عدا ما يكشف عن وجهها، فلم يعلمن قصتها ولم يكن لديهن استعداد نفسي للاستماع إلى قصة أي واحدة منهن، فمَن هنا في انتظار شيءٍ واحد فقط، في انتظار الأسوأ.

حاد بهن الخيال عن طريق الحقيقة فقد كانت بتول وجدها الشيخ الكبير في طريقهما إلى البحث عن مأوى آخر لهما بَعد أن دُمِّرَ جزء كبير من منزل الجد ولم يعد يَصلح للسكن، ذلك المنزل الذي لجأت إليه بَعدما تحول العقار الذي تُقيم به إلى ركامٍ من القصف، وأثناء رحلة البحث تلك وَاتَاهَا ضيق في التنفس فاستظلت بحائط بناية على جانب الطريق ورفعت غطاء وجهها على أعلى رأسها؛ لتسمح لمزيدٍ من الهواء بملأ رئتها، ولتستقبل أيضًا جرعة من بخاخ صدرها السقيم الذي لم يتحمل كمية الأتربة والأدخنة التي تشبع بها عندما تهدمت جدران المنزل،

وقبل أن تأخذ الجرعة انشقت الأرض عن إحدى نساء الحسبة «شرطة داعش» واستوقفتهما بصوت حاد ونظرة أحد بحجة أنها تفتن الرجال في الطريق بعدم التزامها الكامل بالزي الشرعي الذي فرضه التنظيم على تلك المنطقة الواقعة تحت نفوذه وقتئذ في ريف حلب. تقدمت الشرطية نحوها بخيلاء وثبات، واستعدت لاعتقالها دون أن تسمع دفاعها فحاول الجد استعطافها فدققت بزيه الأفغاني الذي فرضه التنظيم أيضًا والمتمثل في جلباب أبيض يصل إلى أسفل الركبة وبنطال قصير وعمامة، وإذا بها تضربه بهراوتها في قلبه لكي يصمت فرجع بجسده الضئيل على أثر ذلك عدة خطوات وسقط على عظام الحوض التي في أغلب الظن قد كُسرت فتوجع وفاض على وجهه الدمع من عين تغطيها سحابة حزنٍ شُخِّصَتْ له طِبِّيًّا في الماضي القريب بمياه بيضاء، لم يُدرك الجد قبل أن يُقدم على استعطافها أن صاحب الضمير الميت والإحساس الميت لن تنعشه صدمة كهربائية من بعض الكلمات، فصرخت بتول:

- جدى!

لم تَأْتِهَا الفرصة لنجدته ومساعدته على النهوض فقد سحبتها الشرطية بمعاونة زميلتها، فواصلت صراخها وقد ازدادت غضبًا:

- يا عدوة اللّٰه، جدي!

وأخذت تسعل بين قبضتهما إلى أن تَشرخ صدرها ولم تتوقف الدموع عن الجريان من عينيها المستديرتين. ما غاب عنها للحظة وهي في هذه الزنزانة حال جدها الآن أو تلك الشُّرطية بفُحْش مفرداتها التي تتنافر مع طُهْر سُتْرَتها.

دقائق ودخلت عليهن أم الأشرف مرة أخرى الزنزانة، ما عادت طلتها تؤذيهن نفسيًّا فكثرة الخوف تُولِّدُ في النهاية صنمًا، وتساءل بعضهن لِمَ لا تخلع غطاء وجهها أمامهن؟ وتخيلن لمراتٍ كيف يبدو وجه امرأة مثلها؟! وجه الشر. جذبت أم الأشرف بقوة فتاة نحيلة من ياقة ردائها وطوحت بها على الجدار كما الريشة، حتى إن عمودها الفقري سُمِع له فرقعة لكن الفتاة لم تتفوه وتألمت في صمت، وجذبتها ثانيًا ووضعت بين يديها عدة نُسخ من وثيقة أمرتها أن توزعها على النساء مضمونها؛ تعليمات لتصبح المرأة زوجة مثالية للمجاهد، وأمسكت بَعدها ذراع بتول بعنف تحثها على النهوض، فأسرعت بوضع يدها على بطنها وصرخت بما ظل لديها من صوت:

- أنا حامل.

كان ما تحمله بين أحشائها هو آخر ما تبقى لها من زوجها الذي مات هو وصغيرهما أسفل رُكام منزلهم، إلا إنها لم تحاول استجداءها فقد كانت تقول دائمًا: «إن محاولة إيقاظ الرحمة في قلب ميت عمل إلهي بحت لا يسند إلى مخُلوق ضعيف لا يملك حتى قَدَرهُ». فقَربت أم الأشرف وجهها المغطى بالسواد إلى وجه بتول الهادئ المُشرب بالحُمرة وحدقت إليه بعينين جاحظتين سوداوين قلَبًا وقالَبًا مشيرة إلى بطنها:

- لن يمنع هذا عنكِ العقاب، شرع اللّه لا بد أن يُنفذ يا سافرة.

فبُهتت من كلمة «شرع اللّه» التي تلفظت بها وفي ذات الوقت تَملكها الغضب من أناس يلحقون جرائمهم باللّه جل شأنه، لم تمهلها أم الأشرف وسحلتها على الفور، فتعلقت بتول بحلق الباب كطفل يتعلق بأمه عندما يجذبه أحد الغُرباء عُنوة، وما كان حلق الباب كحصن الأم ولكن ما من بديل أمامها غير التشبث بجماد من جبروت البشر، فضربتها بظهر البندقية على عُقل أصابع يدها إلى أن أفلتتهم من الحلق، ونهرتها بأن تُغطي وجهها فانتصبت أمامها بتحدٍ كأنها امرأة أخرى غير التي كانت منذ دقائق معدودة وتذكرت لحظة اعتقالها وما كانت تفعله أم الأشرف في ذلك التوقيت قرب نقطة التفتيش، وهمسها بشيءٍ ما إلى الشرطية التي اعتقلتها بَعدها ففهمت المكيدة، وقالت هازئة:

- لقد فهمتُ الآن كل شيء يا فريال.

أثار الاسم خبل أم الأشرف فدفعتها أمامها بعنف.

لاح الغروب في الأفق والتف المارة حول امرأة شبه عارية ومثيرة للرثاء مُلْقاة على الطريق سابحة في بركة من الدماء، فأسرع رجل في سترها بملاءة، واستطاعت إحدى العجائز إفاقتها برش الماء على وجهها والقيام ببعض التدليك لصدرها ثم سألتها بعدما فتحت عينيها قليلًا وانتبهت:

- مَن الذي فعل بكِ ذلك؟

فقالت بتول بخفوت وتهدج:

- عندما تَحمل الذاكرة ماضيًا غير مُشرف لأحدهم، فصاحب تلك الذاكرة في دائرة الخطر دائمًا!

فما أدركت العجوز المقصود، فقد كان عقاب بتول مُضاعفًا، فبَعد أن سلمتها أم الأشرف إلى الجلادة التي لا تَقِل عنها غلظة قلب، نفذت فيها حكم الجَلْد الذي أيًّا كان مَن أصدره، المحكمة الشرعية للتنظيم أو أم الأشرف نفسها، ما تراجعت أو توقفت هنيهة من الوقت أمام صرخاتها: «طفلي، سأفقد طفلي». لم تشعر بتول بالألم الناجم عن جَلْدها بقدر خوفها على جنينها، وتوقفت الجلادة بَعد أن أفقدتها إياه وأفقدتها معه وعيها وأُلقيت بعيدًا خارج السجن.

كانت أم الأشرف المسماة سابقًا بفريال تعيش فيما مضى بنفس الحي الذي يقع فيه بيت عائلة بتول، وعُرِفَ عنها حينذاك سوء السُّمْعة لامتهانها الدعارة، وكثيرًا ما كان يراها الجيران من خلال الشبابيك وهي عائدة في أوقاتٍ متأخرة من الليل بملابس فاضحة وثملة، أحيانًا بمفردها أو بصحبة أحد الرجال، حتى إن نساء الحي تجمعن عليها ذات مرة وضربوها ضربًا مبرحًا أمام منزلها، ومن بين هؤلاء النساء والدة بتول رحمها الله، تصرفن على قدر تفكيرهن الذي لم يصل إلى أن الوعظ والكلمة الطيبة أكثر فاعلية لتقويم اعوجاج الأنفس، يمر الزمن ويذاع في الحي أن فريال تحولت إلى أم الأشرف بَعد مبايعتها للتنظيم فور اعتقالهم لها؛ لتتجنب تطبيق حد الرجم عليها، وطمعًا في الرواتب المرتفعة التي يصرفها التنظيم لأعضائه، مما جعل بتول تسأل نفسها عندما رأتها في ثوبها الجديد: «أين ذهبت الأنوثة التي تكسبت منها هذه المرأة في السابق؟! تبدلت برَجُل من فصيل ديناصور لحمي مُرتديًا سُترة نسائية محتشمة، ربما جاءتها الفرصة للانتقام من نساء عشن بجسد مصون لم تنهشه الرجال الجائعة في الوقت الذي كان جسدها مُتاحًا لمتعتهم على الرغم منها لتأكل أو لتتكسب أسرع أو لنَيْل المتعة الحرام ذاتها، أو أنها تفعل ما تفعله لإرضاء قادتها ليغدقوا عليها الدولارات، ففي كل الأحوال ما تفعله ليس إيمانًا، فالإيمان الحق يُصْلِح النفس لا يُفْسدها،

يسمو بها لا يُدْنيها، ينزع فتيل القسوة لا يزيدها اشتعالًا ومُجونًا، لا عجب في ذلك فإن مَن يسهُل عليها بيع جسدها يسهُل عليها بيع عقلها».

ساعة من عُمْر الزمن وعادت السجانة أم الأشرف أو البشعة أو فريال إلى الزنزانة، وأصدرت أمرها لهن بأن ينتظمن في صفوف، الخنوع التام سيطر عليهن، قنوات الدمع سُدت، الأفواه خَرست، حتى تَوقُّع حدوث أمرٍ ما مفاجئ يُخلصهن مما هن فيه أضحى مكانه الطبيعي كتابًا للأساطير فوق رف مكتبة عتيقة. خَمَّنَت السجانة أن بتول نشرت بينهن الكثير عن ماضيها كبائعة هوي فَجَزَّت على أسنانها، وبقوة مبالغ فيها قذفت بأول فتاة بالصف آذاد الكردية إلى مُسَاعِدَتها خارج الزنزانة، فصرخت الفتاة بهستيريا ظنًّا منها أنها إما في طريقها إلى الذبح وإما إلى أحضان إرهابي شره، انتقلت صرخات الهلع والبكاء كالعدوى إلى بقية النساء، فنظرت إليهن مارتينا بدهشة وإلى نفسها أيضًا واهتدت إلى أنه مهما حاول المذعور أن يُظْهِر صلابته أو يعتريه عدم الاكتراث بعض الوقت فالانهيار قادم، لا محال، وها هو ذا.

أخذت أم الأشرف ومُسَاعِدَة أخرى لها يضربوهن بالعصا، ولكن ذلك لم يُسكتهن ودفعت المُسَاعِدَة الواقفة بالخارج بآذاد داخل غرفة في منتصف الممر لا تقل قبحًا عن الزنزانة التي

جاءت منها، جنازير سميكة مُدلاة بخطاطيف من السقف لونها يميل إلي الاحمرار من الصدأ، أردية رثة بأحد الأركان، كل شيء عليه آثار الدماء وله رائحة الدماء ووجدت في انتظارها في آخر الغرفة رجلًا وإذا به يلتفت إليها، فأنعمت النظر في الساطور الذي بشماله ولم تلحظ آلة التصوير الفوتوغرافي التي بيمينه، فانكمشت وارتجفت ورجت من الإله الموت بسكتة قلبية قبل أن يقترب منها هذا الغول، لكنه اقترب بأنفاس خبيثة يعف الذباب عن الدنو منها، وصلت إليها الرائحة من أسفل لثام وجهه الذي يبدو منه عينان بهما بعض الحَوَر، ترك آلة التصوير وهبط كفه الضخم على صدغها لكي تتوقف عن فعل ذبذبات الارتجاف تلك فتدفقت الدماء من جانب فمها الصغير من قوة الضربة، وخلع عنها وشاح رأسها وامتدت يده تتحسس مواطن أنوثتها بعنف ونهم خاصة نهدها الممتلئ حتى الشامة القابعة بجوار شفتيها القرمزيتين لم تَسلم من عبث أصابعه، فشعرت بالنفور الشديد ولكن ما بيدها من حيلة واحدة، ابتعد عنها خطوات مُلتقَطًا لها صورة فورية وكتب على ظهر الصورة «سبية رقم واحد»، وبَعد أن انتهى قذف بها إلى مُسَاعِدَة السجانة مرة أخرى فوضعتها في زنزانة غير التي احتُجِزت فيها سابقًا، وكانت كمثيلتها في القذارة والكآبة فظنت الأسيرات أنها قُتلت لعدم عودتها، مرت عليهن لحظات رهيبة، فكلما أخذوا واحدة منهن تفاقم الصراخ

والعويل أكثر، وبَعد انتهاء التصوير كصب مادة كاوية على جرح مفتوح قالت أم الأشرف بصوت آتٍ من داخل كهف تعشش فيه الخفافيش:

- استعدوا لبيعكن في يوم السبايا وإن كنتن تستحققن الذبح.

وواصلت بتشفي: وربما نقوم بالذبح يا عاهرات.

فتعجبت منها الزهراء ودار في خُلدها: «عن أي عُهر تتحدث هذه المرأة؟ عن أي تناقض تحمله في جوفها العاهر، لو كانت توبتها صادقة حقًّا ما كانت هنا الآن في مستنقع الوحل هذا».

انتصف الليل فدخلت أم الأشرف عليهن الزنزانة، أجفان مُطبقة لأرواح مستيقظة، سكون بلا سكينة. أجساد هامدة أوجاع الكون فيها مجتمعة، فلو سكبت البنزين عليهن جميعًا الآن وأشعلت فيهن النار لن تجد أدنى مقاومة؛ فالمعنويات محطمة والأرواح محطمة، فمِن أين تتفجر المقاومة؟! سلطت على الوجوه الضوء المنبعث من كشاف يدوي تقبض عليه فوجدت ما كانت تبحث عنه، فأرغمت الفتاة ذات الشامة آذاد المتكومة بجوار رفيقتها على النهوض والسير معها ففزعت الفتاة مرددة:

- إلى أين؟؟ إلى أين أنتِ ذاهبة بي؟

وتلفتت يمينًا ويسارًا لعل أحدًا يُغيثُها ولكن مَن يغيثها؟! وفي أقل من الثانية اختفت بها وأطلقتها في الغرفة التي الْتُقِطَتْ لها فيها الصورة صباحًا، فنظرت حولها مضطربة الحواس فبدا لها في ضوء الغرفة الخافت الرجل ذو العين الحوراء الذي امتدت يده إلى جسدها أثناء تصويره لها، إلا أنه كان دون اللثام هذه المرة بأنفه المفلطح، وشفتيه العريضتين اللتين يسيل منهما اللعاب، وشعره البرتقالي اللون الأكثر غزارة باللحية، ملامح غير عربية، أغلقت أم الأشرف الباب عليهما وتراقص السرور في حدقة عينها وهي تتسمع لصرخات الفتاة المسكينة وتوسلاتها غير المجدية بين يدي حيوان نهم ليس في حاجة إلى لغة للتفاهم معها، سيتعامل باللغة التي يتقنها كل الرجال بمختلف جنسياتهم، فقد أراد أن ينال أكثر مما نالته يده في المرة السابقة، حاولت أن تنشب أظافرها في عنقه الغليظ لكن لقبضته الغلبة وأوقعها أرضًا وبدأ في تلبية ما رغب، ذهبت أم الأشرف إلى حال سبيلها بَعد وصلة استمتاعها بعذاب غيرها وانتهاك آدميته وفي يدها مبلغ نقدي لا بأس به، وقبل شروق الشمس ألقت ببقايا الفتاة في الزنزانة خرقة مهترئة ومنكسرة، وعلامات تعذيب متفرقة محفورة في جسدها كأنما هجم عليها ثور مُقزز، فقد خرجت من الزنزانة وهي مغتصبة الحرية وعادت إليها مرة أخرى وهي مغتصبة الحرية والجسد!

●●●

قررت أحلام أن تُغير من وضعها المؤسف بالخروج إلى الدنيا الواسعة بَعد هذه العُزلة الطويلة، وكم من القرارات ما دخلت حيز التنفيذ في حياتها، ترددت في البداية بَعد ذلك الكابوس الذي طعنت فيه مصطفى بالسكين، وعدته فأل سَيئ وهي لا تود حدوث المزيدٍ من الأشياء السيئة بحياتها، أيَّد الأب خروجها لكنه رفض ركوبها المعدية فقد هدأت نفسه بمجرد أن تركت عملها بمكتب المحاسبة برشيد، وفي نهاية الأمر وافق لكي تزور خالتها كاملة التي كانت تبيت عندها في بعض الأحيان لقرب منزلها من المكتب. عجزت أحلام عن معرفة إذا كانت تريد حقًّا أن تركب المعدية لِتُقلَّهَا إلى البر الثاني حيث تُقيم خالتها أم أنها أرادت أن تُقلَّهَا إلى بر الحنين حيث كانت تلقاه.

فتحت باب الشقة ووضعت قدمها على أول درجة سلم، ما يزال بداخلها رغبة مُلحة أن لا ترى أحدًا أو يراها أحد ويرى ذلك الحزن، كزهرة الياسمين هي يظهر سريعًا فوق بياض ثوبها أي غُبار حزن. ظلت تتوقف كلما اجتازت درجتين من السلم إلى أن نجحت في الوصول إلى آخر درجة بأطراف باردة، لم يَبْقَ أمامها غير المرور من البوابة فعادت وترددت ثم تشجعت وفعلت. شعرت بوخز في عينيها الذابلتين عندما تعرضت لأشعة الشمس فارتدت نظارتها الشمسية السوداء لكي تُعينها على الذوبان في الزحام والتخلص من هذا

الشعور. سارت ببطء، الإحساس مُختلف ما من معنى أو تأثير لأي شيء فَطَرَحَ رأسها سؤالًا: «أين اختفى طعم الأشياء؟ كل شيء حولي أصبح بلا مذاق، مذاق الفرحة، المتعة نفسها بوجود الأشياء أصبح وجودها والعدم سواء. أأصبحتُ أنا كومة من الكآبة أم أن الحياة أصبحت مَصدر تلك الكآبة؟!».

زلّتْ قدمها لكنها انتبهت وتماسكت في اللحظة الأخيرة قبل السقوط، ثم واصلت حديثها الداخلي متنهدة: «عندما فقدتُ أمي خرجت الحياة من قلبي، وعندما رحل عني مَن أُحبُّ خرجت الحياة من عيني»! شعرت من نظرات المارة أنها منبوذة، فالحزن لواء فاضح فوق الرؤوس وخيل إليها أن تلك النظرات تحدثها قائلة: «من أين جاء هذا المخلوق الذي تغمره التعاسة؟ فَلْيَعُدْ من حيث جاء ولْيَخْتَبِئْ داخل تابوته إلى الأبد»، كل شيء حولها نشاز، ضحكات الشفاه نشاز، لهو الأطفال أمام البيوت نشاز، حتى تغريد العصافير الذي كان يطربها صار أيضًا نشازًا، ندمت على خروجها، كان يُريحها في عزلتها والمعاناة أنها لا ترى غير وجهٍ عابس منعكس في المرآة، لكنها لن تتوارى داخل تابوتها إلى الأبد بَعد أن فطنت إلى أن الحب الذي يَخلق المعاناة لا يستحق هذه المعاناة. بلغت مرسى المعدية، واحتضنت عيناها المياه الجارية واستنشقت الهواء المنعش بحرمان مُختزن متمتمة:

- عزيزي الهم، ألا لي بعض المتنفس، قليل من الفرح، قليل من أي شيء جميل، لا أطمع إلا في القليل!

وبداخل المعدية أغمضت عينيها عن الذكرى، كان حبه قول «كان» في حد ذاته مؤلم لها، كان حبه مُفاجئًا كتساقط مطر غزير في يومٍ حار وشمس ساطعة، وكان انسحابه التدريجي من ذلك الحب كمغادرة أوراق الشجر للفروع في فصل الخريف، ورقة تلو الأخرى تُغادر إلى أن تقف الشجرة المنكودة عارية تمامًا أمام الأعين، فقالت في نفسها: «شقاء، شقاء التعري من الحب بَعد الإحساس بدفء وجوده»! لم تتقبل طوال الفترة الماضية أنه تركها إلى الأبد، أملت كثيرًا أن يعود إليها، طائر ذبيح هي، بينما هو طائر مُهاجر؛ لذا ما استطاعت ادعاء أنها أقوى الآن فما يزال جزء من قلبها يَحن إليه ويشتاق، يَحن فيه إلى مَن أحَبه يومًا وليس مَن أصبح عليه الآن وتمقته، هي ليست حقًا أقوى لكنها مستمرة في الحياة فعندما يتضح أن أقربهم إلى القلب مزيج عبقري من الأكاذيب والاستهانة، يصير الاستمرار في الحياة من باب المُجاملة لها فقط!

تلقتها خالتها كاملة بالترحيب بصوتها الذي له تأثيرًا جميلًا في النفس كوجهها، لم تتوقع منها هذا الاستقبال فكثيرًا ما شعرت أثناء مكوثها عندها بأنها غير مرغوب في وجودها. كاملة

هي الأخت الكبرى لوالدة أحلام خلاف أخٍ أصغر ابتلعته القاهرة هو وأسرته وما عاد يسأل عن أقرب الأقربين إليه. لم يحالفها الحظ في إنشاء أسرة؛ فقد تقمع الدنيا وتضطهد أمنيتكَ الوحيدة وتصيب آخرين بتخمة أمنياتٍ مُحققة، قصتها قصة الخذلان المتكررة؛ أحَبته، تحدت الجميع لأحواله المادية الصعبة إلى أن تمكن من خطبتها، تعرض لحادث سير نَجَمَ عنه بعض العجز لساقه اليمني وما تخلت عنه، مرت بها سنوات وهي تسانده وكافأها قائلًا:

- أمي لا تُحبكِ.

وعندما تزوج بَعدها على الفور فتاة صغيرة السن فهمت جيدًا معنى؛ أمي لا تُحبكِ، كان فقيرًا «وضيعًا»، هكذا كانت تصفه بَعد صفعة التخلي التي جعلتها تدرك أنه ليس كل فقير من طينٍ نقي وليس كل غني من طينٍ ملوث، وأن البشر دائمًا ما تنسب وضاعة بعضًا منهم وهشاشة جوهرهم إلى الدنيا في حين أن الوضاعة تأتي من الجوف وما الدنيا إلا عامل مساعد.

لم يندمل جرحها طوال هذه السنين فليست كل الجروح يداويها الزمن، فهناك جروح عصيةٍ تظل حية بحياة أصحابها وتَفنى حال فنائهم فقط، وكان جرحها من هذا النوع، فأخفقت في أن تعود وتثق أو أنها لم تقابل الشخص الذي يجعلها تعود وتثق

وتُحب. كانت من أولئك الذين يستشيرون قلوبهم في كل الأمور حتى إن قادهم القلب إلى الألم وكثيرًا ما يفعل ذلك. كانت أحلام ترى أن خالتها ليست قبيحة لأنها لم تتزوج؛ فمَن أسقطها في هوته العميقة باسم الحب هو مصدر القُبح، وليست بسيئة الخُلق لأنها لم تتزوج؛ فمَن أسقطها في تلك الهوة هو السوء في حد ذاته.

فوق الحائط المواجه للأريكة التي جلست عليها أحلام ساعة كبيرة عتيقة أحبت كثيرًا سماع صوت تكتكة بندولها أثناء تحركه يمينًا ويسارًا، وفي بعض الأحيان كان يصيبها ذات الصوت بالتوتر، لاحظت هذه المرة أن البندول ما عاد يتأرجح وأن صَدْعًا كبيرًا حدث في زجاج الواجهة، فسألت خالتها عما حدث للساعة فتغير لون وجهها وبعصبية في غير محلها:

- كثيرًا ما يحدث وتسقط الأشياء من تلقاء نفسها.

لم تقل لها الحقيقة، لم تقل أنها مَن كسرتها في لحظة اختناق قصوى لكي تتوقف هذه الآلة اللعينة عن تذكيرها بالوقت الذي يمر ومعه عمرها، كسرتها حينئذ قائلة:

- لا بأس أن نُضلل أنفسنا بعض الوقت للهروب من معرفة مُمرضة!

انقشعت العصبية من نبرة صوتها وسألت أحلام عن صحة والدها، فأجابتها بأنه في طريقه إلى التحسن فحمدت الله ثم قامت من مجلسها ومضت إلى المطبخ وأحضرت علبة عصير فاكهة جاهزة من المُبرد وأفرغتها في قدح وقدمته لها بابتسامة باهتة قائلة:

- كيف تتدبران أمر نفقاتكما هذه الأيام؟

- مما كنا ندخره جانبًا لأي حادث طارق.

- وأنتِ، لِمَ أصبحتِ هكذا؟

- أصبحتُ ماذا؟!

- عندما كنتِ تقصدينني للمبيت، رأيتُ وجهًا مُبتهجًا غير هذا الوجه.

واسترسلت قائلة:

- وضحكاتكِ الخجولة كانت تصلني وأنتِ تتحدثين همسًا في الهاتف من وراء باب غرفة المرحوم جدكِ.

فاحمر وجهها وارتشفت قليلًا من العصير فمالت عليها كاملة:

- غدر بكِ، أليس كذلك؟

وجلست على المقعد المقابل لها وأردفت:

- أنا لا أعرف قصتكِ ولا أريد لكني أقرؤها في صفحة عينكِ، فقصص الحُب الفاشلة مُتشابهة وأبطالها متشابهون وكل عصر وله أنذاله. أقرأ أيضًا في عينيكِ أنكِ ما زلتِ تُحبينه، فالعين ليست كاتمة سر صاحبها.

أوشكت أحلام أن تُدخل رأسها في كأس العصير **خجلًا** فلم يسبق أن تحدثت إليها خالتها في أمورها الشخصية، حاولت أن تقول أي شيء فما أعطتها فرصة وواصلت:

- لا تخافي، لن أُسدي لكِ النصح فالعاشق يتبع قلبه لا يتبع النصيحة.

أصبح وجهها كحبة الفراولة فغيرت مَجْرَى الكلام مُتلعثمة:

- كيف هي الحياة بَعد المعاش؟

- كالحياة قبل المعاش.

ونظرت إلى باب الشقة بعينين حزينتين:

- مُحصل الكهرباء كان آخر من دق هذا الباب قبلكِ، لا خير في زمان أصبح فيه الأقارب كما الغُرباء!

ثم ودعتها حتى الباب وحَمَّلَتْها السلام لمنصور فلولا اعتلال رُكبتها لزارته، وحاولت أحلام إضحاكها قبل المغادرة باقتراح تزويجها بمنصور فصاحت:

- أأتركُ رجال الجنة وأتزوج منصورًا!

فضحكتا ونبهتها أن لا تقول هذا الهُرَاء أمامه فحبه لبدرية تُحسد عليه إلى الآن.

●●●

تهادى شعاع الشمس أثناء دخوله الزنزانة الموبوءة، وانحدر على وشاح اختصه فصل الربيع بأزهاره المختلفة، كان طرف الوشاح معقودًا بشُرَّاعة الباب وفي نهايته تدلت رقبة الحسناء ذات الشامة آذاد، فسمعت الأسيرات من السجانة أم الأشرف المقذعات بَعد أن حلت عقدته وجعلت الجثة ترتطم بالأرضية، ووضعت قدمها الكبير على رأس المُنتحرة الصغير، ثم جرتها من ضفيرتها الذهبية إلى الخارج. شعرت الزهراء بأن خلفها فتاة لم ترتعد مثلهن وتنتفض واقفة، وفي نفس اللحظة لمس سائل دافئ أسفل قدميها الحافيتين فنظرت إليه واستدارت إلى تلك الفتاة فوجدتها تضم بين فخذيها مرفقها المقطوع الأوتار وسط بحيرة من الدماء، وإلى جوارها مشبك شعر معدني منفرج استعملته على ما يبدو في قطع شرايين يدها، وأخذ صدرها يعلو ويهبط بشدةٍ ثم أخذت حركته تهدأ تدريجيًا إلى أن توقف. خلصت مُسَاعِدَة السجانة المكان من الجثة الثانية واستبقت لهن بقعة الدماء فابتعدن عنها قدر المستطاع. لم ترحمهن أم الأشرف هذه المرة؛ فلن تجد نفسها مرغمة على أن تجر كل حين وآخر جثة واحدة منهن، فاستحضرت مساعدتين لها صحتهما موفورة وقاما معها بتجريدهن من كل أغطية رؤوسهن ومن أي مشبك في شعورهن تاركين لهن ما يستر أجسادهن فقط، وأثناء ذلك ذقن العذاب ضربًا بالهراوات على الأظهر والأجناب وركلًا في البطون،

فأخفت مارتينا وراءها جليلة المصابة فنالتا عدة ضربات مُوجعة، وخنقت إحدى مُسَاعِدَتَي السجانة الزهراء من حجابها أسفل الرقبة حتى ازرق وجهها، فلم تَسْتَطِعِ الزهراء التحكم في ثورتها فتخلصت منها بلكمة قوية في الوجه وباغتت أم الأشرف بالهجوم الذي من شدته سقطتا أرضًا معًا، وبركت عليها وقبضت بجمع يديها على عنقها فأسرع نحوهما مُسَاعِدَتا أم الأشرف وصعقت إحداهما الزهراء بصاعق الكهرباء فارتمت بعيدًا عن أم الأشرف وعاجلت ثديها بعضة قوية من أداة تشبه فخ الصياد لها طرفان ينتهي كل طرف منهما بِسِنَّيْنِ مُدَبَّبَيْنِ يغرزان في لحم الضحية والضغط على طرفيها وتسمى تلك الأداة بالعضاضة، استلهمها التنظيم من مقلاع الثدي الذي كان يُستخدم في العصور الوسطى لتعذيب النساء ممارسات الفاحشة بغرزه في الثدي وشده بقوة إلى أن يتمزق الثدي ويُقتلع تمامًا من مكانه وتبدو عظام القفص الصدري مرئية للعين. ظلت الزهراء تتلوى من الألم وتصرخ مما خلفته وراءها الأداة الحديدية من ثقوب أربعة عميقة بثديها ولحم قد اجتث من موضعه حتى إنها لم تَسْتَطِعْ أن تقربه أصابعها، ومن شدة وجعها قالت:

- بئس مصيركِ يا فريال!

فاستيقنت أم الأشرف أن بتول أسرت إليهن بالكثير، فضربت مؤخرة الزهراء بالعصا وبتوتر:

- أخرسي لسانكِ النجس هذا يا فاسقة.

وتمتمت بغضب وشراسة:

- كان يجب قتلكِ يا بتول، كان يجب.

نُقلت الزهراء إلى المشفى فجرح كهذا يتطلب على أقل تقدير أربعين يومًا لكي يلتئم، لم تقاوم مارتينا كل هذا أكثر من ذلك فأمسكت برأسها وتهاوت وأوجدت لنفسها طريقًا بين الأرجل وتمكنت من الارتكاز على الجدار متسائلة: «ما هذا الذي يحدث؟ أين أنا؟ وإلى ماذا سأنتهي؟ جثة مقطوعة الرأس أم جثة يائسة مُنتحرة أم مُتعة جسدية لقاتل؟» فوضعت وجهها بين كفيها وانتحبت. وتساقطت بَعدها الأسيرات على الأرض كما البنايات الشامخة سقطن كما شواهد الحضارات الشامخة بين أيدي الطغاة سقطن وتَنَحَّتْ أم الأشرف جانبًا لكي يدخل من الباب الرجل ذو العين الحوراء القاسية التي لا يظهر غيرها من قناع وجهه الأسود فتَمَغَّصَتْ أمعاؤهن لرؤيته ولذلك السيف الكبير الذي شهره صوبهن، وأشار إليهن بأن يلتزمن الهدوء، وألقى رجُلان أمامهن بمجموعة من الثياب السوداء «عباءة وغطاءين

للرأس والوجه وقفاز لليد» لكل واحدة منهن وأمرتهن السجانة بارتدائهم في الحال، ثم صُفِّدَت أرجلهن وأيديهن بأصفاد مُرتبطة بسلسلة طويلة تَحد من حرية التحرك تجهُّزًا للتوجه بهن إلى الساحة التي سيبعن فيها فيما عدا اثنتين منهن إحداهما مارتينا التي سيقت إلى خارج ممر الزنازين ولفحتها حرارة الشمس من كل الجهات بالفناء المفتوح فشعرت بأنها ما زالت جزءًا من هذا الكوكب، فقد دخلت هذه البناية أول مرة معصوبة العينين مكبلة اليدين إلى الخلف ولم يَتَسَنَّ لها معرفة أن هذا السجن مُنشأة دراسية طمس التنظيم معالمها .

وفي الردهة المقابلة أدخلها أحد الحراس دفعًا إلى حجرة رئيس الحسبة الجالس إلى مكتبه بوجهه الأسود وصدره قليل العرض، يطلع على بعض الأوراق وواقفًا على مقربة منه رجلان مرتديان زي القتال ولهما نفس الطول تقريبًا، وكانت هي أثناء ذلك هادئة أكثر من اللازم، وفي فترة الصمت تلك أدامت النظر إلى الرجل الواقف جهة اليسار، وهتفت في سرها: «أيكون هو؟! كأنه هو، إنه يشبهه تمامًا»، رفع رئيس الحسبة عينيه من فوق الأوراق التي أمامه وأمرها بفجاجة أن تكشف عن وجهها وعاد مرة أخرى إلى أوراقه فحملق إليها بعينيه الخضراوين ذات الرجل الواقف عن يسارها في مريةٍ من أمرٍ ما، فهذان العينان شديدتا

السواد لم ينسهما مطلقًا. أبعد هذه الفكرة عن رأسه فما الذي سيأتي بها إلى هنا، فقرأ شفتاها وهي تُحركهما: أثاسيوس، إنها هي إذن. لم يلحظ الآخران حوار الأعين هذا لانشغالهما في تلك الأوراق، وبَعد التحقيق معها ألقيت في زنزانة بها نساء أخريات غير اللواتي كانت معهن من قبل.

●●●

لازم مصطفى في الأيام الأخيرة التهاب العين وتنميل الأصابع من جلوسه ساعاتٍ طويلة أمام ماكينة دفع الحساب بمتجر البقالة الذي أصبح يعمل به بَعد الذي حدث له في مطعم الفندق، ففي آخر يوم عمل له بالمطعم وأمام طاولة زبون ببدلة فاخرة وبصُحبته امرأة لها بريقًا كمعدن النحاس المصقول توًا لأسرفها في الاهتمام بجمالها. رفع الزبون رأسه إليه لكي يُملي عليه اختياراته من قائمة الطعام فكانت المفاجأة، وبصوت منخفض أجش لم يَخْلُ من التهكم قال له:

- أتركتَ قرية الصيادين من أجل ذلك؟!

فلم يَرُدَّ على المَوَّان في حُلَّتِه الجديدة تلك إلا بابتسامة عريضة صفراء متوجهًا بَعدها إلى مطبخ المطعم ومنه إلى الشارع بلا رجعة لاعنًا ذلك الشبح الذي يظهر له من وقتٍ إلى آخر ولا يعرف ما الذي يريده منه بالتحديد؟! وبَعد أن قطع مسافة من السير هَاتَفَ ضاحكًا رفقاء المقاهي لكي يلحقوا به إلى المقهى كأنه لم يعبس أو يلعن منذ قليل.

وفي المتجر قذف طفل سمين وقصير القامة بكيس من البطاطس المقلية أمامه بَعد أن أفرغ محتواه في جوفه في وقت قياسي من تجول أمه بين الأقسام تتبضع فاحتسب مصطفى سعره من ضمن مشترياتها، التي فاقت في مُجملها راتبه الشهري،

وإذا به يقول في نفسه مستنكرًا: «أطفال هذا الزمن لا تجد أي براءة في وجههم، يضع الطفل عينه في عينكَ كأنه يقول لكَ أنا مُطلع على كل ما يدور في رأسكَ أيها الكبير، كُل يا صغيري واستمر في الانتفاخ حد لحظة الانفجار وليستمر الجوع في ملاحقة المعدومين، فَلْيَأْتِ خبراء الاقتصاد الذين يصيحون على شاشات الفضائيات ويصيبونا بالصداع بوجوب الإنفاق في المحدود والضروري، ألا يدرون أن الفقراء ليس لديهم ما ينفقونه على ذلك المحدود والضروري! فليأتوا إلى هنا ليروا التسابق بين رواد المتجر على الشراء كأن أذيع من خلال المكبرات أن المجاعة غدًا».

وواصل ساخرًا: «وليروا هذا الطفل الذي تحتاج دهون جسده إلى كاسحات والآن يلتهم قطعة حلوى وسيقذفني بغلافها الفارغ. أيها الخبراء ويا أفراد الحكومة العظماء فلتكن خُطبكم للتقشف في المتاجر الكبرى ودعوا الفقراء في حال سبيلهم يموتون في سلام، كم أنا أحمق! فهؤلاء العظماء يتسابقون بين رواد المتجر».

وبأسى: «أنا لا أحقد لكن أود أن أعيش».

ونظر إلى طابور العملاء المصفوف تجاهه بعربات التسوق التي أغلبها ممتلئة إلى آخرها وألقى إليه الطفل السمين بغلاف الرقائق المحشوة بالشوكولاتة فابتسم له مُكرهًا.

●●●

هنـأت ريم صديقتهـا أحـلام بتغييـر نشـاط محـل أبيهـا مـن الحياكـة إلـى بيـع الملابـس النسـائية الجاهـزة بَعـد أن وُفقـت في إقناعـه بالقيـام بذلـك التغييـر الـذي أنجزتـه في وقـت قصيـر، وأثنـت علـى الدهـان الأبيـض الجديـد الـذي جعـل جـدران المحل بهية وملسـاء بَعـد أن كانـت باهتـة والأمـلاح مترسـبة علـى أجـزاء كثيـرة منهـا ولـم تُجْحِفْ حق أناقة أحـلام مـن الإطـراء وهـذا الوجـه الرائـق والخـدود المتـوردة والشـفاه التـي صـارت بلـون دم الغـزال فابتسـمت أحـلام لسـذاجة صديقتهـا:

- أصبحتُ أعيش الحياة وفق ما تريده لي لا وفق ما أحبُّ وما أريد.
- لكنكِ أنتِ مَن فكرتي في هذا النشاط التجاري.
- كان المتاح، ولـن تأتـي السـعادة الحقيقيـة مـن الاختيـار ممـا هـو مُتـاح فقـط، فالنـاس الآن يُقبلـون علـى شـراء الملابـس الجاهـزة عـن التفصيـل فلهـم إذًا مـا يريـدون.

كان للمعروضـات ذوق راقٍ ممـا جعـل ريم تختـار عبـاءة وقميـص مـن الحريـر وقالـت ضاحكـةً:

- ألا يوجد تخفيض في الأسعار بمناسبة الافتتاح؟!

فأشارت إليها أحلام نافية، فزاغت عين ريم على شنطة يد مصنوعة يدويًّا ومطرزة بخيوط ملونة على شكل ورديات صغيرة فامتدت لها يدها، فوقفتها أحلام بأنها غير مخصصة للبيع فهي حقيبتها، صنعتها لها خالتها كاملة. فأرادت ريم أن تصنع لها الخالة واحدة مثلها وتطرز أيضًا فستان زفافها الذي فَصلّته لها أمها ويعوزه الإبهار، فأفهمتها أحلام أنها مجرد هواية لا تتكسب خالتها من ورائها، لكن بَعد إلحاحها وعدتها بأن تخبرها بما أرادت، وقطع حديثهما دخول امرأة تحمل فوق كتفها طفلًا وتمسك بآخر، وأخذت تُقلب نظرها في البضائع قائلة:

- هل يوجد بيع بنظام التقسيط؟

فنظرت أحلام إلى ريم بيأس وردت على المرأة:

- حاليًّا لا، ربما نتبع هذا النظام فيما بَعد.

انصرفت ريم وفي الطريق قالت لنفسها:

- أحبته بجنون ولأنه مجنون فراق تركها، عوضكِ الله، فالله لا يبخل أبدًا بالعوض يا صاحبتي!

جلست أحلام إلى منضدة صغيرة بآخر المحل ومررت أناملها على قلبٍ مطبوع على سترة مُعلقة إلى جانبها فظهر لها وجه مصطفى بداخله فخاطبته بلوعةٍ:

- لو اطلعتم على القلب لكنتم وجدتم أنفسكم!

وأردفت بذات اللوعة:

- كنتُ أراكَ تحمل الكثير من ملامحي لكنكَ لم تكن تحمل بين أضلعكَ قلبًا كقلبي!

واعتصرت السترة بين يديها فاختفى وجهه واستدركت قائلة:

- أيها القلب، اخنق مشاعركَ بإرادتكَ الحُرة إلى أن تلفظ أنفاسها خيرٌ لكَ من أن تُهينها مع أحدهم؛ فالاستهانة بالمشاعر إهانة، فمِن الآن وصاعدًا سأكون أداة للجرح لن أُبارك ذبحه لي أكثر من ذلك.

تركت السترة وقامت:

- لا، لن أستطيع أن أكون غير الذي أنا عليه، كل ما أستطيعه أن أواصل الركض من قلبه في صمتٍ.

ووضعت راحتها على صدرها وزفرت زفرة ساخنة:

- كم أُصبح خطرة عندما أفكر أو أسترجع الذكريات المؤلمة!

وقف منصور على بُعد أقدام من المحل وقرأ اللافتة من خلال نظارته الطبية السميكة العدسة فوجد الاسم القديم مع تغيير بسيط «منصور إبرة الترزي للتفصيل وبيع الملابس الجاهزة»، فسره ما رأي؛ فلم تعد اللافتة مثوى للأتربة وخيوط العناكب

وعش العصافير المهجور، بل صارت لامعة براقة بالدهان الجديد ومصابيح الافتتاح الملونة المضيئة، وفي الداخل أشاد بمجهود أحلام وجلس بمساعدتها ثم دار بعينيه بتأنٍ مُتأملًا المحل الذي استوعب كمية متواضعة من البضائع لضيق المساحة وضيق ذات اليد في نفس الوقت، وأثناء ذلك دخلت عليهما امرأة في منتصف العمر ألقت التحية ووجهت كلامها إليه مستوضحة:

- هل توقفتَ عن الخياطة يا عم منصور؟

فابتهجت أساريره:

- مَن قال هذا؟! لا، لم أتوقف.

- كنتُ أريدكَ أن تصل قطعتين قماش مناسبين إلى بنطال ابني الصغير لكي يتسع قليلًا بعدما ضاق عليه.

فغشيه الإحباط، ظنها تريده أن يُحيكَ لها قماشًا جديدًا لكن الفاقة لم ترأف في مدها بالكثيرين:

- تستطيعين أن تأتي به في أي وقتٍ.

فذهبت المرأة راضية. لم يشعر بالراحة فوق ذلك الكرسي المنخفض فاتكأ على ركبتيه ناهضًا وغادر بَعدما وعدته أحلام بأن تستبدل به كرسيًّا آخر مرتفع ووسادة صغيرة طرية يضعها خلف ظهره العليل.

●●●

لـم تجـد عهـد نفسـها مجبـرة علـى الكـذب وهـي ذاهبـة إلـى منطقـة السـيدة نفيسـة؛ فلـم يَسَـعَ زيـدان لإرضائهـا منـذ رحيلهـا عنـه، وهـي لـم تنتظـر أن يفعـل ذلـك، توجهـت بَعـد صـلاة الظهـر إلـى المقابـر بصحبـة امرأتـين مـن كبـار السـن علـى معرفـة وثيقـة بـأم يونـس التـي سـارت بتـؤدة وسـرن الثلاثـة علـى خطاهـا، كانـت زيـارة المقابـر لا تـروق لعهـد، تُربكهـا وتجعـل الألـم يسـيل منهـا سـيلًا؛ كونهـا في عالـم وأسـفل قدميهـا يرقـد الأحبـة في عالـم آخـر، حتـى إنهـا كانـت تمنـع عبـد الرحمـن وهـو صغيـر مـن المجـيء إلـى قبـر أبيـه وأمـه فـدوى، فقـد أودى حـادث سـيارة مـروع بحياتهمـا وعنايـة الله أنقـذت عبـد الرحمـن، وكان قـد أتم عامـه الأول، وعندمـا صـار شـابًّا لـم تتمكـن مـن المداومـة علـى منعـه، فـكان يقـوم بالزيـارة مـع زيـدان الـذي كابـد مـرات عـدة إخراجـه ليـلًا مـن مدفـن خطيبتـه أروى، فشـعرت أم يونـس بزلـزال الألـم الـذي ضـرب عظامهـا وأعصابهـا فربتـت علـى ظهرهـا قائلـة بصـوت حنـون:

- بإذن الله سنجد عبد الرحمن!

وواصلت:

- لقد كنتِ خير أم له.

فاحتدت: وما زلت!

خفت حدة لهجتها متوقفة عن السير:

- إنـه ابنـي محـل القلـب والعـين، وزيـدان في مقـام أبيـه، رحـب بتربيتنـا لـه قبـل إنجابنـا.

وأردفت:

- توترت العلاقة بينهما فقط عندما تعرض في فترة من حياته لبعض التخبط.

وتلفتت حولها بفؤاد منفطر حزنًا:

- أين أنت يا عبد الرحمن؟

وبكت فالتف حولها النسوة الثلاث تمصمص كل واحدة منهن شفاهها اليابسة بتأثر ويطيبن خاطرها. عدة خطوات أخرى لهن ووقفت أم يونس تحتسي ماءً باردًا من زجاجتها فالشمس متعامدة فوق رؤوسهن، وأثناء ذلك حفهن مجموعة من الأطفال بملابس مهلهلة وأقدام تكتل فيها الطين يلهون بجرو رابطين عنقه النحيل بحبل غليظ غير مكترثين بمعاناته، فقد كانت مسرتهم أهم لديهم من معاناته، أبعدتهم أم يونس وواصلن السير في طريق مستقيم، ثم أطلن النظر جهة اليمين إلى امرأة رفيعة معصوبة الرأس ببنطال مَثْنِيٍ تحت الركبة، سابحة بساقيها البيضاوين في مياه عكرة، مُسلطة خرطوم للمياه على كليم قديم من الصوف مطروح على أرضية مبلطة لأحد الأحواش تشطفه منحنية من رغوة الغسل، وأخذ عهد أخذًا ما رأته على جانبي المدافن من شجر التوت الناضج والشجيرات شديدة الخضرة التي يخرج منها بعض الأزهار، فكان الموت والحياة متعانقين في حيز واحد.

توقفن وفتح التربي حوش مدفن عائلة إحدى المرأتين، ونَدَّى التراب الذي يعلو القبر بالماء وحاز الصبار نصيبًا منه، ثم جاءهن بقارئ ليتلو بعض السور القرآنية، بينما وزع النسوة ما يُسَمى بالرحمة على المساكين الذين توافدوا على المدفن، وكانت عبارة عن فاكهة وبعض المخبوزات، وأبرزت عهد صورة عبد الرحمن للبالغين منهم، ووصفت لهم المرأة التي أخبرتها بأنها أبصرته هنا ولكن بلا جدوى.

وفي الطريق إلى المغادرة تركت بعض الفاكهة لصغيري المرأة التي كانت تغسل الكليم المتسخ منذ قليل، وعرضت عليها هي الأخرى الصورة ووصفت لها امرأتها المجهولة فلم تدلها على شيء فتقدمت داخل الحوش وألقت التحية على رجل كفيف جالس القرفصاء على الأرض مُرتديًا جلبابًا مُرَتَّقًا، أغلب الظن أنه والد الصغيرين وزوج المرأة، فوضعت في يده المتعرقة نقودًا، وتأملت المكان القابض للروح بحزن وذلك الطبق الذي كان حوله صراع بطون ونجت منه حبة فول واحدة وفتات خبز وسألته:

- أتعيشون هنا منذ زمن؟

- وهل نحن هكذا نعيش؟! لقد خُلقنا لكي نُدفن أحياء، حمدًا لله على كل حال!

لم تجد كلمة مواساة ملائمة فغادرت قائلة لأم يونس:

- إن اختيار العيش مع الموتى ليس بالاختيار السهل بل ما هو باختيار، هو السبيل الوحيد أمام بعض المعدومين!

فهزت أم يونس رأسها أسفًا.

عادت عهد إلى المقابر مرتين أخريين وفي كل مرة منهما تتخلف عن الحضور مُعتذرة إحدى المرأتين المتعاطفتين معها؛ معارف أم يونس، فتعلمت أن التعاطف له مدة زمنية يحددها طاقة الفرد واستعداده للحب والعطاء، وبقيت أم يونس إلى جانبها، كانت على النقيض من زيدان الذي وقف على ضفة أخرى من نهر الحياة، فلم تمانع هي بأن تذهب إليه عومًا شريطةً أن يبسط لها يده عند الوصول لكنه كان يخشى على قدميه من البلل.

لم يرشدها أي شيء هناك إلى عبد الرحمن، فأخبرتها أم يونس بأنها فعلت كل ما في وسعها وأكثر، وقبل أن يذهبا ولشدة سطوع الشمس، ظللت عهد على عينيها بكفها لترى أمامها بوضوح، فلمحتها أمام صنبور عام تملأ منه قارورة فارغة، كانت بنفس العباءة التي رأتها بها في محيط المسجد لكنها تخلصت هذه المرة من لطخ الوحل الجاف، لا تعرف لها اسمًا لكي تناديها غير التي أطلقته عليها «امرأة المقابر» فأسرعت إليها وسألتها بمودةٍ إن كانت تذكرها فأجابت:

- وجهكِ ليس غريبًا عليّ لكني لا أتذكركِ.

وبصورة عبد الرحمن تذكرت وصحبتها إلى حيث رأته ورافقتهما أم يونس.

●●●

استجوب أمير الكتيبة مارتينا عن قافلة الإغاثة والمعونات والمجاهدين بإرهابها بالجلد حينًا وبالنحر كالنعاج حينًا آخر لكنها لم تُجبه، أوحت لها ملامحه بالشر الذي لا يمكن أن يردعه رادع، كان أكثر عنفًا في استجوابها من رئيس الحسبة، حتى إنه أحدث لها جرحًا في الذقن من شدة تعديه عليها بالضرب، لم يكن هذا الأمير يستحسن الشعر القصير في النساء؛ لذا سلمها للمُجند الذي قادها إليه ذلك الذي حركت شفتيها دون صوت باسمه: أثاناسيوس.

مرت ساعات طويلة وهي حبيسة غرفة حالكة الظلام ألقاها فيها ذلك المُجند ورحل دون أي كلمة منه تدل على أنه هو مَن تعرفه، حتى ظهر خيط رفيع من الضوء من أسفل عقب الباب وصوت ثخين في الخارج يقول:

- أين جاريتكَ يا أخي أبا القاسم؟ أهي جميلة؟ أريد أن أراها.

وتعالت ضحكاته فصرفه غاضبًا:

- اذهب الآن يا أبا معاوية.

فهمت مارتينا أنها المقصودة، فهمست بأسى:

- خُلِقْتُ حرة وسأموت وأنا تلك الجارية!

فتح أبو القاسم عليها الباب وضغط على مكبس الضوء فرمشت عيناها من شدته، وجلس في مواجهتها نصف جلسة مُزيلًا عنها القيود:

- أعلم أنكِ لن تُقدمي على الانتحار فأنتِ أجبن من أن تفعلي ذلك.

فَقَطَّبَتْ وجهها وبصوت ساحرة عجوز شديدة الأذى:

- إن حاولت الاقتراب مني سأمزق أحشاءك بأسناني حيًّا.

فوثب قائمًا وقال بلا اكتراث:

- لقد اختزلتُ من حياتي كل النساء، أنا هنا من أجل ما هو أهم منكِ أو من غيركِ.

وخرج من الغرفة وارتمى على أريكة بالصالة عائدًا برأسه إلى الخلف مواصلًا:

- أنتِ الآن في خدمتي إلى أن يتشاور القادة أيقبلون مفاوضة بلدكِ أم لا.

واعتدل في جلسته:

- ما بلدكِ حقًّا؟! مصر أم بريطانيا؟!

فسارت نحوه تجر قدميها والعباءة:

- أنتَ هو؟! أنا لم أُخطئ!

- أنا أبو القاسم الفاتح.

وقذف في حلقه بقرص ما من شريط دوائي وألقاه باستسلام إلى جواره فغاب بين طيات الأريكة، ورجع برأسه إلى الخلف وسريعًا رفعه من فوق مسند الظهر في صمت، وأنعم النظر فيها وفي شعرها الأسود ثم عاد إلى وضعه السابق، بدا مشتت الذهن فاتخذت لنفسها مسافة آمنة بينها وبينه، وفكرت في مصيرها وهذا الشخص الذي عرفته فقط في طفولته، فإذا انتهزت فرصة مناسبة لكي تقتله فلن تفلت ممَن في الخارج، جحظت عيناها، القتل! لن تستطيع أن تقترفه لكنها قد تلجأ إليه، إلى ذلك الخلاص البغيض، فمَن يعرف!

تأملت ملامحه التي تغيرت بَعد أن صار رجُلًا بالغًا ومتطرفًا بشعر متروك بلا تهذيب، وانتقلت إلى تأمل الشقة المستولي عليها التنظيم، كل شيء فيها منقلب رأسًا على عقب ويعلوه الكآبة والقذارة والروائح المُنفرة، وبصوت أقرب إلى الهمهمة أراد تكديرها على الرغم من فقدانه الشهية قائلًا:

- هيا أعدي لي طعامًا.

ظلت مُلتحمة بالأرضية غير عابئة بما قاله، فقام مندفعًا ووقف فوق رأسها مُحتدًّا:

- ألم تسمعي ما قُلته لكِ؟!

فنهضت وهي لا تنظر إليه فلوى ذراعها بقوة خلف ظهرها ضاغطًا بيده الأخرى على رأسها يلصقه بالحائط:

- أنتِ هنا على غير ما أبتغي، لكن للأمير السمع والطاعة، أنتِ الآن جاريتي.

- لستُ جارية أحد أتسمع؟

فاضطرم غضبه ضاربًا رأسها بالحائط واقترب بفمه من أذنها:

- إذا لم تُعدِّي طعامًا وتقدميه لي..

وتأفف مستأنفًا:

- وإذا لم تستحمي لتقضي على رائحتكِ النتنة تلك، سأقتلع أظافركِ واحدًا تلو الآخر، أمامكِ عشرون دقيقة فقط للاستحمام والطهي.

وصاح بها يحثها على التنفيذ، فلم تستطع أن تواجهه بحقيقة رائحته فهو يُشكل بمفرده مستعمرة للبكتريا والجراثيم،

أما المسكن فهو كماسورة الصرف، عثرت على المرحاض دون توجيهاته وأوصدت بابه عليها من الداخل، ولم يسفر فحصها عن أي أجهزة للمراقبة، وزيادة في الحرص خلعت العباءة ووقفت أسفل رذاذ المياه بزيها الرياضي فقد كانت في أشد الحاجة إلى لمس المياه لجروحها وللكدمات وحز القيود فتدفقت دموعها.

تنشفت سريعًا بالعباءة ودخلت غرفة مفتوحة وهي تتحسس خطاها ومنها إلى أخرى فوجدت ملابس لأصحابها الأصليين مُلقاة بعضها فوق بعض أمام خزانة خاوية، فالتقطت بنطالًا وقميصًا رجاليين يمكنها ارتِداؤهما فزيها الرياضي تمزق بما يكفي، فأطفأت النور ووقفت وراء الباب الموصد ترتديهما على عُجالة، كانا أكبر قليلًا عليها لكنهما جيدان على أي حال، وعرفت طريق المطبخ وكان لا يقل قذارة وبعثرة للمحتويات عن الغرف التي دخلتها، فتحت الثلاجة خرابًا هي كأرفف المطبخ إلا من علبتين من الأغذية المحفوظة إحداهما فوق نصفها تقريبًا فقدمت له الطعام فولًا وجبنًا وخبزًا.

تخطت الساعة العشرين دقيقة المدة المحددة، لكنه لم يُوقع عليها أي عقوبة أو يعلق بكلمة على ما ارتدته ونظر عابسًا إلى الطعام وهو يحك أنفه:

- ما هذا؟!

- هذا ما لديكَ.

خانته الذاكرة فقد كان بعض الإخوة ساهرين عنده أمس وأتوا على الطعام الذي كان لديه، فهمس مُزمجرًا:

- سأطلب بعض الإمدادات الغذائية غدًا.

راقبته وهو يمضغ الطعام على غير جوع ثم قال:

- لا تفكري في الهروب فالحراسة مُشددة، وإن كنتُ أود أن تحاولي لكي تتلقي طلقة في رأسكِ وأنتهي منكِ.

اشتدت حدة نظراته إليها:

- وإذا تسببتِ بإزعاجي سأعيدكِ إلى زنزانة السجن فهو لا يبُعد عن هنا، ولينحروا رقبتكِ كما نُحرت رقبة هذا الباتريك.

- باتريك!

فصرخت وضربت الحائط بيدها مواصلة:

- أيها السفاحون، كيف أصبحت مثلهم؟! كيف؟!

فرفس طاولة الطعام وأمسك فروة رأسها وقد زادت هلوسته:

- لو سمعتُ صراخكِ مرة أخرى سأفقأ عينيكِ.

وبينما هي تنتفض بين يديه ألقى بها في غرفة وانقطعت الكهرباء:

- لا أريد أن أسمع لكِ صوتًا.

ثوانٍ وعاد الضوء بفضل مُولد الكهرباء، وظلت تنتحب على مقتل باتريك من غير صوت إلى أن شعرت بالتعب لأقصى حد فتمددت خلف الباب حتى إذا حاول هو الدخول عليها شعرت به، وراحت تسأل: «كيف أصبح بهذه القسوة؟! لقد كان عطوفًا، كيف؟!»، لم تكن تعرف أتشفق عليه أم تلعنه؟! ورجعت بها الذاكرة إلى أيام انتظارها لإجازة نصف العام ونهايته لكي تصحبها أمها إلى منزل الجد لقضاء الإجازة هناك لانشغال والدها بالعمل في الخارج، وأناخت بها الذاكرة قليلًا عند أحد المواقف لها معه أثناء لعبهما مع أبناء الجيران في الردهة، عندما أوقعتها بنت صغيرة منهم على الأرض بدافع الغيرة فتقدم نحو تلك الصغيرة وضربها على كفها حتى ذرفت الدموع صاخبة، فقد كان أكثر أبناء الجيران هناك محبة لها، وقد كان ينتظر مجيئها بشوق.

وذلك اليوم الذي جلس فيه إلى جوارها على بسطة الدرج وبين يديه الكرة قائلًا ببراءة:

- لقد أخبرتُ أبي بأني أحبكِ وسأتزوجكِ عندما نكبر.

فوضعت راحتيها على وجهها الذي احمر خجلًا، وتجهم قائلًا:

- لكن أبي نهاني عن اللعب معكِ أو مع أي فتاة أخرى لكني سأبقى ألعب معكِ.

فابتسمت.

تذكرت أيضًا ولعه بالشخصيات المقدامة الواقعية كانت أو من نسيج الخيال، كالسندباد والفارس خالد بن الوليد فأخبرته حينذاك بأن كلمة الخالد يقابلها في اللغة القبطية كلمة أثناسيوس، وبمرح:

- سأسميكَ أثناسيوس.

وفي اليوم الذي علم فيه أن والدها قرر سفر عائلته إليه لتستكمل هي دراستها حيث يقيم ببريطانيا بَعد اجتيازها مرحلة التعليم الابتدائي، مرض مرضًا عنيفًا حتى ظن أهله أنه سيموت حتمًا.

غلبها النوم وغلب ذكرياتها فنامت وهي مقتنعة بأنه ما يزال بداخله شيء يردعه من أن يُلحق بها أي ضرر.

●●●

صبيحة يوم الخميس

كانت الحاجة صالحة مضطجعة على الفراش ما بين النوم واليقظة، تستودع حضنها رداء ما حين دخل عليها مصطفى الغرفة وقبل جبينها، ففتحت عينيها ببطء وارتسمت على شفتيها ابتسامة واهنة، فقد جاءها فور إبلاغه هاتفيًا بسقوطها على الأرض في حالة إعياء تام أمس، وشَخَّصَ الطبيب حالتها بارتفاع حاد في ضغط الدم أدى إلى زيادة سرعة ضربات القلب، وأثناء فحصه لها بدت عليه نظرات مُستفسرة عن ذلك الرداء الذي تحتضنه كالوليد، وبعدما كتب لها الأدوية المطلوبة سأل صراحةً عنه، فنظرت خديجة إلى أمها فوجدتها قد استغرقت في النوم فوضحت له بصوت خافت أن هذا الرداء يخص أخاها الكبير سراجًا الذي غرق وآخر عندما هبت رياح قوية مفاجئة وقلبت زورق الصيد الذي كان يستقله هو واثنان من الصيادين ولم يتمكن من النجاة غير شخص واحد، وبَعد وقوع هذه الفجيعة انتظرت أيامًا على الشاطئ لعله لم يمت ويعود إليها، لكن هذا الانتظار لم يثمر عن شيء، ثم أصبحت تحتضن هذا الرداء أغلب الوقت؛ فقد كان آخر ما ارتداه في المنزل ويحمل رائحته، فبدا التأثر على وجه الطبيب قائلًا:

- أنعم الله عليها وعليكم بالصبر والسلوان!

وضع مصطفى وسادة عالية خلف رأسها لتتناول الدواء، فسألته عن عهد فأخبرها بتقصيره حيالها بسبب ظروف عمله، فحدقت إلى الهالتين اللتين احتلتا أسفل عينيه وإلى جسده الذي فقد بعض الكيلوجرامات وبصوت متهدج:

- ما عُدت أعرف أيهما أفضل لكَ، بقاءكَ هنا أم في القاهرة!

- وأنا كذلك لم أعد أعرف!

- عندما علمنا بالسيارة المفخخة التي انفجرت بجوار عملكَ أمس لم أشعر بنفسي، أيامكم أشد من خروج روح منغمسة في المعاصي من جسد يا ولدي!

وأردفت: هل مات الكثيرون؟

- ما أحوجكِ إلى الراحة!

فتابعت كأنها لم تسمعه:

- حمدًا لله إنكَ بخير، يكفيني وجعي على سراج!

وإذا بحبيب الله يدخل عليهما الغرفة بَعد استيقاظه من النوم مباشرةً فَرِحًا بقدوم مصطفى ومنحه عناق طويل فأنهى لحظة الإحباط تلك.

اقتصدت ريم في زيجتها وأقامت حفل الزفاف بالمنزل وسط الأقارب والأصدقاء المقربين فقط، كانت هي وطاهر يريدان إنجاح هذا الحب، عَلِمَا بأن الوصول إلى لحظة عقد القران تتطلب طرفين يريدان استمرار الحُب، لا طرفًا يحاول ويريد وطرفًا في وادٍ سحيق لا يحاول.

تساهلت وعائلتها معه في كثير من متطلبات الزواج عندما وجدوه سيُقدر صنيعهما، في حين أن ريم نفسها بعدما عرفت بقصة أحلام مع مصطفى في فصلها الأخير ناشدتها أن لا تتساهل أو تتنازل أمام ظروفه المتكررة وتراخيه عن ارتباطهما الرسمي؛ فقد كانت تعتقد دائمًا أن هناك نوعًا من الرجال يظنون أن تنازلات المرأة رُخص، وقلة مَن يجدونها الحب بعينه.

سارعت أحلام في المجيء إليها باكرًا اليوم بَعد تخلفها عن ليلة الحناء وبصحبتها خالتها كاملة التي ألحت عليها ريم بالحضور، فقد صار فستان زفافها الأبيض تحفة رائعة بعدما زخرفته لها بالخيوط الفضية ورصعته بحبات اللؤلؤ البيضاء، ففي بادئ الأمر رفضت تطريزه وأغلقت الهاتف في وجه أحلام وخلال يومين راجعت نفسها ووافقت. لم تكن تنوي الحضور؛ فقد توقف الأقارب والجيران عن توجيه الدعوة إليها لأفراحهم مثلما توقفوا عن السؤال عنها أو كيف هي تعيش أو بم تشعر؟ فالسؤال الأهم

لديهم؛ كيف لها أن تعيش بلا زوج؟! ومنذ وقت قريب تذكرت فترة الانفلات الأمني التي تلت ثورة ٢٥ يناير وتحطيم أبواب الدكاكين القريبة من مسكنها وسرقتها وسرقة السيارات والمارة، كانت حينذاك وحيدة مرعوبة من طلقات الرصاص خارج شرفتها بالطابق الأرضي ومن محاولة الاقتحام المخفقة التي تعرضت لها شقتها في وضح النهار، قضت أيامًا كالمخاض، لكنها كانت على يقين أن الله بالقرب وهي تواجه كل هذا الخوف والخطر مختبئة وراء الأريكة وقلل خوفها بعض الشيء التهليل في الشارع بوصول مدرعات الجيش.

تمت دعوتها أخيرًا إلى فرح بَعد أن كانت الأفراح عليها عورة، أما الجنائز فلها أسبقية العلم بها، وقد قبلت هذه الدعوة لكي ترى أهي حسود حقًا أم جالبة للنحس؟ وإن كانت ما تزال تخشى سماع ما يؤذي إحساسها أو ترى في الأعين شفقة حتى بَعد أن وصلت إلى هذه السن قائلة:

- إن كان الزمن قادرًا على سرقة العمر، فإنه غير قادرٍ على سرقة الإحساس.

أهدت ريم حقيبة يد صنعتها لها مثل التي أعجبتها مع أحلام فعانقتها شاكرة ورصدت بَعد قليل السعادة التي تأتي وتذهب على ملامحها عند نظرها إلى فستان الزفاف المُعلق

أمامها على الشماعة، فانتظرت إلى أن جف طلاء أظافرها وألقت بعض الكلمات في أذن أحلام، فَراقها ما قالته لكنها خشيت من النتائج. أوصدوا باب الغرفة عليهن لتنفيذ الفكرة بأن ترتدي كاملة فستان الزفاف دقائق فرفضت بتعنت وجذبت ذراع أحلام بغضب لكنهما تمكنا من جعلها ترتديه وساعد على ذلك أنها أقل في الحجم من ريم وأطلقت البنات الزغاريد حولها وراقصوها فاحتضنت ريم هامسة:

- شكرًا!

- اجعلي الدنيا ترى كيف تكون ابتسامة الجميلات.

عادت وارتدت ملابسها وحجابها الذي سقط على الأرض، ومر الوقت سريعًا، ولبست أحلام ثوبًا حاكه لها والدها من قماش الدانتيل الناعم على الصدر ومن الخصر الذي أحاط به حزام بسيط حتى أسفل قماش الشيفون المبطن فجذب أعين كل مَن في الغرفة بلونه الزمردي، وأصبحت العروس كذلك في أتم زينتها، وبمجرد أن سمعت ضجة وزغاريد في الخارج فتحت باب الغرفة فتحة صغيرة وحدجت من خلالها فغرد قلبها فرحًا بمجيء العريس لكنها سرعان ما شهقت وأغلقت الباب والتفتت قائلة لأحلام:

- لا تغادري، اتفقنا.

- ولِمَ أغادر؟!

- مصطفى في الخارج، جاء مع طاهر وأصدقائه.

فأطرقت عينيها أرضًا فهزتها ريم فنطقت بتوتر:

- لقد صرتُ أقوى مما تتخيلين!

فرمقتها بعدم تصديق، فأردفت أحلام:

- لقد وصلتُ إلى مرحلة من السلام الداخلي تجعلني أصمد، فإذا مر هو بجانبي في الطريق ووقع له حادث فلن أرفع هاتفي لكي أُبلغ أن هناك جثة مُلقاة على الطريق!

فتدلت شفة ريم السفلى وتمتمت وهي تبتعد:

- كاذبة.

غادرت كاملة، وجلست أحلام إلى يسار العروس ثم امتد بصرها إلى حيث يقف مصطفى بنظرات مُترددة، خاطفة، بمشاعر غير مفهومة فما هذا الذي يحدث داخلها؟! ألهذا نعتتها ريم بالكذب؟! أهي قوة زائفة؟! أم أن القلب يرقص وينزف في ذات الوقت، أي جنون هذا؟!، أما يزال له مكان في أرض خَربة تُسَمَّى قلبها؟! فاستهجنت قلبها: «تَمَادَ في حُب مَن لا يشعر بكَ،

فأنتَ تستحق أن تكون تعيسًا»، ووجهت إلى مصطفى هذه المرة نظرة مُستعرة مواصلة حديثها الداخلي كأنه يسمعها وأملت لو كان كذلك: «أنتَ وقلبي اتفقتما على هلاكي، فكل العون لكما ولنفسي خالص العزاء»، وفي هذه اللحظة حَوَّلَ مصطفى عينيه عن الرجال الذين يحاورهم قرب الدرج إلى عينيها فأخمد استعار نظراتها ورجع إلى الوراء وتأكد أن لا أحدٍ يختلس النظر إليه وأشار إليها فما اكترثت فقد يكون التبس عليها الأمر، اهتز هاتفها داخل الحقيبة فوجدته هو، فتعرت أمام نفسها فما تزال تحتفظ برقم هاتفه، يبدو أنها فعلًا كاذبة، جرت الأمور سريعًا وإذا بها فوق سطح البيت معه، واقفة بعيدًا عنه في دهشة وقلبها يخفق بقوة وأخذ يقترب منها ويقترب وهي تذوب وتتكسر كلما اقترب. وَمَضت عيناه في ضوء القمر:

- أراكِ الليلة خلابة.

وباندفاعٍ: ماذا تريد؟

كانت من النساء البارعات في إشعار مَن تُحب بأنها تُريد نسفه من فوق الأرض في حين أنها لا تُريد سواه من كل هذه الأرض.

فأجاب: نادم، أشتاق إليكِ.

- وهل نسيتَ كلماتكَ واستهانتكَ بـ ...

فوضع إصبعه على شفتيها لكي تصمت، وبلهجة يتدفق منها مشاعر الحب كنهر من عسل:

- لا تُقْلِقِي الماضي في مرقده ودعينا ننطلق نحو القادم.

وجذبها نحوه، وفي أقل من الثانية كانت بين ذراعيه باكية، لم يحدث وفعل معها ذلك من قبل حتى هي لم تمنعه أو تنهره: «كيف تجرؤ؟!» وضربته ضربة خفيفة على ظهره، فاحتضنها أكثر حتى صارا جسدًا واحدًا وروحًا واحدة، وإذا بها تنتبه لصوت أنثوي رفيع، فوجدت أنها لم تتحرك من فوق مقعدها ومصطفى ما يزال واقفًا بين الرجال قرب الدرج، وشعرت بالخجل من انحناء الفتاة بصينية التقديم حيالها طويلًا، فأخذت كوبًا من الشراب مبتسمة لها بارتباك، وشعرت في قرارة نفسها أن خيالها سيقتلها يومًا ما، وأدهى من ذلك أن مصطفى دنا منها مُلقيًا تحية فاترة كمَن التقى زميل عملٍ سابق في مناسبة سعيدة، فجاهدت تحطمها وكافحت من أجل أن لا يطفو الشوق فوق السطح ويفرض وجوده فتخضع له، فردت عليه التحية بأنفة كأميرة مُتوجة التقت سائقًا سبق أن فتح لها باب السيارة ورأسه مُنخفض، لكنها ودت لو تصارحه قائلة: «في آخر لقاء جمع بيننا، قرأتُ في عينيكَ خيبة الأمل، ليتكَ الآن ترى في عيني الندم»! وتطلعت إليه وهو يضحك

ولا يُعيرها أي اهتمام، كان يُجيد الحياة فقررت أن تُبحر في نفس تياره.

أرادت أن تهتف بين المدعوين: «الغياب المتعمد لا يَقتل يا سادة، صدقًا لا يَقتل، بل يزيد القلب صلابة»، لكنها تمنت أن تمتلئ هي أولًا بهذا الشعار إلى أن تؤمن به وتتبعه، ودعت قلبها إلى أن يقفز فوق هذا كله: «اقفز فوق العثرات، على الناحية المُقابلة تنتظركَ حياة أخرى بنكهة الأمل، اقفز، تلك التجربة تستحق»، واسترقت السمع إلى مصطفى وهو يتحدث عن الخذلان فكانت ستضحك بصوت عالٍ وتمتمت:

- يُحدثونكَ عن الخذلان بدم كذب وهم أول من غرسوه في قلب مَن يومًا أحبوهم، يا لها من براعة!

وقضت هي وخالتها كاملة تلك الليلة فوق فراشهما دون نوم، كُل منهما في ملكوتها الخاص تسبح.

●●●

صعدت أم يونس إلى شقة عهد فلم تفتح لها، وتناهى إلى سمعها صرخات من خلف الباب كأن عهد تتكلم إلى أحد فأشاحت عن رأسها فكرة أن مسًّا أصابها من المقابر، أو أن عقلها قد ذهب، ووضعت يدها على فخذها متوجعة مُخاطبة نفسها بأنها ليست صغيرة السن ويجدر بها أن تهتم بصحتها كما تهتم بالآخرين ومشكلاتهم، فبعض الأنانية لن تضر، والقرار بأن تعيش لنفسكَ وليس للآخرين يُعد في حد ذاته انتصارًا، فدعت ما يحدث في الداخل يحدث وانصرفت راضية تاركة الكثير من الأسئلة عند الباب، أقنعت نفسها بأن السعي وراء معرفة كل تفصيلة غامضة يُفسد على المرء حياته، فقد استنفدت كل طاقتها مع عهد لاقتحام الخندق المنيع الذي تقوقعت داخله لاستفحال شعورها بالإحباط بَعدما ذهبت بصُحبتها وامرأة المقابر إلى المكان الذي شاهدت فيه عبد الرحمن فلم يجدوه، فَرَجَتِ المرأة أن تتصل بها إن رأته مرة أخرى، ووعدتها بجزيل العطاء وكل ما ترغب فيه، ومنحتها رزمة من النقود ورقم هاتفها، واختفت بَعدها المرأة بين المقابر وطار من بين يدها بعض النقود فلم تهتم، وفي تلك اللحظة تقدم نحوهما درويش هَرِم كان جالسًا أمام حوش قبر قريب يتابع ما حدث، للدرويش لحية طويلة بيضاء غير مُشذبة، ووجه يابس أحرقته أشعة الشمس الحارة، جلبابه متهرئ يميل إلى الاصفرار كأنه كفن قديم في قبر، فأخافهما واقشعر جسد أم يونس منه وأمسكت بذراع عهد وبصوت كالعواء قال لهما:

- لا تُصدقان المرأة التي كانت واقفة معكما فلا شيء مُتزن تمامًا هنا، فمَن الذي يبقى سويًّا مُعَافى ويعيش مع الموت في ذات الوقت، الشيء الوحيد الذي يُصَدَّق هنا هو تراب الأجساد المغلق عليه أبواب هذه القبور.

لم تعرف أم يونس وعهد ما الذي صلب أقدامهما ومنعهما من الحركة أو النطق وظلا يستمعان له وهما يرتجفان مواصلًا كلامه:

- قد تكون تلك المرأة شبحًا أو روحًا مُعذبة، وقد أكون أنا نفسي روحًا مُعذبة.

واستدار مُبتعدًا يتكأ على عصاه.

فتأبدت عهد منذ ذلك الحين تحت دثارها لكي تَبعد أختها فدوى الغاضبة عن مُقلتيها، فقد فعلت كل ما يمكنها للوصول إلى عبد الرحمن.

●●●

نامت مارتينا نومًا غير هنيء، تنام وتستيقظ عدة مرات إلى أن فتحت عينيها على صوت غلق باب المسكن، فرجحت خروج أبي القاسم وحاولت النهوض لكن ألم جسدها كان لها بالمرصاد، فلم تستطع، فدلكت ساقيها واليدين بالكتف، ثم وقفت بتوجع وتوجهت بتؤدة إلى الردهة الطويلة المفضية إلى باب الشقة تتفقده فوجدته مُقفلًا كما النوافذ، فجلست على أريكة صغيرة بالصالة، ونظرت حولها فسيطر عليها الخوف؛ ففي الزنزانة كان الوضع مُختلفًا، فالنساء لم يشكلن لها الحماية لكن كان يبعث في نفسها بعض الجَلد أن هناك مَن يشاركها الخوف ومواجهة المجهول.

غاصت يدها أسفل وسائد الأريكة باحثة عن ذلك الشريط الذي تناول منه أبو القاسم قرصًا أمس إلى أن أمسكته وقرأت الاسم Captagon – كبتاجون، نوع من المخدرات، فحزنت أكثر لما وصل إليه وأعادته مرة أخرى إلى مكانه وتنهدت قائلة: «كبر الطفل وقَتل أجمل ما كان فيه»! واسترجعت بعض كلماته التي تكشف عن أن حياته صارت لا مكان فيها للنساء وتحيرت، فالرجل عادة يزهد النساء عندما يُحب إحداهن حُبًّا عميقًا أو عندما يكَره إحداهن كُرهًا عميقًا، «لِمَ تشغل بالها؟!» فالأحرى بها أن تقلق بشأن البلاء الذي هي فيه الآن والبلاء الذي في طريقه إليها وهي تجهله متمتمة:

- هكذا المرأة دائمًا تَدُسُّ أنف العاطفة في أي شيءٍ وفي أي وقتٍ حتى في أصعب الظروف.

وفي دورة المياه فتحت الصنبور فَأَحْجَمَ الماء عن النزول، ونزعت ضِرْسًا تخلخل من موضعه نتيجة صفعة قوية تلقتها أثناء أسرها في المشفى، رأت أن تتحمل ألمًا كبيرًا دفعة واحدة على أن تتحمل سلسلة آلام خاطفة لا تنتهي، تدفق الدم بغزارة، فضغطت مكان الضِرْس المنزوع بمنديل ورفعت رأسها إلى الحائط الخالي من المرآة ثم خفضته، كانت ترغب في أن تتأمل ذلك المخلوق المشوه نفسيًّا وجسديًّا الذي أصبحت عليه وكان خيرًا لها ألا تراه.

عادت إلى الغرفة ثم سمعت أصواتًا في الخارج فأسرعت بإغلاق الباب عليها في رعب، اقتربت الخطوات، أيكون قد جاء موعد فصل رقبتها عن بقية جسدها بوحشية؟ أتنتهي الآن؟! توقفت الأقدام عند باب الغرفة، الأنفاس قريبة منها، قريبة جدًا، وبصوت غليظ النبرات:

- أسرعوا في الخروج من المطبخ.

عم الهدوء برحيلهم فذهب عنها بعض الرعب. هداها التفكير إلى عدم استثارة أبي القاسم، فطهت بعض الطعام السريع من الأغذية المعلبة والخضراوات التي أصبح المطبخ عامرًا بها ووضعته

أمامه عندما عاد وسحبت كرسيًّا لتجلس، فأومأ إليها بأن تجلس على الأرض فامتثلت وكادت تبكي، فرغ من طعامه:

- يمكنكِ الآن أن تأكلي.

- لا أتضور جوعًا.

- جيد. أحضري لي المزيد من الماء.

فأحضرت، فنظر إليها رافعًا الكوب إلى فمه:

- ما الذي جاء بكِ إلى بلد الجهاد؟

- أي بلد جهاد تقصد؟

- سوريا.

وأردف متهكمًا:

- أتحسبين ما تفعلينه خدمة للإنسانية.

- كُل منا يفعل ما يظنه صوابًا.

- في صف أي من القوى أنتِ؟

- لستُ في صف أي من القوى المتناحرة، لقد جئتُ إلى هنا من أجل الذين يُسحقون بلا ذنب.

وتابعت بازدراءٍ:

- والأمر المؤكد أنني ضد تنظيمكم داعش.

فنفرت عروق رقبته وخبط بقبضته الطاولة:

- تُسمى الدولة الإسلامية لا داعش.

وبلع قرصًا من ذلك المُخدر ومرت فترة من الصمت قطعتها هي:

- هل أنتَ مَن قُمت بذبح باتريك؟

- وما الذي يهمكِ في ذلك يا جارية؟

فكظمت غيظها وأخذت تفرك يديها بعصبية فواصل:

- لا، لكني شاهدتُ قطع رأس ذلك الزنديق.

لم يكن في أحلامها أن تُصلح خلله النفسي وترده عن انحرافه الفكري على يد تنظيم متطرف، أرادت فقط أن تَعرف إلى أي مدى غدا من النقيض إلى النقيض، فاستمرت في تساؤلاتها بحرص لكي لا يفقد صبره:

- هل قُمتَ بالذبح قبل ذلك؟

- ما هذه الأسئلة التي تتسم بالغباء؟! لا، لم أفعل بَعد، ولكني سأفعل في وقت لاحق، فالذبح دليل القوة والولاية.

- ماذا تفعل من أجل التنظيم إذًا؟

- أنا هنا من أجل الفتح الأعظم وتطهير الأرض التي هربتِ أنتِ وعائلتكِ من أسقامها وارتميتم في أحضان الغرب.

- وماذا عن عائلتكَ أنتَ؟

- لقد قطعتُ صلتي بهذا العهد منذ أن جئت إلى هنا وعرفتُ طريق الحق من الضلالة والكفر.

- ربما لم يكن الماضي بهذا السوء الذي تظنه وربما ينتظركَ في المستقبل ما هو أسوأ.

فلم يرد، ودخل غرفته الدائمة الغلق في غيابه وعاد وقذف بعدة ملابس مُتسخة في وجهها:

- قومي بغسلها الآن.

رجعت وناوشتها ذكريات طفولتهما المشتركة وقالت:

- أيمكنكَ القتل؟! لا، أظنكَ لا تفعل.

- إننا لا نتخلص إلا ممَن يقف ضد إقامتنا لمدينتنا الفاضلة.

- ما من مدن فاضلة تقام على إراقة الدماء، فالدماء لا تجر إلا مزيدًا من الدماء.

بدأ مفعول القرص المخدر يلعب برأسه فذابت من أمامه تحمل الملابس المتسخة قبل أن يكتسحها غضبه، وسألت هذه المرة نفسها حائرة: «متى يتلوث الإنسان؟ من أول قطرة دم يسفكها؟ أم من أول كذبة يكذبها؟ أم من أول مرة يخدع فيها غيره؟ أم من أول سرقة؟ أم من أول افتراء؟ استقواء... يا لجُرم الإنسان وخطاياه، يحتاج إلى التطهر الدائم، وليس الجميع يسعى للتطهر كما يسعى للتلوث».

دق الباب فكان الطارقَ أبا معاوية، وهو رجل ضخم البنية، عريض المنكبين، فدعاه إلى الدخول:

- تفضل يا أخي.

كان مُتعجلًا فدفع جاريته روجدا إلى الداخل لكي يُبقيها لديه أثناء غيابه في مهمة قصيرة وخطرة قد تستغرق يومين أو ثلاثة أيام؛ لتكون بذلك بعيدة عن اضطهاد زوجته فإن عاد استردها وإن لم يَعُد يفعل بها أبو القاسم ما يشاء، فتكون له أو يبيعها، وأعطاه حجة الملكية مواصلًا حديثه:

- فما حاجتي إليها وأنا سأكون في الجنة مُحاطًا باثنتين وسبعين حورية.

وضحك عابثًا بلحيته: ألن تُرِيَنِي جاريتكَ يا أبا القاسم؟!

فأدار له ظهره مبتعداً واقتربت روجدا تودعه بمغالاة وخلاعة وعين منذرة بالبكاء، شاهدت مارتينا ما يحدث من فتحة صغيرة بباب الغرفة مما جعلها تتجنبها طوال فترة إقامتها معهما، فقد تذكرتها منذ اللحظة الأولى بوجهها المربع وقُصَّة شعرها التي تصل إلى الحاجب، كانت سجينة بنفس الزنزانة الأخيرة وكانت حينئذ صموتة حتى في أشد المواقف التي مرت عليهن فزعًا وبَعد يومين ثقيلين كغيرهما من الأيام على مارتينا هناك رجع أبو معاوية سالمًا من مهمته وطالب باسترداد روجدا، وكان باديًا عليها السعادة لرجوعه وتعلقت برقبته فأبعدها عنه بحدة فنظرت إليه بخضوع ورحلا وظلت دهشة مارتينا، وبَعد مرور بعض الوقت وقع تفجير في البناية المجاورة لمسكن أبي القاسم أخذ كل ما في مُحيطه من شدته.

●●●

جلبت دنيا احتياجاتها من قسم الخضراوات والفاكهة بمتجر البقالة واتجهت بعربة التسوق إلى قسم آخر وعلى ذراعها رضيعتها النائمة، وقبل أن تستدير بالعربة رأت مصطفى جالسًا أمام جهاز الحاسوب يُحَصِّل قيمة مشتريات أحد الزبائن فتوقفت ونزلت ببصرها إلى بنصريه فوجدتهما خاليين من أي دبلة ارتباط، يده تلك التي ربتت عليها وجففت دموعها حين مات أخوها وهي طالبة في الجامعة فكان حزنها البوابة التي عبر منها إليها، أجاد النفاذ إلى القلب من خلال الجرح وفي هنيهة من الوقت تذكرت أيام حبهما الذي كان وتذكرت بأسى أكبر الطريقة التي تركها بها ليتزوجها غيره:

- لا أنوي الزواج الآن.
- إنها مجرد خطبة لإغلاق الطريق في وجه أي خاطب.
- ليس الآن.
- متى؟
- لا أعرفُ، أرجو أن نظل على تواصل بَعد ذلك.
- إذا تزوجتُ إمعة.

فاختلجها الحزن وضيق لا يوصف وإذا بمغناطيسٍ ما جعله ينظر إليها، فأفلتت العربة من يدها ودارت حول نفسها وخرجت من المتجر مُرتبكة، بينما ظل مصطفى في مكانه وكل ما فعله أنه تناول علكة النعناع مُستأنفًا عمله هامسًا لنفسه بسؤال أحمق:

- أكانت هي؟!

على الرغم من يقينه الشديد أنها هي.

ابتعدت عن المتجر تاركة داخله فأرًا، وجال في رأسها أن الماضي لا يُدفن في أرض بعيدة بل يُدفن في العروق لا سيما عروق النساء إلى أن يهب واقفًا قارعًا أجراسه من جديد لكنه قلما يُزعج الرجال، قلما يُزعجهم أي شيء. لا تعرف لماذا تخيلته والزبائن مُلتفين حوله بَعدما خرجت من المتجر وبحرارة سألوه:

- لِمَ تركتها؟

فرد ساخرًا: امرأة ماجنة سارعت في تصديقي حين قُلتُ لها أُحبكِ!

كانت باسلة استطاعت أن تتخطى التجارب القاسية واستمرت حتى الآن قيد العُقلاء، فقررت أن تنسى أنها جاءت إلى هذا المكان ورأت ذلك الجندي الهارب من أرض معركة قديمة، ذلك الحبيب الهارب.

●●●

أصبح حزن أحلام صعب المنال للأعين، فقد طمرت ذلك الحزن بعيدًا هذه المرة فالذي هجرها لن يأتيها راكعًا وما عادت تريده أن يأتي، نسقت المنتجات اليدوية التي صنعتها خالتها كاملة في الركن الذي خصصته لها في المحل ما بين مفروشات وحقائب بَعد أن شجعتها على الإنتاج وكان إقبال الزبائن عليها مُرضيًا، وأثناء ذلك دخل عليها امرأة وشاب يافع أسمر البشرة، مضى بَعد ثوانٍ واقفًا في الخارج وانتقت المرأة سُترة وسألتها عن ثمنها ثم ابتسمت موجهةً عينيها نحو الشاب اليافع الواقف أمام واجهة المحل الزجاجية وأفصحت بلا تردد:

- هذا أخي، لقد رآكِ من قبل.

متابعة: إنه في الحقيقة مُعجب بكِ ويريد أن يتقدم لخطبتكِ.

ودون تَرَوٍ: شكرًا لمشاعره.

فدُهشت المرأة من الرد:

- وبَعد؟!

- ما من بَعد.

فقطبت المرأة ما بين عينيها وتمنت أن تُلقي بالسترة في وجهها قبل أن تغادر قائلة: «مَن تظنين نفسكِ لترفضي أخي؟!»

أما أحلام فكانت على قناعة بأنها في حاجة إلى بعض الوقت لكي تستعيد مشاعرها عافيتها، وللمشاعر حين ذلك ما تريد، وسالت من عينها دمعة، وفي هذه اللحظة جاء والدها فمسحتها على الفور بظهر يدها واستقبلته بحبور، ثم ذهبت لتأتي إليهما بالغداء، وبَعد أن قطعت مسافة من الطريق شعرت بأن هناك مَن يسير على خطواتها فانعطفت يمينًا للتأكد وقبل أن تلتفت لتنظر وراءها، كان هذا الشخص المريب السائر على خطواتها قد مد يده مُتحسسًا جسدها من الخلف مُستغلاً هدوء الشارع، فاحمر وجهها غضبًا بَعد فعلته الشائنة تلك، وتراجع مُسرعًا لم يصور له خياله أنها قد عزمت على اللحاق به، فانطلقت في أثره دون حذائها وساعدها على خفة الحركة ارتداؤها للبنطال، فأسرع مُرتكب الحماقة الذكورية أكثر لكي ينجو بنفسه لكنها تمكنت من الإمساك بقميصه من الخلف فتعثر وسقط، اجتمعت فيها قوة كل نساء الأرض وأخذت تضربه حتى كاد يموت بين يديها، شعرت أنها تثأر لنفسها ولكل أنثى قهرها رجل فصرخت فيه أو ربما كانت تصرخ في مصطفى:

- نحن لسنا لإشباع شهواتكم فحسب، لسنا لقضاء لحظة فحسب، نحن لسنا للتجربة!

وأصرت على أن تُحرر ضده محضر تحرش في قسم الشرطة فأيدها بعض الأهالي الذين احتشدوا حولها وشاركوها في عجنه، أما مَن حاولوا تخليصه من قبضتها فكانت وجهة نظرهم أنه نال كفايته، تمكن مرتكب الحماقة تلك من الفرار وقد تمزقت ملابسه وفقد إحدى نعليه وكرامته معًا، وسترافقه مدة ليست بالقصيرة بعض الخدوش والتورمات كمصدر للألم والعار.

تفرق الناس، ووجدت يدًا تمتد إليها بحذائها، فنظرت إلى صاحب اليد الممتدة فكان الشاب الذي أراد خطبتها، فشكرته على صنيعه بخجل واستدارت عائدة إلى طريقها وتعجبت من تصرفه فقد صار مسافة طويلة حاملًا حذائها إلى أن أوصله إليها على الرغم من رفضها له منذ قليل فابتسمت هامسة:

- له الشكر فقط.

لم تشعر بمثل هذه السعادة في الأيام السابقة؛ فهي لم تُوسع ضربًا رجلًا تعرض لها في الطريق فقط، بل أيضًا أوسعت ضربًا البُعد والتخلي، هجمت بكل قوة على الألم والخيبة، أصابت الضعف والحجج المُستهلكة بعدة رضوض ستترك فيهم أثرًا لأمد طويل، ولولا خشية أن يظنها الناس قد جُنَّتْ لَضَحِكَتْ ضحكات رنانة، ولَقَفَزَتْ كالأطفال مرحًا؛ فقد تحررت أخيرًا من شيء ما.

●●●

توقفت عهد منذ أيام عن تناول الدواء فزاد ذلك من اكتئابها وفقدها السيطرة على انفعالاتها، وعزفت عن الطعام فغارت عيناها في محجريهما، وهزل الجسد وسطت الرعشة على الأطراف والشفاه، توصلت إلى أن الكلام لا يغير شيئًا في حين أن الصمت يُريح من كل شيءٍ؛ لذا ما عاد يصدر عنها صراخ أو حديث إلى أحد حتى إلى أختها المتوفاة فدوى، وما عادت تستجيب لرنين الهاتف الذي لا يصمت وقد كان مصطفى آخر المتصلين بها ولم تجبه.

كانت في ذلك اليوم جالسة على سريرها ذاهلة وشاحبة، تحملق إلى الفراغ تارة وإلى هاتفها تارة أخرى، يخامرها شعور بأن أحد المحيطين بها يعرف مكان عبد الرحمن: «فَلِمَ لا يكون مصطفى مَن اختطفه؟! فربما كان حاقدًا عليه، فالحقد قد يجعل الإنسان يأتي بأي فعل خسيس. ولِمَ لا يكون زيدان أو نيرة؟ لا، بل امرأة المقابر التي لم تقل لي اسمها عندما سألتها عنه، لا، بل ذلك المجذوب الذي قابلته، بل جميعهم تآمروا عليه، جميعهم أخذوه مني، أخذوه ولا يريدونني أن أتألم، لا يريدونني أن أُعَافِرَ لاستعادته، وفوق ذلك يعاملونني كمَن غادرها عقلها، فعندما يصعب استيعاب تصرفات شخص ما يكون الأسهل تصنيفه على أنه مجنون بدلًا من محاولة فهمه»، وشعرت فجأة بحرارة تسري في جسدها بَعد البرودة التي

اجتاحته، لم تستطع أن تحدد إن كانت هذه الحمى التي داهمتها عارضًا مَرَضِيًّا أم هي حُمى الحزن.

نهضت بساق كادت تتهاوى بها وفتحت النافذة حتى سُمع صوت عنيف لاصطدام مصراعيها بجدار البناء من الخارج، وراقبت المارة من الداخل مسترسلة في الأسئلة التي تطرحها على نفسها دون أجوبة: «أين الصدق؟ أين المصداقية في هذا العالم المكتظ بالزيف؟ إن وطئت بقدمي أرض التساؤلات لن أصل إلى إجابة شافية وعن التساؤل لن أكف، أتعايش كأني ضرير فارغ الجمجمة فحسب. جميعهم كاذبون لا يريدونكَ أن تغفو في حضن أمكَ يا عبد الرحمن».

لو حدث ورفع أحد المارة رأسه إلى نافذتها في تلك اللحظة لهلع من هيئتها إن حدث ورآها بعينه المجردة لا بعين الرحمة، سمعت طَرْقًا على الباب وصوتًا كله رجاء:

- أنا نيرة، افتحي يا أمي.

ففتحت لها كأنها كانت في انتظار قدومها، ولم تُبَالِ بالضوء المنبعث من الشقة المُقابلة الذي يدل على أن زيدان في الداخل ينتظر ولم تَسْتَجِبْ لمحاولة عناقها وجلست في مواجهتها تنظر إلى أي شيء عدا وجهها، فشعرت نيرة بأنها غير مرغوب في وجودها،

لكنها لم تُعَلِّق على هذه المعاملة وهي ترى أمها على هذه الحالة، فترة وجيزة من الصمت وتَفَرَّسَتْهَا عهد بنظرة محمومة:

- ما الذي جعلكِ تتركين دراستكِ وعملكِ وحياتكِ أجمع؟ من أجلي؟!

- أجل يا أمي.

- كاذبة يا ابنة أبيكِ.

وقامت وأمسكت بذراعي مقعدها وقد زاد سخطها واتسعت عيناها:

- أين عبد الرحمن؟

فارتعدت واحتبس لسانها، وأردفت عهد بسخط أشد:

- ما الذي فعلتيه به؟ لقد عرفتُ كل شيء لكني أريد سماعه منكِ أنتِ.

كانت تهذي بأي كلام لكنه أصاب نيرة بالارتباك وغرقت في عرقها والحيرة وحاولت الفكاك لكن قبضة أمها كانت قوية فانهارت مُعترفة.

●●●

بأمان ودعة نامت مارتينا ليلتها على فراش نظيف ولين. فتحت عينيها المحتقنتين بالدماء وتحركت ببطء فنامت على جانبها الأيمن ثم عادت إلى النوم على ظهرها مرة أخرى مُتأوهة من جروح جسدها وجبيرة ذراعها اليُسرى، ثم أمعنت النظر في أزهار الزنبق التي تملأ أناء زجاجي فوق منضدة صغيرة أسفل نافذة مَرْخِيّ عليها ستارة ناعمة، وتنفست ذلك الهواء الذي يحمل بعض الرائحة العطرية للأزهار. ما تزال لا تصدق أنها الآن داخل غرفة بمستشفى في تركيا وعلى الكرسي المجاور لها أمها غافية، بينما والدها في الخارج مع مراسلي وكالات الأنباء والقنوات الفضائية التي تريد مُقابلتها، فهتفت سرًا: «هل نجوت؟!» واسترجعت ما حدث وعملت على تحليله..

كان التفجير الذي وقع شديدًا دَمَّرَ جزءًا كبيرًا من البناية التي نزلت بها سبية، صوت روجدا الرخيم الهامس لها قبل أن تغادر بصحبة أبي معاوية رن في أذنها الآن:

- ابْقَيْ في ذلك الجانب من المسكن من أجل آذاد.

فاستغربت من طلبها هذا ومع ذلك لم تسألها حينئذ عن السبب. روجدا إذًا هي مَن قامت بالتفجير، ولكن كيف؟ يبدو أنها أرداتها أن تبتعد عن موجة التفجير لعل يُكتب لها النجاة أو يصيبها قليل من الضرر، تذكرت اسم آذاد، إنها الفتاة التي لفت

على رقبتها الوشاح وذهبت طوعًا إلى الموت، هاربة من حياة لم يعد فيها غير الذل وهتك العرض، وتذكرت أن روجدا كانت دائمًا مُلاصقة لها في الزنزانة، فقد يكون بينهما صلة قرابة أو صداقة، لكنها لم تُصدر أي رد فعل وقت أن انتحرت آزاد شنقًا، فما علمت إحداهن وقتها حجم ألمها غير الظاهر فدون صرخة تألمت، دون دمعة وهكذا وصلت إلى أقصى آفاق الألم. وها هو ذا الغضب المكبوت جعلها تقتص لها ولنفسها وللأخريات سواء أكانت تعرفهن أو لا تعرفهن، فتمتمت بصوت لا يكاد يُسمع:

- ضحت بنفسها، فحق الضعفاء لا يأتي إلا بتضحيات ثمينة!

وتخيلتها وهي تلف بلا تردد أو خوف حزام ناسف على خصرها تمكنت من الاستيلاء عليه في لحظة ضعف وغفلة من أبي معاوية كأن يكون مخمورًا أو متعاطيًا للمخدرات، وقد يكون في ذلك اليوم أيضًا يجتمع عنده بعض الدواعش يشاطرونه اللهو والتعاطي كالعادة، ومن الجائز أنه كان من بينهم مَن اغتصب آزاد نفسه. أثر فيها أنها كانت أكثر شجاعة منها، فعلت ما لم تستطع هي فعله لكنها رأت أنه فوق شجاعتها مهدت لها الفرصة الطريق.

بدأ مفعول المسكنات يختفي من دمائها فآلمها قيامها ببعض الحركات البسيطة كبسط يدها اليمنى وثنيها لتشرب، ثم واصلت استرجاع الأحداث الأخيرة التي مرت بها وانتهت بها إلى حيث هي الآن..

نفذت ما طلبته منها روجدا ولا تعرف لماذا نفذته. وقع التفجير وتطاير فوق رأسها أجسام صلبة تمكنت من الخروج من تحتها بشق الأنفس، كانت الرؤية غائمة أمامها من تصاعد الدخان، وضغط الهواء الشديد الذي أحدثه التفجير أصاب أذنيها بالتشويش، شعرت بالدماء تجري على جلدها من مواضع عدة بجسدها وتكفل إحساسها بإخبارها بمدى شدة إصابة ذراعها اليسرى. انقشع الدخان قليلًا وكشف تهدم بعض الجدران عن نور الطريق فحاولت الخروج من بقايا البناية فتعثرت عدة مرات، وشعرت في المرة الأخيرة من التعثر بحركة أسفل قدميها فاستنتجت أنه أبو القاسم وأن الحياة لم تفارقه بَعد على الرغم من أنه كان في الجهة القريبة من مصدر التفجير، ففركت عينيها من الأتربة وفكرت وهلة أتساعده أم لا؟ إنه روح في مأزق لكنه في انتظار التوقيت المناسب ليحصد أرواحًا بريئة، وبيدها غير المصابة أزالت الكتل الصغيرة المكدسة فوقه إلى أن ظهر وجهه وتنفس وزحزحت أحجارًا أكبر بعض الشيء عن صدره، أما بقية جسده فقد كان محشورًا تحت ما هو أثقل من ذلك ووقفت بالقرب منه يغشاها الغبار وجروحها تتضح بالدماء وبيدها آخر حجر رفعته من فوقه وبصوت ضعيف آتٍ من أسفل:

- ستقتلينني بهذا الحجر؟

- لا تريدُ لنفسكَ الموت، فلماذا تريده للآخرين؟!

وأسقطت الحجر من يدها فقال لها: اذهبي.

فنظرت حولها في قلق:

- أظن أن الطفل النقي الذي عرفته يومًا ما يزال بداخلكَ، امنحه فرصة لكي يتفوق على فَزَّاعَة القش التي أراها الآن.

وأردفت:

- إذا حدث ونجوت فمت وأنتَ تحاول العثور على مخرج لنفسكَ خير لكَ من أن تموت وقد خسرتها. أنا سأحاول وربما لن أنجح لكني سأحاول.

وانسلت من البناية على حذر لا تتبين مواقع قدميها، مُقاومة الإغماء استجابة لألمها والدماء التي فقدتها. رأت قرب الباب الخارجي أشلاء مُتفحمة، وهيكل أسود خاص بسيارة للحسبة وامرأة هوى السقف على نصف جسدها السفلي واخترق حديد التسليح عنقها، اتساع عينيها على آخرهما يدل على الفزع الكبير الذي قابلته قبل أن تفيض روحها فعرفت لَمن تلك العينين، لَمن جرعتهن العذاب، عين السجانة، أم الأشرف.

حل الظلام سريعًا فساعدها على العدو في خفائه تضم إليها يدها الجريحة، وظلت تعدو وتنزف لا تلتفت يمينًا ولا يسارًا، ينجرح باطن قدمها ولا تتوقف، ابتعدت مثابرة إلى أن تدهورت حالتها وزلت قدمها وسقطت بين بيتين أحدهما مُدمر وغير مأهول فسمع أنينها من خلف النافذة رجل في خريف العمر، فهرع إليها وأعانها على النهوض وهو يحوقل مُناديًا على زوجته ليدخلاها معهما إلى البيت، أطمأنت بينهما وأسعفاها بما هو متاح لديهما، وفي المساء التالي استطاع الرجل أن يصلها إلى عضو هيئة الإغاثة المدعو مازن، فابتهجت لرؤيته حيًّا، وعلمت منه أن أفراد البعثة وكل مَن كان في المستشفى الميداني حتى شيرا والطبيب أسامة في عِداد الموتى فبكت الجميع، ووعدها بترتيب أمر عودتها من حيث جاءت، وأتى إليها بطبيب ليفحص جروحها.

عبرت معبر باب الهوى هذه المرة بمفردها فانتحبت على ما لاقته من عذاب وعلى مَن فقدتهم وعلى رفيق طفولتها الذي رأت خوفه من أن تُجهز عليه، تَعرف أن بذرة الشر لا بد أن تُقتلع لكنها ليست فأسًا، وربما إذا كُتبت له الحياة مجددًا يعود إلى نفسه السابقة!

انتبهت أمها لنحيبها فدعتها إلى الاستلقاء والراحة، فطلبت منها مارتينا أن تسافر إلى موطن جدها فدهشت من ذلك الطلب لكنها هزت رأسها بالموافقة.

●●●

انطفأت شمس قرية برج مغيزل ذلك الصباح وتلبدت السماء بسحب الحزن والشاطئ بالأهالي والهواء بالعويل ببحث البلنصات عن ناجين من غرق مركب للهجرة غير الشرعية وانتشال جثث الضحايا، وفي غضون ذلك على البر، سار بين الأهالي شاب مُبْتَلّ من رأسه حتى أصابع قدميه، أبعد مَن أبعد عن طريقه وأمسك برقبة سياسي ورفعه إلى أعلى حتى ابتعدت قدماه عن ملامسة الأرض، كانت له عافية مصارع فلم يستطع أحد أن يُخلص سياسي من قبضته صائحًا به:

- سأقتلكَ إن لم تُخبرني أين أجد سيدكَ الذي باع لنا الموت.

فأوشك سياسي أن يختنق مُتعتعًا:

- لا سيد لي.

فخفف قبضته عنه والتفت إلى الأهالي وصاح بصوت غاضب بأن سياسي هو مَن قتل أبناءهم بتسهيل الوهم إليهم فأحدقوا بهما فتركه لهم مبتعدًا فجردوه من ملابسه إلا ما يستر عورته وجره مجموعة منهم ثم ربطوه على جزع شجرة واقترب منه الشاب الناجي ثانيًا وقد صار أكثر استعارًا:

- لقد خضت حربًا مع الأمواج لكي آتي إليكَ. أتظن أنني سأتركك حيًّا!

اشتد ضرب سياسي بالنعال والألواح الخشبية وبأي شيء طالته يد الأهالي فانسلخ جلده وارتوت الأرض من دمائه حتى اكتفت فدعاهم الحاج يوسف إلى تحكيم العقل وتسليمه للشرطة، فأشار إليه سياسي برأسه بتألم شديد فأقبل عليه وبما يشبه الهمس:

- لا تدعهم يقتلوني، إن لكَ كلمة مسموعة بينهم.

والتقط أنفاسه مُستأنفًا:

- ابنكَ سراج لم يمت، أعرفُ مَن يدلكَ على طريقه، اجعلهم فقط يحلون وثاقي.

فأصبحت الرؤية أمام الحاج يوسف غير واضحة، ووضع يده على قلبه الذي تَلَظَّتْ نبضاته ثم قال:

- أهي حيلة لخلاصكَ؟ لقد غرق سراج، ما هذا الذي تقوله؟!

فأقسم له بأنها ليست حيلة وأن ابنه لم يغرق كما أُشيع. فتحدث الحاج يوسف إلى بعض الرجال الذين يعرف عنهم القُدرة على التحكم

في الغضب فحرره أحدهم من جزع الشجرة مُتصلًا بالشرطة، فجلس قرب الجزع وأخذ نفسًا طويلاً وأدنى الحاج يوسف من فمه بعض الماء فشرب ومسح الدم عن وجهه ثم أفضى إليه بخفوت بأن المَوَّان هو مَن لديه المعلومات الكاملة عن قصة ابنه سراج، فسأله عن مكان وجود المَوَّان فأجابه بأنه ليس له مكان محدد لكنه كان يقابله في بعض الأحيان في موقف سيارات الأجرة بفيشا سليم فأخذ رأس الحاج يوسف يدور، لا يصدق كل ما سمعه لكنهم بَعد حادث الغرق لم يعثروا على جثتي سراج وابن عبد الحميد، ولم يتمكن حينذاك من النجاة غير أخ سياسي.

عاد الحاج يوسف في هذا اليوم إلى البيت في وقت متأخر من الليل ولم يستطع نقل هذا الخبر إلى زوجته التي قد يُجن جنونها أو أي أحدٍ من أفراد أسرته فقد يكون كل هذا اختلاقًا.

●●●

سمحت عهد لأم يونس بزيارتها بَعد محاولاتها العديدة التي أخفقت كلها على مدار الأيام الماضية، عادت وجلست على الفراش نصف جلسة بَعد أن أدخلتها ثم ارتشفت من يدها بأعجوبة قليلًا من حساء الدجاج الساخن الذي جاءتها به، ثم غفت لكي ترحل أم يونس لكن هذا لم يحدث وظلت قابعة في مقعدها تتأمل بأسى جسدها الضامر المُسجى أمامها إلى أن غفت هي الأخرى وارتفع صوتها غير واعية:

- يونس! تذكرتَ أخيرًا أن تزورني!

وعندما أفاقت وجدت عهد تنظر إليها بدهشة، فلم تمسك لسانها عن معرفة سبب هرولة نيرة على السلم باكية ومن خلفها زيدان، فقد أبصرتهما وهي تودع حفيدها عند الباب ولم يُلقيا عليها السلام، فاعتدلت عهد في جلستها قائلة لها بهوادة:

- لم أكن أدري أن نيرة تغار من عبد الرحمن وهي التي تحبه، أنا لم أفرق بينهما في المعاملة، لقد وجهت إلي تهمة التفرقة! وكيف تفعل به ما فعلته؟! كنتُ أظنها الوداعة فاتضح أنها الخُبث في قناع وديع، وتستر عليها زيدان أو أنهما اتفقا معًا، ما أخطأت في مناداتها ابنة أبيها.

وروت لأم يونس كيف تفاجأت بَعد مرور كل هذا الوقت بأن نبيهًا المحامي أخبر زيدان عن رغبتها في كتابة نصف الأرض التي تملكها لعبد الرحمن، فأسرع زيدان بإطلاع نيرة على ما عَلمه منه فطلبت مقابلة عبد الرحمن منفردًا واتهمته بأنه مَن أَثَّرَ عليها لكي تنقل ملكية نصف الأرض إليه.

توقفت عن الكلام وغادرت مضجعها قاصدة غرفة الجلوس وغطست في الأريكة فأدركتها أم يونس التي نسيت عهد وجودها، وربتت على كتفها مُشفقة فانتفضت شاعرة بها وواصلت:

- لقد دخل الشيطان بيتي، أفسد حياتي. لا، المَفْسدة كانت كامنة في النفوس فمهدت طريقه إلى الوسوسة!

وبدأت في البكاء:

- أين ذهب ابني؟! أين؟

فأمالت أم يونس رأسها عليها بلطف وحاولت أن تبعث في روحها الأمل بعودته، واستمرت عهد في السرد قائلة بأن زوج فدوى دخل في مشروعات عديدة خاسرة قضت على كل ما كان يملك تقريبًا، وعندما شعر والدهما بدنو أجله، خشي من أن يُضَيَّع زوجها أيضًا ما سترثه فدوى منه فسجل نصيبها لها على سبيل الأمانة بعلم فدوى وموافقتها لكي تريحه، كانت تعرف جيدًا

ذمتها البيضاء، وظل ذلك الأمر سرًا بينهم هم الثلاثة إلى أن وجدت أنه من الضروري إعادة الأرض إلى عبد الرحمن ليقيم له مشروعًا بَعد عدم توفيقه في أي وظيفة التحق بها.

أنهت روايتها وتركت أم يونس دون استئذان ورجعت إلى غرفتها مُستلقية على الفراش نائمة أو كأنها كذلك. كانت أم يونس تُقدر ما تمر به فتجاوزت عن كل ما يبدر منها منصرفة، ورفعت عهد رأسها قليلًا من فوق الوسادة وقد ساورها الشك قائلة بفزع:

- أقتلوه؟؟

وأطبقت جفنيها مرةً أخرى.

●●●

بمجرد أن استطاعت مارتينا الوقوف على قدميها، سافرت برفقة أبويها إلى مصر، لم يَحُولا بينها وبين رغبتها تلك بَعد أن عادت إليهما بمعجزة من السماء، وفي منتصف الثانية عصرًا وصلوا إلى بيت الجد المغلق سنوات طويلة وطوقته بابتسامة كأنها ترى هؤلاء الأطفال وهم يلعبون وكانت هي واحدة منهم وأثناسيوس إلى جانبها درع حماية من الحركات الطفولية المباغتة التي قد تؤذي. توجهوا بَعد ذلك إلى المقهى الجالس عليه والد صديق طفولتها بعدما أخبرهم أحد الجيران عن مكانه، عَرَّفَ له الدكتور داود نفسه وعائلته فتذكرهم مُرَحِّبًا بهم بطيف ابتسامة ودعاهم إلى بيته لكنهم جلسوا أمامه على المقهى، ثم روت له مارتينا ما حدث لها في سوريا أولًا؛ فلم تشأ أن تقذف بالخبر في وجهه مباشرة بأن ابنه سراجًا قد انضم إلى تنظيم إرهابي، فكاد يسقط عن كرسيه منكفئًا على وجهه من هول تلك النائبة التي حطت على رأسه لكنه تماسك قائلًا:

- كانت الفرصة أمامكِ. كنتِ أقدمتِ على قتله، لو نجا لن يتورع عن القتل.

واستدار برأسه ليخفي عينيه اللتين اغرورقتا بالدموع، فردت مارتينا:

- قد يعود إلى رشده.

صمت لف الجميع ثوانٍ فقطعته هي:

- ادْعُ له.

فنظر بتأثر إلى ذراعها اليسرى ذات الجبيرة:

- أهو مَن تسبب لكِ بذلك؟!

- لا، إنه نتيجة التفجير. لقد أحسن سراج معاملتي.

ودعته عائلة الدكتور داود مغادرة وجثم الهم على صدره عائدًا إلى البيت وجلس في غرفة النوم ذاهلًا عما حوله، فشعرت الحاجة صالحة بأن أمرًا ما يحدث له مما جعلها تجري اتصالًا هاتفيًا بمصطفى ونقلت إليه قلقها هذا. وبَعد أذان العشاء خرج من البيت دون أن يتحدث إلى أحد ويفصح عن وجهته.

وفي مساء اليوم التالي، استرد المَوَّان وعيه فوجد نفسه مكبل اليدين والقدمين بالكرسي الذي أُجلس عليه فاقدًا الوعي، فجذب يديه عدة مرات محاولًا الخلاص حتى أصابه اليأس ونظر حوله متوجسًا خيفة فرجح أنه في مخزن قديم مهجور، وعاد يجذب يديه مرة أخرى وأخفق. لم تحتفظ ذاكرته بالكثير من الذي حدث له، تذكر أن سيارة نقل جماعي اعترضت طريقه وسط الظلام الحالك بعدما ابتعد كثيرًا عن موقف سيارات الأجرة بفيشا سليم ونزل من تلك السيارة أربعة رجال أشداء ملثمين أخرجوه من سيارته بالقوة قبل أن يتمكن من القبض على زناد مسدسه

وإطلاق رصاصاته. لم تستمر حيرته طويلًا والتفكير فيمَن وراء اختطافه حتى دخل عليه الرجال الذين اعترضوا طريقه، فحدق إليهم إنها ليست أوهامًا إذًا! كان يتقدمهم الحاج يوسف سائرًا متمهلاً يفترسه بنظراته فبين يديه الآن مخلوق الشر الذي ألقى في طريق ابنه سراج مَن أدخل في رأسه مفاهيم خاطئة عن الدين وسقاه الكراهية، ودَبَّرَ مع سياسي حادث الغرق المزيف وهَرَّبَهُ إلى تركيا بطريقة غير شرعية، وربما هَرَّبَ أيضًا ابن عبد الحميد، غادر الرجال الخمسة المخزن وتركوه يصرخ بحدة متوقعة:

- لِمَ أتيتم بي إلى هنا؟ ما الذي تَنْوُون فعله بي؟

وصرخ بأعلى صوته مناديًا الحاج يوسف فقد كان لا يعرف غيره من بين هؤلاء الرجال، فلم يلتفت إليه ولم يجبه أحد منهم كان حرمانه من الحصول على إجابات عن تساؤلاته أشد وسائل العقاب تعذيبًا، فقبل هذه اللحظة عذب الكثيرين بإتجاره بهم للكسب السريع، بإرسالهم عبر البحر أو ببيع أعضائهم أو بيع أطفالهم، أو بمسح أدمغتهم وتيسير انضمامهم إلى التنظيمات التكفيرية، وعلى الرغم من كل جرائمه تلك، لم يترك وراءه دليلًا واحدًا يُدينُه ويرمي به في السجن؛ فقد أحسن اختيار رجاله فلم يعترف سياسي بشيء في تحقيقات النيابة.

●●●

وُورِيَ الجثمان الثرى. عرف مصطفى خبر الوفاة بَعد وقوعه بساعتين عندما رد على اتصاله صوت غريب غير صوت عهد، فحضر الدفن ووقف جانبًا في حزن يستمع إلى دعاء الشيخ فوق القبر فلمح عن يمينه امرأة لا يعرفها تبكي من صميم قلبها وترتعش، فاقترب منها للمواساة، كانت هذه المرأة هي أم يونس التي استمدت أهميتها في الحياة من وجودها إلى جانب عهد، ثم تركها ووقف أمام ضريح خافضًا رأسه بمزيد من الحزن:

- رحمكَ اللّه يا صديقي، رحمكَ اللّه يا عبد الرحمن!

فلم تُصدق أم يونس أذنيها عند سماعها ذلك، أو عينيها وهي ترى اسم عبد الرحمن مكتوبًا على لوحة رخامية أعلى مدفن.

قدم مصطفى واجب العزاء إلى زيدان ونيرة وخرج من المدفن وسار مسافة طويلة تحت أشعة الشمس الحارقة دون وعي أو شعور بالتعب، قادته قدماه من مقابر باب الوزير إلى كوبري قصر النيل، فمشى فوقه بتؤدة ثم وقف وحملق إلى المياه واقعًا تحت طائلة لوم الذات لتقصيره تجاه عهد، فالمرة الأخيرة التي رآها فيها كان يوم زيارتها له في القرية بصحبة زوجها الذي جاءه بمفرده قبل تلك الزيارة ليخبره بألا يذكر خبر موت عبد الرحمن أمامها لعلة قلبها وحالتها النفسية السيئة، ففي يوم خطبة نيرة اختفى عبد الرحمن بَعد أن قَبَّلَ جبينها في قاعة الأفراح متوجهًا بَعدها إلى المنزل، دخل غرفته ومزق بأسى شديد بعض الصور والأوراق، وارتدى سريعًا قميصًا زهري اللون وبنطالًا أسود وفتح النافذة بعصبية ورمى البدلة

التي خلعها فالتقطها حماد ابن حارس العقار، ذلك المراهق الذي صادف عودته في ذلك التوقيت من متجر البقالة القريب، له قامة تفتقر إلى بعض الطول لكنه سريع الحركة وحَذِر فلم يبحث عن صاحب البدلة وخَبَّأَهَا أسفل السرير مبتهجًا ولم يخبر أهل البيت عنها بخاصة والده الذي كان حينذاك يتفقد سطح العقار، وأثناء ذلك جمع عبد الرحمن أغراضه الشخصية ووضعها داخل حقيبة ورحل مُقَرِّرًا على ما يبدو عدم العودة ثانيًا لاتهام نيرة له قبل حفل خطبتها بأنه مَن جعل أمها تتنازل له عن نصف قطعة الأرض التي هي في الأصل حقه الشرعي، كان متأملًا من كلامها ومتألمًا أكثر من نظرات زيدان إليه.

ركب سيارته قاصدًا بيت جده لأبيه بالإسكندرية دون أن يُعلمه بمجيئه، وواصل عدم رده على اتصالات عهد الهاتفية، وبَعد مسيرة طويلة في الطريق الصحراوي سمع صرخات أنثوية ضعيفةً آتية من أمامه سُرعان ما تلاشت وسمع بعدها صراخ حبيبته أروى، ظل يسمعه إلى أن تفتت قلبه إلى قطع صغيرة فزاد من سرعته محاولًا اللحاق بالسيارة مصدر الصراخ، فتبين له أنها سيارة أجرة؛ ليموزين فأسرع أكثر واصطدم بها عدة مرات لكي يجبر سائقها على الوقوف فصراخ أروى لا يريد أن ينقطع، لا يريد، فأغضب ذلك مَن فيها؛ رجُل حليق الرأس في مقتبل العمر وسائق أشيب، فوقفت السيارة ونزل منها الرجل الحليق ووجد أمامه عبد الرحمن متوسط القامة، خفيف الشعر، أبيض البشرة، استطاع أن ينظر إلى داخل السيارة لنجدة مَن كانت تصرخ فرأى فتاة شابة فاقدة الوعى على المقعد الخلفي،

فاشتبك معه الرجل وباغته بضربة من آلةٍ حادة فوق رأسه فترنح وسالت دمائه وقبل أن يغمض عينيه ظهرت أروى كالنجم المضيء المتلألئ وسط الظلام تفتح له ذراعيها وتبتسم، وبقفاز يده سطا ذلك الخاطف على حافظة نقود عبد الرحمن وهاتفه والسيارة، وبَعد أن أتم مُهمته أجرى مكالمة من ذلك الهاتف أثناء انطلاق السيارة الأجرة وألقى بعدها بشريحته من النافذة وحطمه كما تخلص مستقبل المكالمة من الشريحة، وابتلعت ظلمة الطريق تلك العصابة الإجرامية.

عثرت الشرطة على جثة شاب مجهول الهوية مُلقاة على رمال الطريق، وعلى مسافة بعيدة منها سيارة محترقة في داخلها جثة فتاة متفحمة. واتضح فيما بعد أن الجثة المجهولة الهوية لعبد الرحمن، وعندما سمعت عهد ذلك النبأ لم تدمع عيناها، رفض عقلها وقلبها تَقَبُّلَ ما حدث له وتعاملت على أنه غائب وسيعود، إلى أن ساءت حالتها واضطر زيدان إلى علاجها في مصحة نفسية، وبَعد أشهر طويلة من العلاج أدرك عقلها موته وآلمها عدم القبض على قاتله، وظل حماد ابن حارس العقار يخبئ بدلة عبد الرحمن بَعد أن اكتشف دبوسها الذي يحمل اسمه وسبق أن رآه فوق بدله في بعض المناسبات، لذا لم يستطع أن يضع البدلة على جسده خوفًا من اتهامه بالقتل، وبَعد أشهر أخرجها وتخلص منها في كيس قمامة أسود قذف به فوق بعض النفايات البعيدة عن العقار فوجدها الرجل المجذوب واحتفظ بها في زكيبته إلى أن ارتداها.

وفي يوم زفاف نيرة الذي سافرت بَعده هي وزوجها إلى بريطانيا وقفت عهد عند باب قاعة الأفراح مُسترجعة لحظة اختفاء عبد الرحمن التي حدثت منذ عام من يوم الخطبة؛ فقد كانت بقاعة مماثلة لقاعة حفل الزفاف فتذكرت هرولتها حينذاك إلى البيت لعله يكون في غرفته، وتذكرت الإخفاق في التواصل مع صديقه مصطفى الذي كان هاتفه في ذلك التوقيت معطل فانتكست حالتها بَعد استرجاعها لتلك اللحظة، وعادت تبحث عن عبد الرحمن من جديد، وأصرت على أن تزور مصطفى فلم يمكنها التواصل معه هذه المرة أيضًا لتعطل هاتفه مجددًا بسقوطه في مياه البحر منذ أكثر من شهر، ولم يكن من زيدان وكل المُحيطين بها غير مجاراتها لكي لا تسقط صريعة الأحزان لكنها في النهاية سقطت.

وَلَّى مصطفى ظهره للمياه بعدما تذكر مأساة عهد وصديقه وبسط ذراعيه فوق سور الكوبري ناظرًا إلى السماء التي امتدت بها الغيوم متمتمًا بوجع:

- أفتقدكَ يا عبد الرحمن، أفتقدكَ. في الجنة يا صديقي أنتَ وسراج!

●●●

وقف الحاج يوسف عاقدًا يديه وراء ظهره شاردًا ينظر إلى حركة المياه التي تغدو وتروح قُرب المراكب الراسية. كان ما فعله بالمَوَّان سرًّا بينه وبين الرجال الأربعة من أهالي الضحايا بآخر حادث غرق، وقد يكون علم السر أحد خارجهم، وآثر الصمت.

قرص منوم قوي التأثير ذائب في كوب من الماء أُسْقِيَ للمَوَّان لكي ينقذه من عطشه فنام كما القتيل ووُضِعَ داخل صندوق خشبي يسعه وأُلْقِيَ عليه بعض شباك الصيد مع إبقاء جزء جانبي دون تغطية لكي يتنفس وحمله الرجال الخمسة قبل شروق الشمس بدقائق وأبحروا بمركبين وفي العمق المطلوب حرروه من الصندوق والأغلال ونقلوه إلى المركب الآخر وهو ما يزال غائبًا عن الوعي وابتعدوا عائدين، فاستفاق في قارب يتمايل مع أقل موجة تمر به، وأصابه الذعر وهو يرى داخل القارب دمى يدوية صُنعت من الخيش على عُجالة بغير إتقان وملصق على رؤوسها صور تقترب من الحجم الطبيعي لوجوه أناس لا يعرفهم غير وجه سراج فاستشف أنها صور بعض الغارقين على مراكبه للهجرة غير الشرعية، فحاول التخلص منها بإلقائها في المياه وكذلك الأثقال التي ستتسبب بغرقه لكنها كانت مثبته بقيود في القارب فلم يمكنه انتزاعها وأدرك أنه هالك لا محالة، فشعر بالاختناق وخُيِّلَ إليه أَيَادٍ تخرج من المياه، مئات، بل آلاف الأيادي تحاول سحبه إلى أسفل.

لم يجد أي مركب أو سفينة على امتداد بصره، فبحث في جيب سترته عن أي شيء يمكن أن يساعده فلم يجد غير ورقة مطوية خُط فيها «كنتَ تود الحصول على مركبي الكهل، وها أنت حصلتَ عليه الآن. إذا نجوت بطريقة ما وعدت إلى القرية ستجد حتمًا في انتظاركَ مَن سيقتلكَ، وإن تمكنتَ بإعجاز من الوصول إلى أي بلد فهنيئًا لها بكَ، أَصْغِ إلى البحر، أَصْغِ إليه جيدًا ستسمع أصوات ضحاياكَ» فنظر حوله مجُددًا وقد زاد ذعره وكاد يفقد عقله بَعد أن بدأ يسمع الأصوات، أصوات فوق الاحتمال، تصرخ وتئن.

استكمل القراءة وجسده كله يرتعش «ستجد لديكَ طعامًا وهو ليس كافيًا، وستجد لديكَ ماء نقيًّا وهو ليس كافيًا، فقد مات الكثير من ضحاياكَ وهم يتلوون جوعًا وعطشًا، فَلْتَتَلَوَّ أمعاؤكَ الآن» فسد أذنيه عن الأصوات التي تزداد وامتدت إليه الأيادي أكثر وأكثر.

وفي وقت مبكر من ذات اليوم عاد مصطفى إلى القرية وتَرَجَّلَ بمحاذاة الشاطئ حتى وصل إلى والده الذي انشرح برؤيته وطال العناق بينهما، كان كلٌّ منهما في حاجة إليه خاصة والده فقد جاءه مَن سيقاسمه عبء سراج الذي لم يكن في الحسبان إلا أن ما حدث للمَوَّان ظل في مكمنه بعيدًا عن علم مصطفى الذي سارع بالسؤال عنه:

- وماذا عن المَوَّان؟

- انْسَ أمره، هناك أمور في الدنيا لا بد أن تُنسى لكي نواجه ما هو قادم.

- وأين مركبنا؟

- غرق.

- من تلقاء نفسه؟!

- لقد تَعِبَ، والتعب وحده قادر على أن يجعله يغرق من تلقاء نفسه، وقد يكون في غرقه نجاة.

كان الحاج يوسف يعرف جيدًا أن التخلص من المَوَّان سواء بالغرق أو ببلوغه بلدًا آخر لن يكون الحل الجذري؛ فسيظهر أمثال المَوَّان ما دامت التربة خصبة لترعرعهم وتفرع أغصانهم بين اليائسين والضعفاء، لكنه استطاع أن يجعله يُعايش الخوف من الموت الذي دفع الكثيرين إليه وذلك الضياع الذي قذف ابنه وغيره فيه، رجع الحاج يوسف إلى البيت وبقي مصطفى منفردًا بنفسه بعض الوقت وركل الحصى بمقدمة حذائه مهمومًا ثم قال مخاطبًا الفراغ:

- مات صديقي وضاع أخي فإلى أين أيتها الحياة ذاهبة بي؟ وأين أنا؟ أين أنا منكِ ومن هذا العالم؟

وفي طريقه إلى البيت مرت بجانبه أحلام مُشرقة الوجه، تحمل بضائع للمحل والتقت أعينهما فلم تتهافت عيناه عليها، لمست فيهما الألم فقد كانت دائمًا مقياسه للحزن، تلتقطه دون أن يُفصح، كانت فيما مضى يؤلمها ألمه أما الآن فقد أرادت أن تطبع فوق جبين ذلك الألم قُبلة وتمتمت بنفس مطمئنة:

- تجاهل مشاعري فدار الزمان وتجاهل جراحه.

وواصلت:

- الرحيل دواء مُر، لكنه خير من بقاء فاقد الروح.

لم يحدث وبرئ قلبها تمامًا فما يزال يصطلي ببذور حبه الميتة، وافترقا كلٌّ منهما في دربه، هي تعيش وفق ما قُدِّرَ لها وهو يعيش كفقاعة خفيف من حبها وذكراه. كان على قيد الحياة لكنه كان غريقًا؛ غريق سوء التخطيط والعشوائية، كان يعيش على هامش الحب وعلى هامش الحياة!

تمت بحمد الله

الفهرس	الصفحة

إهداء :..... ٥

العاشرة ليلًا في فندق شبرد – Shepherd Hotel.. قاعة نفرتيتي.. القاهرة ٧

قرية بُرّج مغيزل.. كفر الشيخ :..... ١٩

بدايات شتاء ٢٠١٣م:..... ٣٩

ذكريات القاهرة.. بَعد المحاضرة:..... ٥٧

موقف سيارات الأجرة.. فيشا سليم.. طنطا:..... ٩٧

صباح يوم السبت.. منطقة السيدة نفيسة:..... ١٠١

كارديف ـ Cardiff بريطانيا ـ British :..... ١٠٩

معبر باب الهوى.. تركيا:..... ١٢٩

بَعد الظهيرة :..... ١٤٩

صباح الجمعة :..... ١٦١

صبيحة يوم الخميس:..... ٢٣١

حقوق الطبع محفوظة للناشر

أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامى

يحظر نشر أو اقتباس أى جزء
من هذا الكتاب إلا بعد الرجوع
إلى الناشر